

كتاب : ثمرات الأوراق
المؤلف : ابن حجة الحموي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام حجة العرب وترجمان الأدب تقي الدين أبو بكر بن حجة الحنفي منشىء دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية تغمده الله برحمته.

أما بعد حمداً لله الذي فكهننا بثمار أوراق العلماء والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة، وأغصانها التي دنت لهذه الأمة قطوفها المثمرة. فإني وريت بتسمية هذا الكتاب بثمار الأوراق، علماً أن قطوفه لم تدن لغير ذوي الأذواق فمن ذلك ما نقلته من درة الغواص لأبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازني في قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار في تدريسه إياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أتريد هذه النفقة مع فاقنك واحتياجك إليها، فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة حديث وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أتمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له،

غناء جارية ولحنها بين يدي الواثق

قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجي:

أظلم إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلم

فاختلف من بالحضرة في إعراب رجلاً فمنهم من نصبه وجعله اسم إن ومنهم من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب فأمر الواثق بإشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل؟ قلت: من مازن يا أمير المؤمنين قال أي الموازن قلت من مازن ربيع فكلمني بكلام قومي وقال باسمك لأنهم يقبلون الميم باء والباء ميماً إذا كانت في أو الأسماء فكرهت أن أحبيه على لغة قومي لئلا أواجه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه مني ذلك، ثم قال: ما تقول في قول الشاعر:

أظلم إن مصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلم

أترفع رجلاً أم تنصبه فقلت الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك فقلت إن مصابكم مصدر بمعنى إصابكم فأخذ الزبيدي في معارضتي فقلت هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيداً ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه، أن الكلام متعلق إلى أن تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار. قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان إلى البصرة قال لي كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً. ونقلت من درة الغواص أيضاً أن حامد بن العباس سأل علي بن عيسى في ديوان الوزارة ما دواء الحمار

وكان قد علق به فأعرض عن كلامه وقال: ما أنا وهذه المسألة؟ فحجل حامد منه والتفت إلى قاضي القضاة أبي عمر فسأله عن ذلك فنحنح لإصلاح صوته ثم قال: قال الله تعالى: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " ، وقال النبي: " استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها " ، والأعشى وهو المشهور بهذه الصنعة في الجاهلية قال:

وكأس شربتُ على لذةٍ ... وأخرى تداويتُ منها بها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام فقال:

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءٌ ... وداويني بالتي كانت هي الداءُ

فأسفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ما ضرك يا بارد أن تحيب ببعض ما أجاب به مولانا قاضي القضاة؟ وقد استظهر في جواب المسألة بقول الله تعالى أولاً، ثم بقول النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً وأدى المعنى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأ بالمسألة، انتهى.

ويضارع هذه الحكاية في لين بعض القضاة المتقشفين وإذعائهم مع الزهد والتقشف للمستفتين، ما نقلته من درة الغواص للحريري أيضاً، قال: اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان:

إن التي ناولتني فرددتُها ... قُتِلَتْ قَتَلَتْ فهاهما لم تُقتلِ

كلتاها حلب العصير فعاطني ... بزجاجةٍ أرخاها للمفصلِ

فقال بعضهم امرأتي طالق، إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي عن علة هذا الشعر كيف قال إن التي فوحد ثم قال كلتاها فثنى فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا فيه ومضوا ينتخبون القبائل إلى بني شقرة فوجدوا عبيد الله بن الحسن يصلي فلما فرغ من صلاته قالوا له: قد جئناك في أمر دعنا إليه الضرورة وشرحوها له الخبر وسألوه الجواب فقال مع زهده وتقشفه: إن التي ناولتني فرددتها عني بها الحمرة المزوجة بالماء ثم قال كلتاها حلب العصير يريد الحمرة المتحلبة من العنب والماء المتحلب من السحاب المكى عنه بالمعصرات انتهى قال الحريري وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى تفسيره أما قوله إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فإنه خاطب به الساقى الذي ناوله كأساً ممزوجة لأنه يقال قتل الحمرة إذا مزجتها فأراد أن يعلمه أنه فطن لما فعله ثم ما اقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل يعني الصرف التي لم تمزج وقوله أرخاها للمفصل يعني به اللسان وسمى مفصلاً فالكسر لأنه يفصل بين الحق والباطل قال الحريري وليس على ما اعتمده القاضي عبيد الله من الاستماع وخفض الجناح ما يقدر في نزاهته ويغض من نبلة ونباهته والله أعلم.

ونقلت من درة الغواص أن عروة بن أذينة الشاعر وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له أأنت القائل:

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إلهي فيعيني تطلبهُ ... ولو قعدت أتاني لا يعينني

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق فقال له يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة في العلم

والجسم ولا رد وافدك خائباً والله لقد بالغت في الوعظ وأذكرتني ما أنسانيه الدهر وخرج من فوره إلى راحلته فركبها وتوجه راجعاً إلى الحجاز فلما كان في الليل ذكره هشام وهو في فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد إلي فجبته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول فلما أصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه وقال: لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له وأعطاه ألفي دينار وقال الحق بهذه ابن أذينة وأعطه إياها قال: فلم أدركه إلا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج إلي فأعطيته المال فقال أبلغ أمير المؤمنين قولي سمعت فأكدت ورجعت إلى بيتي فأتاني رزقي ويضارع هذه الحكاية ما حكى عن هذبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض فظفر إلي المأمون فقال أما شبت يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر فظفر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءني ومعه مندبل فيه ألف دينار فناولني إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك انتهى.

ومن لطائف ما جنبت من ثمرات الأوراق أن رجلاً من الخذاق كان يكتب كتاباً وإلى جانبه آخر فأنتهى في كتابه إلى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال يا مولانا زدها واواً للفرق بينها وبين عمر فقال: والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو بمعنى تفوصل قلت وبعضهم يرى أن الواو تزداد بعد لا النافية في الجواب إذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله.

قال أبو الفرج بن الجوزي: روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لرجل عري أكان كذا وكذا فقال: لا أطل الله بقاءك فقال الإمام عمر رضي الله عنه: قد علمتم فلم تتعلموا هلا قلت: لا وعافاك الله.

وحكي عن صاحب بن عباد أنه قال هذه الواو هنا أحسن من واوات الأصداغ في وجنات الملاح. قلت وهذه الواو أعني واو عمرو نظم فيها الشعراء كثيراً منهم أبو نواس قال يهجو أشجع السلمي.
قل لمن يدعي سليماً سفاهاً ... لست منها ولا قلامه ظفر
إنما أنت من سليماً كواو ... ألحقت في المهجاء ظملاً بعمرو
وقال أبو سعيد الراسبي وأجاد:

أفي الحق أن يُعطى ثلاثون شاعراً ... ويحرم ما دون الرضا شاعرٌ مثلي
كما سأموا عمراً بواوٍ مزيدةٍ ... وضويق بسم الله في ألف الوصل

ومن لطائف الخجنى ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قيل إنه قال يوماً للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف، أمض إليه وتفقده أحواله فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد:

ما ناصحتك خبايا الود من رجلٍ ... ما لم ينلك بمكروهٍ من العذل
محبتى فيك تأبى عن مسامحتى ... بأن أراك على شيءٍ من الزلل

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد إلى شيء من ذلك البتة.
ومن اللطائف ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى، قيل إنه لما استعرض الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار
ليشترية قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فأحضرت له دواة فكتب يقول:

لولا الضرورة ما فارقتكم أبداً ... ولا تنقلت من ناس إلى ناس
فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك في مشتراه ويضارعه ما حكي عن صاحب كمال الدين ابن
العديم قيل إن إنسانا رفع قصة إلى صاحب المشار إليه فأعجبه خطها فأمسكها وقال لرافعها هذا خطك
قال لا ولكن حضرت إلى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها إلي فقال عليّ به فلما حضر وجده
مملوكه فقال هذا خطك قال نعم قال فهذه طريقتي من هو الذي أظهره عليك فقال يا مولانا كنت إذا
وقعت لأحد على قصة أخذتها منه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فأمره أن يكتب بين يديه
ليراه فكتب:

وما تنفع الآداب والعلم والحجى ... وصاحبها عند الكمال يموت
فكان إعجاب صاحب الاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك وأذكرني اتفاق التورية في الكمال
هنا ما حكي عن القاضي فخر الدين لقمان والقاضي تاج الدين أحمد بن الأمير رحمهما الله أنهما كانا صحبة
السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه يا طنبا
فقال: له نعم ولم يأتها وكانت ليلة ممطرة مظلمة فأخرج فخر الدين ابن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول
نعم ولم أرك فقال القاضي تاج الدين:

في ليلة من جمادى ذات أنديّة ... لا يبصر الكلب في أرجائها الطنبا
ومن اتفاق التورية أيضاً ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة ملغزاً في
باب إلى والده:

ما واقف في المخرج ... يذهب طوراً ويحي
لست أخاف شره ... ما لم يكن بمرتع

فكتب إليه والده في الجواب ذهاب وإياب وخوف وشر هذا باب خصومة والسلام.
قيل إن صاحب جمال الدين بن مطروح كتب لبعض الرؤساء رقعة إلى صديق له يشفع فيها عنده. فكتب
ذلك الرئيس هذا الأمر عليّ فيه مشقة فكتب ابن مطروح في جوابه، لولا المشقة. فلما وقف عليها فهم
الإشارة إلى قول المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... ألوذ يفقر والإقدام قتال
وقضى الشغل على القور انتهى.

قيل إن يوسف الصديق عليه السلام كتب على باب السجن لما خرج منه، هذا قبر الأحياء وشماتة الأعداء
وتجربة الأصدقاء. وقال الشاعر:

دعوة الإخوان على الرخاء كثيرة ... بل في الشدائد تعرف الإخوان
والله در يزيد بن المهلب من ذي مروءة وسخاء وتصديق أهل فإن كان في سجن الحجاج يعذب فدخل عليه

يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه في كل اسبوع ستة عشر الف درهم فقال له:
أصبح في قيدك السماحة وال ... جودٌ وفصلُ السلاح والحسبُ
لا تضجرن إن تابعت نغمٌ ... وصارفٌ في البلاء محتسبُ
برزت سبق الجياد في مهلٍ ... وقصرت دون سعيك العرب
فالفتت يزيد إلى مولى له وقال: أعطه نجم هذا الأسبوع ونصبر على العذاب إلى السبت الآخر.
قال الأصمعي حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم بن الوليد إذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت
بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو في الخمر فقال: قاتلك الله ولو في الخمر فأنشد:
يا شقيق النفس من حكمٍ ... نمتَ عن ليلي ولم أنم
حتى انتهى إلى آخرها فقال:
فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم

فقال أحسنت والله يا غلام أعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج قال الأصمعي: فلما
خرجنا من عنده قال لي مسلم بن الوليد: ألم تر إلى الحسن بن هانيء كيف سرق شعري وأخذ به مالا وخلعا
فقلت له وأي معنى سرق لك قال قوله فتمشت في مفاصلهم البيت. فقلت وأي شيء قلت فقال:
كأن قلبي وشاحها إذا خطرت ... وقلبيها في الصمت والخرس
تجري محبتها في قلب وأمقيها ... جري السلافة في أعضاء منتكس

ترجمة المعتزلة

المعتزلة طائفة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الإنسان وأن القرآن مخلوق محدث
ليس بقديم وأن الله تعالى غير مرئي يوم القيامة وأن المؤمن إذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان
في منزلة بين منزلتين يعنون بذلك أنه ليس بمؤمن ولا كافر وأن إعجاز القرآن في الصرفة لا أنه في نفسه
معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه وأن من دخل النار لم يخرج منها وإنما سموا
معتزلة لأن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله تعالى عنه فلما ظهر الخلاف وقالت
الخوارج بكفر مرتكب الكبائر وقال الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر خرج واصل عن الفريقين
وقال إن الفاسق عن الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين
فطرده الحسن رضي الله تعالى عنه عن مجلسه فاعتزل عنه فقليل لأتباعه معتزلة. ولم يزل مذهب الاعتزال
ينمو إلى أيام الرشيد فظهر بشر المريسي وأحضر الشافعي مكبلا في الحديد فسأله بشر والسؤال ما تقول يا
قرشي في القرآن؟ فقال: إياي تعني؟ قال: نعم قال: مخلوق فخلى عنه وأحس الشافعي رضي الله عنه بالشعر
وأنه الفتنة تشتد في إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد إلى مصر ولم يقل الرشيد رحمه الله بخلق
القرآن فكان الأمر بين أخذ وترك إلى أن ولي المأمون فقال بخلق القرآن وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى في
الدعوة إلى ذلك، إلى أن قوي عزمه في السنة التي مات فيها وطلب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه،

فأخبر في الطريق أنه توفي فبقي الإمام محبوساً بالرقعة حتى بويع المعتصم فأحضر إلى بغداد وعقد له مجلس المناظرة وفيه عبد الرحمن بن إسحق، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام فلم يقطع في بحث، وسفه أقوال الجميع فأمر به فضرب بالسياط إلى أن أغمي عليه ورمي على بارية وهو مغشي عليه ثم حمل وصار إلى منزله ولم يقل بخلق القرآن ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل يحضر الجمعة ويفتي ويحدث حتى مات المعتصم وولي الواثق فأظهر ما أظهر من الحنة وقال للإمام أحمد لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه، فاختفى الإمام أحمد لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها، حتى مات الواثق وولي المتوكل، فأحضره وأكرمه وأطلق عليه مالا فلم يقبله وفرقه، وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية إلى أن مات المتوكل، وفي أيامه ظهرت السنة وكتب إلى الآفاق برفع ما توقع من الحنة وإظهار السنّة وتكلم في مجلس بالسنة ولم يزلوا أعني المعتزلة في قوة إلى أيام المتوكل ولم يكن في هذه الأمة الإسلامية أهل بدعة أكثر منهم. ومن مشاهيرهم على ما ذكروا من الفضلاء والأعيان الجاحظ وواصل بن عطاء والقاضي عبد الجبار والرماني النحوي وأبو علي الفارسي وأقضى القضاة الماوردي الشافعي وهذا غريب، ومن المعتزلة أيضاً صاحب بن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوي والسيرافي وابن جني والله أعلم.

ومما جنيته من ثمرات الأوراق أن الرشيد سأل جعفرًا عن جواريه فقال يا أمير المؤمنين كنت في الليلة الماضية مضطجعاً وعندني جاريتان وهما يكسبان فتناومت عنهما لأنظر صنيعهما وإحداهما مكية والأخرى مدنية فمدت المدنية يدها إلى ذلك الشيء فلعبت به فانتصب قائما فوثبت المكية وقعدت عليه فقالت المدنية أنا أحق به لأنني حدثت عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أحيا أرضاً ميتة فهي له. فقالت المكية: وأنا حدثت عن معمر عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الصيد لمن أثاره إنما الصيد لمن أخذه، فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه وقال هل من سلوة عنهما فقال جعفر هما ومولاهما بحكم أمير المؤمنين وحملهما إليه.

ومن ذلك ما حكى عن بعض المطربين أنه غنى في جماعة عند بعض الأمراء:
إذا أنت أعطيت السعادة لم تُبَلْ ... ولو نظرت شزراً إليك القبانل
وإن فوق الأعداء نحوك أسهماً ... ثنتها على أعقابهن المناصل
فطرب الأمير إلى الغاية ولما زاد طربه قال لبعض مماليكه هات خلعة لهذا المغني ولم يفهم المغني ما يقوله الأمير فقام لقلّة حظه إلى بين الخلاء وفي غيبته جاء المملوك بالخلعة فوجد المغني غائباً وقد حصل في المجلس عربية وأمر الأمير بإخراج الجميع فقليل للمغني بعدما خرج: إن الأمير كان قد أمر لك بخلعة فلما كان بعد أيام حضر المغني عند ذلك الأمير وغنى فقال:
إذا أنت أعطيت السعادة لم تُبَلْ ... ولو نظرت شزراً إليك القبانل
بفتح التاء وضم الباء، فأنكروا عليه فقال نعم لأنني لما بليت في ذلك اليوم فاتتني السعادة من الأمير فأوضحوا له القصة فضحك وأعجبه ذلك وأمر له بخلعة.

ومن المنقول أن عبد الله بن المعتز من خلفاء بني العباس مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل منعصاً في مدة حياته ببيع له بالخلافة وظن أن الحظ قد تنبه له فلم يتم الأمر له إلا يوماً واحداً ثم قبض عليه وقتل رحمه الله تعالى على أنه ما وافق على ولاية الأمر حتى اشترط عليهم أن لا يسفكوا في واقعته دماً ومحملة من الأدب لا يخفى وشمة فضله كالصبح لا تقط ولا تطفى وقد قيل:

لله درك من ملكٍ بمضيعةٍ ... ناهيك في العلم والعلياء والحسب
ما فيه لو ولا ليت تنقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب
وقال ابن الساعاتي:

عفت القريض فلا أسمى له أبداً ... حتى لقد عفت أن أرويه في الكتب
هجرت نظمي له لا من مهانته ... لكنها خفية من حرفة الأدب

قلت وما برح الزمان مولعاً بخمول أهل الأدب وخود نارهم. كان الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الأدب، وكان حسن السيرة متديناً قل أن عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر إخوانه، ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان ما صفاه له الدهر ولا هناء بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين، رحمه الله تعالى، لبث مدة يسيرة بدمشق الخروسة ثم حضر إليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان، فأخرجهما من ملكه بدمشق إلى صرخد ثم جهزاه إلى سميساط وفي ذلك كتب إلى الإمام الناصر ببغداد:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد منعنا بالسيف حق علي
فأنظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقى من الأول
فكتب الناصر الجواب: ولكن الفرق مثل الصبح
وإني كتابك يا ابن يوسف معلناً ... بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقّه إذ لم يكن ... بعد النبي له يثرب تأثر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم ... وابشر فناصرك الإمام الناصر
ولم ينصره الإمام الناصر بل توفي فجأة بسميساط، رحمه الله تعالى، ومن شعره ما ذكره ابن واصل في مفرج الكروب:

يا من يسود شعره بخضابه ... فعساه من أهل الشيبية يحصل
ها فاخضب بسواد حظي مرة ... ولك الأمان بأنه لا ينصل
قلت ومثله الملك الناصر داود ابن الملك المعظم وكان داود صاحب الكرك ما برح مع كمال فضله منكداً مشتتاً في البلاد توجه إلى بغداد ومعه فخر القضاة ابن بصاقة والشيخ شمس الدين الخرشاهي وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ إلى الإمام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده في الملا فما قدر له ذلك ولا وافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التي مطلعها:

وراني ألت بالكثيب ذوائبه ... وجنح الدجى وحفّ تجول غياهبه
تقهقه في تلك الربوع رعوذُه ... وتبكي على تلك الطلول سحائبه

وقال منها في حكاية حاله مع الخليفة:

أبحسن في شرع المعالي ودينها ... وأنت الذي تُعزّي إليه مذهبهُ
بأنّي أخوض الدو والدو مقفراً ... سباريته مقفراً وسباسيه
ويأتيك غيري من بلادٍ قريبةٍ ... له الأمن فيها صاحبٌ لا يجانبه

فيلقى دنوا منك لم ألق مثله ... ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه
وينظر في لألاء قدسك نظرة ... فيرجع والنورُ الإمامي صاحبه
ولو كان يعلوني بنفسٍ ورتبةٍ ... وصدق ولاءٍ لست فيه أصاقبه
لكنت أسلي النفس مما ترومه ... وكنت أذود العين عما تراقبه
ولكنه مثلي ولو قلت إنني ... أزيد عليه لم يحب ذاك عائبه

الناصر يشير إلى مظفر الدين كوكبوري بن كوجك فإنه قدم إلى الديوان فطلب الحضور، فأذن له وبرز له الخليفة وشاهد وجهه، ولما وقفت الخليفة على هذه القصيدة أعجبت به غاية الإعجاب، وهي من النظم البديع في غاية لا تدرك، فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة، وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور، وسبب ذلك أن الخليفة راعى عمه المذكور، والذي ثبت عند أهل التاريخ أن عمه العادل ما فعل ذلك إلا حسداً له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل: إنه كتب خطاً منسوباً لأزرى بالحدائق المدبجة.

وحكى صاحب الريحان والريعان قال حضر شاب ذكي بعض مجالس الأدب، فقال بعضهم: ما تصحيف نصحت فختني قال تصحيف حسن فاستغرب إسراعه، وكان بالجلس شاعر من أهل بلنسية فاتهم الشاب وقال مخبراً له ما تصحيف بلنسية فأطرق ساعة، ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسي يقول صدق ظني أنك تدعي وتنتحل، ما تقول، والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت يا شاعر فقال له وأي نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له إن لم يكن في اللفظ، فهو في المعنى ثم قام وهو يقول ذل، فتنبه بعض الحاضرين ونظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسية فخرج الشاعر المنازع ومضى إلى الشاب معترفاً ومعتذراً انتهى. وهذا المعنى في بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدماميني أحجية فقال:

أيا واحد العصر ما بلدة ... محاسنها في الورى تذكر

حجى ما يرادف تصحيفها ... وحقق أربعة أشهر

ومن الغريب ما نقل عن الفقيه عمارة اليميني الشاعر أنه مر بمصلوب فقال:

ومدّ على صليب الصلب منه ... يمينا لا تطول إلى الشمال

ونكس رأسه لعتاب قلب ... دعاه إلى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة الغرماء. وكان الفقيه نجم الدين عمارة أديباً ماهراً فقيهاً شافعي المذهب من أهل السنة قدم في دولة الفاطميين إلى الديار المصرية وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن زريك فكان عنده في أكرم محل وأعز جانب واتحد به على ما كان بينهما من الاختلاف في العقيدة ثم رحل إلى اليمن وعاد إلى مصر وأقام بها إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التي أولها:

رمىت يا دهر كفَّ الحمد بالشلل ... ورعته بعد حسن الحللي بالعطل

ومنها:

قدمت مصر فأولتني خلاتقها ... من المكارم ما أربي على الأمل

قومٌ عرفتُ بهم كسب الألو ف ومن ... تمامها أنها جاءت ولم أسل

يا لائمي في هوى أبناءِ فاطمةٍ ... لك الملامةُ إن قصرت في عدل

بالله زر ساحة القصرين وابكٍ معي ... عليهما لا على صفيين والجمال

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلةً ... بنسل آل أمير المؤمنين علي

وهي طويلة في غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه وقيل إنه استفتى عليه في قوله من

قصيدته الميمية:

وكان مبدأ هذا الأمر من رجلٍ ... سعى فأصبح يُدعى سيد الأمم

فأفتى الفقهاء بقتله وقالوا إن هذا الكلام رأي الفلاسفة في النبوات وأنها بالتكسب وهي إحدى المسائل التي

كفروا بها والصحيح أنه يجبي من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الأنبياء عنده شعور بأنه يكون فيما بعد

نبيا والذي يظهر أن هذا مفتعل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه في تلك القصيدة وما

يبعد أن القاضي الفاضل رحمه الله كان له ميل إلى هلاكه لأنه لما استشاره السلطان صلاح الدين في ضربه

قال الكلب يسكت ثم ينبح قال فيسجن قال: يرجى له الخلاص قال فيقتل قال كذا الملوك إذا أرادوا شيئاً

فعلوه ونهض فأمر بصلبه مع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب الفاضل فلما رآه مقبلاً قام ودخل إلى

بيته وأغلق الباب فقال الفقيه عمارة:

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص من العجب

نكتة أدبية قال ابن سناء الملك من أبيات:

صليني وهذا الحسن باقٍ فرما ... يُعزَل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل، وما قلت هذه

الغاية إلا وتعلمني أنها البداية ولا قلت هذا البيت آية القصيدة، إلا وتلي ما بعده وما نريهم من آية أفسحر

هذا أم أنتم لا تبصرون ولا عيب في هذه الخاسن إلا قصور الأفهام وتقصير الأنام وإلا فقد لهج الناس بما

تحتها ودنوا ما دونها والقصيدة فائقة في حسنها بديعة في فنها ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من

القصيدة فإن لفظه الكنس غير لائقة بمكانها انتهى. فأجاب ابن سناء الملك قائلاً قد علم المملوك ما نبه عليه

مولانا من أمر البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت مستحلياً له

معجبا به معتقداً أن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز حيث

يقول:

وقوامي مثل القناة من الخط ... وخدي من لحبي مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعرس عليه وتتعذر وما مال المملوك إلا إلى طريق من ميله إليه طبعه ولا سار إلا إلى من دله عليه سمعه ورأى المملوك أبا عبادة قد قال: ويا عاذلي في عبدة قد سفحتها ... لين وأخرى قبلها للتحجب تحاول مني شيمة غير شيمتي ... وتطلب مني مذهبا غير مذهبي وقال:

وما زارني إلا وهت صباية ... إليه وإلا قلت أهلاً ومرحبا
فعلم المملوك، أن هذه طريقة لا تسلك، وعقيلة لا تملك، وغاية لا ندرك، ووجد المملوك أبا تمام قد قال:
سلم على الربيع من سلمى بندي سلم
ووجدته أيضاً قد قال:

خشنت عليه أخت بني خشين
فاشماز من هذا اللفظ طبعه، واقتصر منه فهمه، ونبا عنه ذوقه، وكان سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال:
وقفت بالربيع أشكو فقد مشبهه ... حتى بكت بدموعي أعين الزهر
لو لم أعرها دموع العين تفسحها ... لرحمتي لا ستعارتها من المطر
وقد قال:

قدك غصن لا شوك فيه كما ... وجهك شمس نهاره جسدك
فوجد المملوك طبعه إلى هذا المر مائلا وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلا فنسج عن هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب وحك الشيء يعمي ويصم فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز قالها وحمل أثقالها وهي زلة تغتفر في جنب حسناته وأما المملوك فهي عورة ظهرت في أبياته فأجابه الفاضل بقوله ولا حجة فيما احتج به باین المعتز عن الكس في بيته فإنه غير معصوم من الغلط ولا يقلد إلا في الصواب فقط وقد علم ما ذكره ابن رشيق في العمدة من تفاوت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ومن بارده وغثة مالا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه حظه وأما البحري فأعطاه أكثر من حقه وقال:

ولو كان هذا موضع العتب لا شتفي ... فؤادي ولكن للعتاب مواضع
قال الشيخ صلاح الدين الصفدي لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة في غير هذا الموضوع ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال:

وخلصني من يدي عشقه ... ظلام على خده حنوده
كنست فؤادي من حبه ... ولحيته كانت المكسنة
قلت ما برح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليداً كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكسنة ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا أرعوى ولا ازدجر عما قبحه بل

غلب عليه الهوى أما نقد الفاضل على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجهة معشوقته التي ليس للعدار بوجنتها شعور فنقد صحيح وأما وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته وكان جائراً على عاشقه وسبكها هنا في قالب الهجو فهو نوع من المرقص والمطرب ولو وقف الفاضل على هذه المكنسة لأعدها لأبياته انتهى.

ومن لطائف المنقول ما حكى عن الشيخ مجد الدين ابن دقيق والعيد والد قاضي القضاة تقي الدين تغمدهما الله برحمته ورضوانه وهو أن الشيخ مجد الدين المشار إليه كان كثير الإحسان إلى أصحابه يسعى لهم على قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبته وشكا إليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له أكتب قصتك وأنا أتحدث مع الوالد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الأرض وينهي أنه فقير ومطرور بالطاء القائمة وقليل الحصى بالصناد وناولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يا فقير سبحان الله ضحك قائم وحظك ساقط انتهى.

ومن لطائف المنقول عن قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان، رحمه الله تعالى، أنه كان يهوى بعض أولاد الملوك، وله فيه الأشعار الرائقة يقال: إن أول يوم زاره بسط له الطرحة وقال ما عندي أعز من هذه طاً عليها ولما فشا أمرهما وعلم به أهل منعه من الركوب فكتب إليه:

يا سادتي إني قنعت وحقكم ... في حبكم منكم بأيسر مطلب
إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ... ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى ... يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ... ألقاه من كمدٍ إذا لم تركب
لرحمتي ورثيت لي من حالةٍ ... لولاك لم يك حملها من مذهبي
قسماً بوجهك وهو بدر طالعٍ ... ولبيل طرتك التي كالغيب
ويقامة لك كالقضيبي ركبٌ من ... أخطارها في الحب أصعب مركب
لو لم أكن في رتبةٍ أرعى لها ال ... عهد القديم صيانةً للمتصب
هتكت سترتي في هواك ولذلي ... خلع العذار ولجّ فيك مؤبّي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي ... قد جنّ هذا الشيخ في هذا الصبي
فأرحم فديتك حُرقةً قد قاربت ... كشف القناع بحق ذيك النبي

قال الشيخ جمال الدين بن عبد القادر التبريزي الذي يهواه القاضي شمس الدين بن خلكان رحمه الله الملك المسعود بن الملك الظاهر وكان قد تيممه حبه وكنت أنام عنده بالعادلية فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن ذهب الناس، فقال لي: نم أنت ههنا وألقى عليّ فروة قرظ وقام يدور حول بركة العادلية ويقول في دورانه:

أنا والله هالكٌ ... آيسٌ من سلامتي

أو أرى القامة التي ... قد أقامت قيامتي

وقيل إن قاضي القضاة شمس الدين المشار إليه رحمه الله سأل بعض أهل دمشق المخروسة وكان المسؤول من خواص أصحابه عن ترجمته عند أهل دمشق، فاستغفاه من ذلك فألح عليه؟ فقال: أما العلم والفضل فهم

مجموعون عليه وأما النسب فيدعون فيه الأدعاء ويقولون: إن مولانا يأكل الحشيش ويجب الغلمان.
فقال أما النسب والكذب فيه فهذا نوع من الهذيان، ولو أردت أن أنتسب إلى العباس، أو إلى علي ابن أبي
طالب، أو إلى أحمد من الصحابة، لأجازوا ذلك وأما النسب إلى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم فرس مجوس
فما فيه فائدة وأما الحشيشة فلكل ارتكاب محرم وإذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر فإنه ألد وأما محبة
الغلمان فيلغى غداً أجيبك عن المسألة انتهى.

ومما يناسب لطيفة قاضي القضاة شمس الدين، ما نقلته من روض الجليس ونزهة الأنيس حكي عن سليمان
بن محمد المهدي الصقلي قال: كان بأفريقية رجل نبيه شاعر، وكان يهوى غلاماً جميلاً من غلمانه فأشدد
كلفه به وكان الغلام يتجنى عليه، ويعرض عنه كثيراً، فبينما هو ذات ليلة وقد انفرد بنفسه ليشرب الخمر
إذ ذكر محبوبه فجرى بخاطره ما يفعله به من التجنى فزاد سكره، وقام من القور وقد غلب عليه الغرام
وسكر المدام، فأخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر الناس
باطفائنها واعتقلوه فلما أصبحوا فمضوا به إلى القاضي فأعلموه بفعله فقال له القاضي: لأي شيء أحرقت
باب هذا الغلام فأنشد على الفور:

لما تمدى على بعادي ... وأضرم النار في فؤادي

ولم أجد من هواه بداً ... ولا معيناً على السهاد

حملت نفسي على وقوفي ... ببابه وقفة الجواد

فطار من بعض نار قلبي ... أقل في الوصف من زناد

فأحرق الباب دون علمي ... ولم يكن ذاك من مرادي

قال فاستطرف القاضي واقعته واستلمح شعره ورق لحكاية حاله وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام
وأطلقه.

ومما يناسب هذه اللطائف قيل: إنه رفع إلى المأمون أن حائكاً يعمل السنة كلها لا يتعطل في عيد ولا جمعة،
فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطحبوا ... ما دام للورد أزهاراً وأنوار

فإذا شرب مع ندمائه على الورد غنى:

إشرب على الورد من حمراء صافية ... شهراً وعشراً وخمساً بعدها عددا

ولا يزولون في صبح وغبوق ما بقيت وردة فإنه انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد بصوت عال:

فإن يبقني ربّي إلى الرود أصطبَح ... وإن مت والهفي على الورد والخمر

سألت إله العرش جلّ جلاله ... يواصل قلبي في غبوق إلى الحشر

فقال المأمون لقد نظر هذا الرجل إلى الورد بعين جليّة فينبغي أن نعيّنه على هذه المروعة فأمر أن يدفع له في
كل سنة عشر آلاف درهم في زمن الورد.

ومن اللطائف ما حكي عن مجير الدين الخياط الدمشقي قيل: إنه كان يهوى غلاماً من أولاد الجند فشرب

مجير الدين في بعض الليالي وسكر فوقع في الطريق فمر الغلام عليه بشمعة وهو راكب فرآه في الليل مطروحا على الطريق فوقع عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على رأسه فاستيقظ وأنشد:

يا محرقاً بالنار وجه محبّه ... مهلاً فإن مدامعي تطفئه

أحرق بها جسدي وكل جوارحي ... وأحذر على قلبي فإنك فيه

ومن اللطائف ما حكاه الأصمعي قال: مررت بكناس يكس كنيفاً وهو يغني ويقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كرهية وسداد ثغر

فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكُنف فمعلوم. قال الأصمعي: وكنت

حديث السن فأردت البعث به فأعرض عني ملياً ثم أقبل علي وأنشد:

وأكرم نفسي إنني إن أهنيتها ... وحق لم تُكرم على أحدٍ بعدي

فقلت وأي كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنيتها به. فقال: بل لا والله من الهوان ما

هو أكثر وأعظم مما أنا فيه، فقلت له: وما هو فقال الحاجة إليك وإلى أمثالك، فقال: فانصرفت وأنا أخزي

الناس ذكرت بقول الكناس غريم الأصمعي ما يضارع ذلك أعني قوله:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كرهية وسداد ثغر

قيل: إنه كان لأبي حنيفة رضي الله عنه جار إسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فإذا جنه الليل، رجع إلى

منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوي السمك فإذا دب فيه السكر أنشد:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كرهية وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغليه السكر وينام، وكان الإمام أبو حنيفة يصلي الليل كله، ويسمع

حديثه وإنشاده ففقد صوته بعض الليالي فسأل عنه فقيل: أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى

الإمام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير فقال أئذنوا له واقبلوا به راكباً حتى يطأ البساط فلما

دخل على الأمير أجلسه مكانه وقال ما حاجة الإمام فقال لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام

فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليل إلى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الإمام

وتبعه جاره الإسكاف فلما وصل إلى داره قال له الإمام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت

جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعايته والله عليّ أن لا أشرب بعدها خمرًا فتأب من يومه ولم يعد إلى ما

كان عليه انتهى.

ومما يناسب هذه اللطائف ما ذكره الحريري في كتابه الموسوم بتوشيح البيان نقل أن أحمد بن المعدل كان يجد

بأخيه عبد الصمد وجدا عظيما على تباين طريقيهما لأن أحمد كان صواما قواماً وكان عبد الصمد سكيراً

خمورياً وكانا يسكنان داراً واحدة ينزل أحمد في غرفة أعلاها وعبد الصمد في أسفلها فدعا عبد الصمد ليلة

جماعة من ندمائه وأخذ في القصف والعزف حتى منعوا أحمد الورد ونغصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال

أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض فرفع عبد الصمد رأسه وقال وما كان الله ليعذبهم

وأنت فيهم وذكرت بما الاقتباس الذي خلب القلوب هنا بحسن موقعه اقتباسا خلب قلوب الناس لعظم موقعه وما ذاك إلا أن الحاكم الفاطمي على ما ذكر، لما بني المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح قيل إنه فسد حاله في آخر أمره وادعى الألوهية وكتب بسم الله الرحمن الرحيم وجمع الناس إلى الإيمان به وبذل لهم نفائس وكان ذلك في فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفعه ولا يندفع فقرأ في ذلك الوقت بعض القراء وكان حسن الصوت يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز. فاضطربت الأمة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة في حكاية الحال، حتى كأن الله أنزلها تكديماً للحاكم فيما أدعاه وسقط الحاكم من فوق سريره خوفاً من أن يقتل وولى هارباً، وأخذ في استجلاب ذلك الرجل إلى أن اطمأن إليه فجهره رسولا إلى بعض الجرائر وأمر ياغراقه ورؤي بعد ذلك في المنام فقبل له ما وجدت فقال ما قصر معي صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة ومن الاقتباسات التي وقعت للمتأخرين في أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال ما سمعت وشهدت حكاية حالة بالجامع الأموي وما ذاك إلا أن قاضي القضاة علاء الدين أبا البقاء الشافعي، رحمه الله تعالى، كان قد عزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق الخروسة فعاد إلى وظيفته والبس التشريف من قلعة دمشق وحضر إلى الجامع على العادة، ومعه أخوه قاضي القضاة بدر الدين الشافعي بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضيرير المقرئ وقرأ قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا وغير أهلنا ونحفظ أخاننا إلى آخر الآية فحصل بالجامع الأموي ترنم صفق له النسر بجناحية.

وروى المرزبان بإسناده أن الجنون خرج مع أصحاب له يمتار من وادي القرى فمر بجبلي نعمان فقالوا إن هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلي تنزلهما قال فأني ربح قنب من نحو أرضها إلى هذا المكان فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى قنب الصبا فأقام في ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا له ولهم ثم أتوا فحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفي ذلك يقول:

أيا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبدٍ لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريحٌ إذا ما تنسمت ... على نفس مهمومٍ تجلت همومها
وضمن البيت الأول الشيخ صفي الدين الحلبي في مליح اسمه نعمان
أقول وقد عاقت نعمان ليلة ... بنور محياه أنار أديمها
وقد أرسلت إلياه نحوي فسوة ... يروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلي نسيمها

وكان لابن الجوزي رحمه الله تعالى زوجة أسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت في بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها فاتفق أنه جاءته امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاهما عند فأنشد في الحال:

أيا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلصُ إلي نسيمها
قلت وعلى ذكر نعمان والكناية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر الطيب الأربلي في
كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو أن بعض الرؤساء قال: أخبرني بعض الأصحاب قال: كنت يوما
جالسا عند صديق لي بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشويق وفيه عتاب بهذا البيت:
تناسيتم العهد القديم كأننا ... على جبلي نعمان لن نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتر له فقلت بالله عليك أسألك شيئا لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك
صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال أي والله ومن أين علمت ذلك فقلت من البيت
لأنها ذكرت في جبلي نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الأدب عن جانبي الكفل للمليح والمليحة
فقال والله ما أدركت ما أدركت ونقلت من اللطائف المسبوكة في قالب التورية أن بعض الكتاب دخل
يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما يلوط بأحد الغلمان الملاح من طلبته في
قراءة النحو ولم يره الغلام فجلس النحوي في مكانه وبقي الغلام واقفا مبهورا فقال الكاتب للنحوي مالي
أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوي وقع عليه الفعل فانتصب.

ومثل ذلك قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل لما كتب إليه في مرضه:
أنظر إلي بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي احتاج ما يحتاجه ... فأغرم دعائي والثناء الوافي
فحضر إليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذي وأنا الغائد وهذه الصلة وظرف من قال:
وذي أدبٍ بارعٍ لكنه ... أولجت فيه قمداً عنف
فقلت فديتك أعصر عليه ففيه اللذاذة لو تعترف
فقال أجدت ولكن لحت ... لهولك أعصر بفتح الألف
فقلت لك الويل من أحق ... فقال وأحق لا ينصرف
وأظرف منه قول الحسين بن الريان:

أتيت حانة خمار وصاحبها ... مما جنى متقن للنحو ذو لسن
وحوله كل هيفاء منعمة ... وكل علقٍ رشيقٍ أهيفٍ حسن
فقال لي إذ رأى عيني قد انصرفت ... إلى النساء كلام الحاذق الفطن
أنت وركب وصف وأعدل بمعرفة ... وأجمع وزد واسترح من عمة وزن
ومثله ما حكى أن بعض الفقراء وقف على باب نحوي فقرعه فقال النحوي من الباب فقال سائل فقال
ينصرف فقال اسمي أحمد فقال النحوي لعلامة أعط سيويوه كسرة.
ومثله قول ابن عنين:

شكا ابن المؤبد من عزله ... وذم الزمان وأبدى السفه
فقلت له:

لا تدم الزمان ... فظلم أيامه المنصفه

ولا تعجب إذا ما صرفت ... فلا عدل فيك ولا معرفه
وألفظ منه قول القائل:

ورقيع أراد أن يعرف النحو ... بزي العيار لا المستفي
قال لي لست تعرف النحو مثلي ... قلت سلمي عنه أجب في الوقت
قال ما مبتدا وما الخبر المجرور ... أوجز فقلت ذكك في استي
وأحسن منه وأبدع قول الشيخ زين الدين بن الوردي:
وشادن يسألني ... ما المبتدا والخبر

مثلهما لي مسرعاً ... فقلت أنت القمر

ومن النكت المسبوكة في قالب التورية أيضا ما قيل أن شهاب الدين القوسي حضر عند الملك الأشرف وقد
دخل إليه سعد الدين الحكيم فقال الملك الأشرف ما تقول في سعد الدين الحكيم لشهاب الدين فقال يا
مولانا السلطان إذا كان بين يديك فهو سعد الدين، وعلى السماط سعد بلع، وفي الخباء عن الضيوف سعد
الأخبية، وعند مرض المسلمين سعد الذابح قال فضحك الملك الأشرف واستسحن اتفاقه البديعي وأبدع
منه في هذا الباب ما نقل عن الشيخ نظام الدين قيس إنه لقي صاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور
فسأله صاحب عن حاله فقال:

حال متى علم ابن منصور بها ... جاء الزمان إليّ منها تائباً

قلت إن نظام الدين أحق من أبي الطيب بهذا البيت ومن النكت بالتورية أيضاً قيل إن بعض الماجنات أرادت
السفر فلقبها بعض الجنان فقال لها خذي معك هذا الكتاب وأشار إلى ذكره فقالت له على الفور إن لم ألق
أمك أعطه أختك ومثل ذلك أن الشيخ بدر الدين بن صاحب لقي شخصاً ومعه مليحان فقال ما اسمك
فقال عبد الواحد فقال أخرج منهما فأنا عبد الاثنين. ومثله أن ابن نقيلة المغني مرض وأشرف على الموت
فجاء إليه ابن صاحب يعوده فقال له كيف حال النقيلة فقال ما أخوفني أن تصير مدفونة مثله أن بعض
الجنان رأى امرأة حاملة سرموجة فقال له متى زوجك حملك تركاشه فقالت له رح لأرميك منه بفردة ومثله
أن بعضهم رأى امرأة حاملة فردة سقمان لتخيطة فقال لها: أعتقي هذا الغراب. فقالت له رح لأسيبه
ينقر. ومثله أن الشيخ بد الدين المذكور أولاً حضر إلى مجلس قاضي القضاة ناصر الدين المالكي فذكروا
محاسن القاضي محب الدين ناظر الجيشين وحسن أخلاقه ثم ذكروا محاسن الشعر فأنشده قاضي القضاة:
فكم أب قد علا بابن ذوي شرفٍ ... كما علت برسول الله عدنان

فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بد الدين ابن صاحب والقاضي محب الدين يحب هذا
البيت فطربوا له. ومما وقع له بذلك المجلس أنه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقيا مملوك له
اسمه بكنمر فلما شرب الشيخ بدر الدين قال له قاضي القضاة ما تقول يا شيخ قال رأيت ملك العلماء
بكنمر الساقى ومثله أن صاحب بن سكر أراد قارئاً يقرأ بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة فاخترأوا له رجلين
أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع في ظهر القصة مرتضى زيادة وزيادة مرتضى. ومثله أن ابا الحسين

الخرّاز جاء إلى باب صاحب زين الدين بن الزبير فأذن للناس في الدخول ولم يأذن له فكذب في ورقة:
الناس كلهم كالأير قد دخلوا ... والعبد مثل الخصي ملقى على الباب
فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه أخرج إلى الباب وقل يا خصي أدخل فدخل أبو الحسين وهو يقول هذا
دليل على السعة ومن التنكيت والحشمة بالتورية أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال أخبرني الشيخ فتح
الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد أن بهاء الدين بن النحاس يرجح أبا
تمام على المتبي فما رأيك أنت فسكت فقلت ثانيا فقال كنت كذا في الأول قال الشيخ صلاح الدين ولما
حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال أنا على رأي ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين ومن رأيته
يعظم أبا تمام شيخنا أثير الدين ويرجحه على المتبي فعذلناه في ذلك فقال أنا ما أسمع عدلا في حبيب.
ونقلت من خط صاحب فخر الدين ابن الكانس رحمه الله قال سافرت سنة إحدى وستين وسبعمائة مع
الصاحب فخر الدين ابن قروينية إلى دمشق المحروسة وقد ولي نظر مملكتها ووالدي رحمه الله افتاءها وكان
له دواidar يسمى صبيحاً وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان لطيفا كثير النواذر فاتفق أن
جمال الدين بن الرهاوي موقع دست الوزارة ركب يوما فتقنطر به الفرس وداس على رأس أحليله فحمل
إلى داره وأقام أياما إلى أن عوفي وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس فقال صاحب ما سبب تأخر
فقال تقنطر بي الفرس وداس رأس أحليلي فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء
فقال له صبيح: الحمد لله على سلامة الخصي فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوي وانصرف. وحكي
أن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض
أصدقائه فسأله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل
منه وأبرزها في قالب الجون.

وأنشد ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه:

أصبحت ألطف من مر النسيم على ... زهر الرياض يكاد الوهم يؤلني

من كل معنى لطيف أجتلي قدحا ... وكل ناطقة في الكون تطربني

فقام إليه إنسان فقال يا سيدي الناطق حمرا فقال أقول له يا حمار اسكت ويعجبني قول برهان الدين

القيراطي:

صاح هذي قباب طيبة لاحت ... وفؤادي على اللقاء حريص

وتبدت نخيلها للمطايا ... فعيون المطي للنخل خوص

ويطربني ما حكاه أبو الفوارس بن إسرائيل الدمشقي. قال كنت يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف بن

أيوب فحضر رسول المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ومعه قواد وهدايا فلما جلس

أخرج من كفه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول

هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أحد من بني أيوب مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا

فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فإذا

عليها مكتوب:

أنا من نخلة تجاور قبراً ... ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتني عناية القبر حتى ... صرت في راحة ابن أيوب أقرا
وإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقبلها السلطان صلاح الدين
ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة. وأحسن
ما سمع فيها قول عرقلة الدمشقي:

ومحوبة في القبط لم تخلُ من يدٍ ... وفي القرّ تسلوها أكفُ الحباب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقاً ... أتت بالهوى الممدود من كل جانب
وقال غيره وأجاد:

ومروحة أهدت إلى النفس روحها ... لدى القبط ميثوثاً ياهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها ... على ضعفه مستخرجاً من صحيحها
نقل الحافظ اليعمري أن أبا نصر المنازي واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبي العلاء المعري في جماعة من أهل
الأدب فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر فأنشده أبو نصر:

وقانا لفحة الرمضاء وإدٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو الوالدات على القطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألدّ من المدامة للنديم
يصدُّ الشمس أني واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم
فقال أبو العلاء أنت أشعر من بالشام.

ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد فدخل المنازي عليه في جماعة من أهل الأدب ببغداد وأبو العلاء لا يعرف منهم
أحداً فأنشد كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنازي فأنشد:

لقد عرض الحمام لنا بسجعٍ ... إذا أصغى له ركبٌ تلاحي
شجى قلب الخلي فليل غنى ... وبرح بالشجيّ فليل ناحا
وكم للشوق في أحشاء صبٍّ ... إذا اندملت أجدها لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى ... وسكران الفؤاد وإن تصاحي
بذاك بنو الهوى سكرى صحاةً ... كأحداق المها مرضى صحاحا
فقال أبو العلاء ومن بالعراق عطفاً على قوله من بالشام انتهى.

نادرة مشى البيدق اليزيدي مع شاب موسوم بالجمال فقال له شمس الدين بن المنجم الشاعر أراك يا بيدق
تفرزنت حول هذه النفس فقال وإذا كان فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك
عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان في كهك الفيل. ومثله في الطرف أن بعض الأجناد كان كثير
اللب بالشطرنج وكان الجندي خليعاً ظريفاً فأعطاه الأمير في بعض الأيام فرسا وقال له لا تفترط فيها فقال

نعم وبعد ذلك التقاه الأمير وهو لابس جوخة فقال ويلك أين الفرس فقال يا خوند ضربني الشتاء شاه مات فتسترت بالفرس. ويعجبني قول الشيخ بد الدين ابن الصاحب:

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة ... نهاراً وليلاً ثم بؤساً وأنعماً

محرکہا باق وتنفی جميعها ... وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما

قلت ويشبه هذا قول الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعاني الخيال أعني خيال الظل ليفرجه عليه فقام الفاضل عند الشروع في عمله فقال له الناصر إن كان حراماً فما نحضره وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلي السلطنة فما أراد أن يكدر عليه فقعد إلى آخره فلما إنقضى ذلك قال له الملك الناصر كيف رأيت ذلك قال رأيت موعظة عظيمة رأيت دولةً تمضي ودولاً تأتي ولما طوي الأزار إذا المحرك واحد فأخرج ببلاغته هذا الجد في هذا الهزل انتهى.

وللشيخ بدر الدين الصاحب مضمناً في الشطرنج:

أميل لشطرنج أهل النهي ... وأسلوه من ناقل الباطل

وكم رمت تمذيب لعابها ... وتأبى الطباع على الناقل

ويعجبني قول الشيخ عز الدين الموصلی حيث قال:

جاهل شطرنج ينادي وقد ... أمات نفس اللعب من عكسه

ما تفعل الأفعال في جاهل ... ما يفعل الجاهل في نفسه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

افديه لاعب شطرنج قد اجتمعت ... في شكله من معاني الحسن أشتات

عيناه منصوبة للقلب غالباً ... والحد فيه لقتل النفس شامات

نادرة لطيفة حكى أن السراج الوراق جهز غلاماً له يوماً لبيتاع له زيتاً طيباً ليأكل به لفتاً فأحضره وقلبه على الفت فوجده زيتاً حاراً فأنكر على الغلام ذلك فأخذه وجاء إلى البائع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله يا سيدي مالي ذنب لأنه قال أعطني زيتاً للسراج انتهى.

ومثله ما حكاه الصاحب فخر الدين بن مكناس عن صاحبه سراج الدين القوصي أنه كان حصل له طلوع في جسده فتردد إليه المزين وصنع له فتائل على العادة قال فقلت له يوماً كيف الحال يا سراج الدين فقال كيف حال سراج فيه سبع فتائل.

ورأيت له في ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله:

إذا السراج اشترى أيري فأنت به ... أولى وذلك للأمر الذي وجبا

إسكندري وتُدعى بالسراج وذا ... مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

نادرة لطيفة اجتمع محدث ونصراني في سفينة فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة وشرب وصب وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلاماً من خمار يهودي وحلف أنها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصراني

أنت أحق نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين أفنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

نادرة لطيفة نظر طفيلي إلى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم في دعوة ذاهبون إلى وليمة فقام وتبعهم فإذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق إلى الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له أنشد شعرك فقال لست بشاعر قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم " والشعراء يتبعهم الغاوون " فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء.

وحكى الهيثم بن عدي قال ماشيت الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلاً وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج انتهى.

ومن غرائب المنقول أن يحيى بن اسحق كان طبيباً حاذقاً صانعاً بيده وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزروه نقل عنه من حذقه أنه أتى إليه بدوي على حمار وهو يصيح على باب داره أدركوني وكلموا الوزير بخبري فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم بالحيلى منعي النوم منذ أيام وأنا في الموت فقال له اكشف عنه فإذا هو ورم فقال لرجل جاء معه أحضر لي حجراً أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الأحليل فلما تمكن أحليل الرجل من الحجر جمع الوزير يده وضرب الأحليل ضربة غشي على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجري فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال في أثر ذلك فقال له أذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عايب واقعت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها ولجت في عين الاحليل فورم لها وقد خرجت في الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الخلق المفرط.

ومثله أن ابن جميع الاسرائيلي كان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدام سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الأمر. ومما نقل عنه في حذقه أنه كان جالسا في دكان وقد مرت عليه جنازة فملا نظر إليها صاح يا أهل الميت إن صاحبك لم يمت ولا يحل أن تدفنه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذي يقوله لا يضرنا ويتعين أن فمتحنه فإن كان حيا فهو المراد وإن لم يكن حيا فما يغير علينا شيء فاستدعوه إليهم وقالوا بين لنا ما قلت فأمرهم بالعود إلى الميت وأن يترعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحى بدنه نطله فظهر فيه أدنى حسن وتحرك حركة خفيفة فقال أبشروا بعافيته ثم تم علاجه إلى أن أفاق وصحا فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الخلق والعلم ثم إنه سئل بعد ذلك ومن أين علمت أن في ذلك الميت بقية روح وهو في الأكفان محمود فقال نظرت إلى قديمه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسطة فجلست أنه حي وكان حدسي صائبا.

نادرة لطيفة قيل إن المنصور ابن أبي عامر الأندلسي كان إذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر إلى الغزاة إلا من الجامع فاتفق أنه في بعض حر كاته للغزاة توجه إلى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة

والعلماء وارباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل أبشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فأستحسن المنصور ذلك واستبشر به وكانت الغزوة من أبرك الغزوات. ومثل هذا لما خرج المنصور العباسي إلى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فأخذه بعض الأولياء فمسحه وقال:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فضحك المنصور وقال لم ما قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من إشارات المتأدين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين فكان الأمر على ما ذكره وأخذ الحصن وحصل الظفر بأبي يزيد.

حكى أن الشيخ شهاب الدين ابن محمود قال عدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في دمشق بالمدرسة النجيبية سنة إحدى وثمانين وستمائة فأنشدني لبعض أهل الأدب في نقيب الأشراف بالمدائن رثاء خلب قلبي وهو يقول:

قد قلت للرجل المولى غسله ... هلا أطاع وكت من نصائحه

جنبه ماءك ثم غسله بما ... أذرت عيون المجد عند بكائه

وأزل أفاويه الحنوط ونحها ... عنه وحنطه بطيب ثنائه

ومر الملائكة الكرام بقله ... شرفاً ألت تراهم يازائه

لا توه أعناق الرجال بحمله ... يكفي الذي حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوق في نفسي أنه أحق الناس بهذا الرثاء وأنه نعى نفسه فمات في ذلك الأسبوع برد الله مضجعه.

نكتة لطيفة قيل إنه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله من الشام إلى بغداد وجلس على عادته أخذ يقلل أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول إنه ما بقي من يجاري وقد خلت الدنيا وأنشد: ما في الصحاب أخو وجدٍ نظارحه ... حديث نجدٍ ولا خلٌ نجاريه

فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوته فقال يا شيخ كم تنتقص بالقوم والله إن فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصاراك أن تفهم ما يقول هلا قلت:

ما في الصحاب وقد سارت حمولهم ... إلا محبٌ له في الركب محبوب

كأنما يوسف في كلِّ راحلة ... والحي في كلِّ بيتٍ منه يعقوب

فصاح السهروردي ونزل عن الكرسي وطلب الشاب فلم يجده.

حكى عن ابن المطرزي الشاعر أنه مر وفي رجله نعل بالية بالشريف الرضي فأمر بإحضاره وقال أنشدني أبياتك التي تقول فيها:

إذا لم تبلغني إليك ركائب ... فلا وردت ماءً ولا رعت العشا

فأنشدته إياها فلما انتهى إلى هذا البيت أشار إلى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فأطرق ابن المطرزي ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف إلى مثل قوله:
وخذ النوم من جفوني فإني ... قد خلعت الكرى على العشاق
عادت ركائبي إلى مثل ما ترى لأنك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فحجل الشريف وقابله بما يليق من الإكرام.
قلت وأما الأجوبة الهاشمية وبلاغتها في الحل الأرفع.

فمن ذلك أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا يا أمير المؤمنين ابعث لنا إلى الحسن بن علي فقام لهم فيم: فقالوا: كي نوبخه ونعرفه إن أباه قتل عثمان فقال لهم إنكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيئاً إلا كذبكم الناس ولا يقول لكم شيئاً يبلاغته إلا صدقه الناس فقالوا ارسل إليه فإننا سنكفيك أمره فأرسل إليه معاوية فلما حضر قال يا حسن إني لم أرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم وأجب ولا تحرمي فقال الحسن عليه السلام فليتكلموا ونسمع فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هل تعلم يا حسن أن أباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا بني هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان فنعم الصهر كان يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه وقتلتموه ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك فأثقتنا الله منه ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب، ثم قام عقبة فقال تعلم يا حسن أن أباك بغى على عثمان فقتله حسداً على الملك والدنيا فسلبهما ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سبا لعلي وتعظيماً لعثمان فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال بك أبدأ يا معاوية لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضا وعداوة وخلافاً لجدي صلى الله عليه وسلم ثم الفت إلى الناس وقال أنشدكم الله أعلمون أن الرجل الذي شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى للقبليتين وأنت يا معاوية ويومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين ثم قال أنشدكم الله والإسلام أعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يوماً فرجع الرسول وقال هو يأكل فرد الرسول إليه ثلاث مرات كل ذلك وهو يقول هو يأكل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أشبع الله بطنه أما تعرف ذلك في بطنك يا معاوية ثم قال وأنشدكم الله أعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله لك يا معاوية وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه الأهمهم حسبا وشرهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت إني شائء محمداً فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم إن شانتك هو الأبر ثم هجوت محمداً صلى الله عليه وسلم بثلاثين بيتاً من الشعر فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني لا أحسن الشعر ولكن العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلقت إلى النجاشي بما علمت وعلمت فأكذبك الله وردك خائباً فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام فلم نلصقك على بغضك وأما أنت يا ابن أبي معيط فكيف ألصقتك على

سبك لعلي وقد جلد ظهره في الخمر ثمانين سوطاً وقتل أبوك صلباً بأمر جدي وقتله جدي بأمر ربي ولما قدمه للقتل قال من للصبي فلم يكن لكم عند النبي إلا النار ولم يكن لكم عند علي غير السيف والسوط وأما أنت يا عتبة فكيف تعد أحداً بالقتل لم لا قتلت الذي وجدته في فراشك مضاجعا لزوجتك ثم أمسكتها بعد أن بغت وأما أنت يا أعور ثقيف ففي أي ثلاث تسب علياً أفي بعده من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم في حكم جائر أم رغبة في الدنيا فإن قلت شيئاً من ذلك فقد كذبت وأكذبتك الناس وإن زعمت أن علياً قتل عثمان كذبت وأكذبتك الناس وأما وعيدك فإنما مثلك كمثله بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها استمسكي فإني أريد أن أطير فقالت لها النخلة ما علمت بوقوفك فكيف يشق عليّ طيرانك وأنت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشق علينا سبك ثم نهض ثيابه وقام فقال لهم معاوية ألم أقل لكم إنكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم عليّ البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير. انتهى.

ومن غريب النقل أن شريك بن الأعور دخل على معاوية وهو يجتال في مشيته فقال له معاوية والله إنك لشريك وليس لله من شريك وإنك ابن الأعور والصحيح خير من الأعور وإنك لدميم والوسيم خير من الدميم فبم سودك قومك فقال له شريك والله إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية وإنك ابن حرب والسلم خير من الحرب وإنك ابن صخر والسهل خير من الصخر وإنك ابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت فسميت أمية فكيف صرت أمير المؤمنين فقال معاوية أقسمت عليك إلا ما خرجت عني.

نكتة لطيفة اتفق أن الملك المعظم عزم على الصيد فقال له بعض جماعته يا مولانا إن القمر في العقرب والسفر فيه مدموم والمصلحة أن تصبر إلى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر إذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجهاً فوقف أمامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين، بالله يا مولانا اركب في هذه الساعة فهذا القمر قد حل في القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشاراً بالقول، فلم يركب أطيب من تلك السفرة، ولا أكثر من صيدها.

ومن غرائب المنقول ما حكى إسحق النديم عن أبيه قال: استأذن الرشيد أن يهبط لي يوماً من الجمعة لأنبعث فيه بجواري وإخواني فأذن لي في يوم السبت وقال هو يوم أستقله فإله فيه بما شئت قال: فاقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمت لإصلاح طعامي وشرابي، وأمرت بوابي بإغلاق الباب وأن لا يأذن لأحد من الناس، فبينما أنا في مجلسي، والحرم قد حقفن بي إذا أنا بشيخ عليه هبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مفعمة بالقصة وروائح الطيب تفوح منه فدخلني لدخوله علي مع ما قدمت من الوصية غيظ عظيم، وهممت بطرد بوابي ومن يحجبني لأجله، فسلم عليّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ في حديث الناس وأيام العرب وإشعارها حتى سكن ما بي فظننت أن غلماني قصدوا مسرتي بإدخاله علي لظرفه وأدبه فقلت له هل في الطعام فقال لا حاجة لي به فقلت هل لك في الشراب فقال ذاك إليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا إسحق هل لك في أن تغني ونسمع منك ما فقت به على العام والخاص، قال فغاطني منه ذلك ثم سهلت الأمر على نفسي، أخذت العود وضربت وغيت فقال: أحسنت يا إبراهيم فازددت

غيظا وقلت ما رضي بما فعله حتى سماني باسمي ولم يحسن مخاطبتي، ثم قال: هل لك في أن تريدنا ونكافئك قال فتقدمت وأخذت العود وضربت وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما فطرب وقال أحسنت يا سيدي ثم قال أتأذن لعبدك في الغناء فقلت له أسأت قال ولم: قلت لأنك قلت حمراء فقلت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقلت الصفرة فقال ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض وأبو ناجية من كني إبليس. قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن خلكان في تاريخه وفي رواية أخرى أن الشيخ أبا علي الفارسي قال أنشدني ابن دريد هذين البيتين وقال جاءني إبليس في المنام ثم ذكر بقية الكلام الخ. ونقل ابن خلكان وغيره أن أبا بكر فريضة قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالأجوبة عن جميع ما يسأل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلب ومنقطعا إليه وله مسائل وأجوبة مدونة في أيدي الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه ويكتبون له المسائل الغريبة الغريبة المضحكة فيكتب الأجوبة من غير توقف ولا يكتب إلا مطابقاً لما سألوه وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يصنعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر فمن ذلك ما كتب إليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان ما يقول القاضي أيده الله تعالى في رجل سمي والده مداما وكناه أبا الندامي وسمى ابنته الراح وكناهها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الإطراب وسمى وليدته القهوة وكناهها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته فكتب تحت السؤال لو نعت هذا لأبي حنيفة لأقعدته خليفة وعقد له راية وقاتل تحتها من خالف رأيه ولو علمنا مكانه لقلبنا أركانه فإن أتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعملنا علمنا أنه أحيا دولة الجون وأقام لواء ابن الزرجون فبايعناه وشايعناه وإن تكن أسماء سماها ما له بما من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن إلى إمام فعال أحوج منا إلى إمام قوال وكتب إليه العباس الكاتب ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهودي زنا بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما فكتب تحت سؤاله بديها هذا من أكبر الشهود على الملاعين اليهود فإنهم أشربوا حب العجل في صدورهم حتى خرج من أمورهم وأرى أن يناط رأس اليهودي برأس العجل ويصلب على عنق النصرانية ألساق مع الرجل، ويسحبان على الأرض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام.

نادرة لطيفة ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي: أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك وأريد أن أسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي فخذته وأقتله وإياك أن تجن في أمره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له إن المنصور دفع إلي عمه وأمرني بقتله فقال له يريد أن يقتلك به فإنه أمرك بذلك سرا ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك ولا تطلع عليه أحداً فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سرا أبداً ففعل ذلك وقدم المنصور فلس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم علي بعيسى بن موسى فأتاه فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك عمي

وعملك عبد الله قبل خروحي إلى الحج وأمرت أن يكون في منزلك مكرماً قال قد فعلت ذلك قال قد كلمني فيه عمومتك فرأيت الصفع عنه فأتني به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله قال لا بل أمرت بك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيك وأدعى أنني أمرته بذلك وقد كذب قالوا فدعه إليه نقتله قال شأنك فأخرجوه إلى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فإن عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين فردوه إليه فقال يا أمير المؤمنين إنما أردت بقتله قتلي هذا عمك حيا إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته قال اتنا به فأتني به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحاً لما شرع في عمارته وأعد له هذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب المليح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفي وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين إن علياً قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي قال قلت ما لك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى.

ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان ما صورته نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشغل بالأدب وكان أبوه حداداً قهراً فلامه وقال يا ولدي نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه فاتفق أنه برع في العلم والأدب وقال الشعر وعمل في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها:
يا شمس خدر ما لها مغرب ... وبدر تم قط لا يحجب
وقال منها:

ناشدتك الله نسيم الصبا ... أين استقرت بعدنا زينب
لم تسر إلا بشذا عرفها ... أولاً فماذا النفس الطيب
فأطلق له ثلاثمائة دينار فجاء إلى أبيه وهو جالس في حانوته فوضعها في حجره وقال خذ هذه وابتع بها زيتاً انتهى.

حكى عن عبد العزيز بن الفضل قال خرج القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطوية إلى وليمه فأفضى بهم الطريق إلى مكان ضيق فأراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الأدب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه إذا استحكمت المودة بطلت التكليف. وحكى عن شريح جد أبي العباس المشهور بالصلاح الوافر أنه كان أعجمياً لا يعرف بلسان العرب شيئاً فاتفق له أنه رأى الباري عز وجل في النوم فحادثه وقال يا شريح طلبةكن فقال يا خدادي سار بسار وهذا لفظ أعجمي معناه بالعربي يا شريح أطلب فقال يا رب رأساً برأس كما يقال رضيت أن أخلص رأساً برأس. ومن لطائف المنقول أنه كان بالعقبة ظاهر دمشق المحروسة خان

تجمع فيه أسباب الملاذ ويتفق فيه من الفسوق والفجور ما لا يحد ولا يوصف فرجع ذلك إلى أبي الفتح موسى بن أبي بكر العادل بن أيوب الملقب بالأشرف فهدمه وعمره جامعاً وسماه الناس جامع التوبة تاب إلى الله وأناب مما كان فيه وجرت في خطابه نكتة لطيفة وهي أنه كان بمدرسة الشام التي خارج البلد إمام يعرف بالجمال قيل إنه كان في زمان صباه يلعب بشيء من الملاهي وهي التي تسمى الجفانة ولما كبر حسنت طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدوداً في الأخيار فلما احتاج الجامع المذكور إلى خطيب رشح جانبه للخطابة لكثرة الثناء عليه فتولاها فلما توفي تولى بعده العماد الواسطي والواعظ وكان متهما باستعمال الشراب وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أيوب فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن روتينة أبياتاً وهي هذه:

يا مليكاً أوضح ال ... حقّ لدينا وأبانه

جامع التوبة قد حم ... لني منه أمانه

قال قل للملك الصا ... لح أعلى الله شأنه

يا عماد الدين يا من ... حمد الناس زمانه

كم إلى كم أنا في بؤ ... سٍ وضراً وإهانته

لي خطيبٌ واسطيٌ ... يعشق الشربَ ديانته

والذي قد كان من قب ... ل يغنيّ بجفانه

فكما نحن وما زل ... نا ولا أبرح حانه

ردني للنمط الأو ... ل واستبقِ زمانه

ومن لطائف المنقول أن بثينة وعزة دخلتا على عبد الملك بن مروان فانحرف إلى عزة وقال أنت عزة كثير

قالت لست لكثير بعزة لكنني أم بكر قال أتروين قول كثير...

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيرُ

قالت لست أروي هذا ولكنني أروي قوله:

كأنني أنادي أو أكلم صخرة ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ثم انحرف إلى بثينة فقال أنت بثينة جميل قالت نعم يا أمير المؤمنين قال ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج

بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذي رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم قال فضحك حتى بدا له ضرس

أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة في الجائزة ثم أمرهما أن يدخلتا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت:

لعزة أخبريني عن قول كثير

قضي كل ذي دينٍ فوفى غريمه ... وعزة ممطولٌ معنى غريمها

ما كان دينه وما كنت وعدته

قالت كنت وعدته قبله ثم تأثمت منها قالت عاتكة وددت أنك فعلت وأنا كنت تحملت أثمها عنك ثم ندمت

عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى.

ويعجبني قول أسامة بن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره.

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قطّ بداره ... ناراً وكان حريقها بالنار
قلت ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجه بن صورة المصري دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن
فاحتقرت فعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم
أقول وقد عانت دار ابن صورة ... وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نھاوش ... فعماً قليل في نهار يعلم
وما هو إلا كافر طال عمره ... فجاءته لما استبطأته جهنم

قلت وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الأدب بمصر وكان شيخنا قد ظهر عليه
جرب فالنطح بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب إليه:
أيها السيد الأديب دعاء ... من محبّ خالٍ عن التنكيت
أنت شيخٌ وقد قربت من النا ... ر فكيف ادهنت بالكبريت
قيل إن أبا القاسم الزعفراني مدح صاحب ابن عباد بقصيدة نونية وانتهى إلى قوله منها:
وحاشية الدار يمشون في ... صنوفٍ من الخزّ إلا أنا
فقال صاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة الشيباني أن رجلاً قال له احملني أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس
وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوباً غير هذا حملتك عليه وقد أمرنا
لك من الخزّ بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو
علمنا لباس من الخزّ لأعطيناكه. وبلغ حديث معن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحم الله ابن زائدة لو كان
يعلم أن الغلام يركب لأمر به ولكنه كان عربياً خالصاً لم يدنس بقاذورات الأعاجم انتهى.
قيل إن بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وكان جرير أفحل شعراء الإسلام في الأربعة فالفخر
قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميمٍ ... حسبت الناس كلهم غضاباً

والمديح قوله

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

والمهجاء قوله

فغض الطرف إنك من نميرٍ ... فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

والنسيب قوله

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قبلتنا ثم لم يحين قبلانا

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنساناً

وقال أبو عبيدة التقي جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى ... فنخاراً فأخبرني بما أنت فاخر

فقال له جرير بلبيك اللهم لييك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه.
قيل لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير داخلاً قام إليه وأنشده:

يا أيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل عليه ولم يذكر له شيئاً من أمرهم ثم مر بهم عدي بن أرطاة فقال جرير أبياتا آخرها قوله:

لا تنس حاجتنا لُقَيْتَ مغفرةً ... قد طال مكثي عن أهلي وأوطاني

قال فدخل عدي على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدي مالي وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ولك في رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة قال كيف: قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أو تروي من قوله شيئاً قال نعم قوله:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلماً

ونورت بالبرهان أمراً مدلساً ... وأطفأت بالاسلام ناراً تضرماً

فمن مبلغ عني النبي محمداً ... وكل امرئ يجري بما كان قدماً

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديماً ركنه قد تهدماً

فقال عمر ويلك يا عدي من بالباب منهم قال عمر بن أبي ربيعة قال أليس هو الذي يقول:

ثم نهبتها فمدت كعاباً ... طفلة ما تين رجع الكلام

ساعة ثم إنها بعد قالت ... ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كنتم على نفسه لكان استر له لا يدخل والله عليّ أبداً فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أوليس الذي يقول:

هما دلياني من ثمانين قامية ... كما اقض باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا ... أحيي فيرجي أم قتيل نحاذره

لا يدخل علي والله فمن بالباب سواه. قال الأخطل قال يا عدي هو الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولست بآكل لحم الأضاحي

ولست بزاجر عيساً بكوراً ... إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بزائر بيتاً عتيقاً ... بمكة أبتغي فيه صلاحي

ولست بقائم بالليل أدعو ... قبيل الصبح حي على الفلاح

ولكني سأشر بها شمولاً ... وأسجد عند مبتلج الصباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً فمن بالباب سوى من ذكرت قال الأحوص قال اليس الذي يقول:

الله يني وبين سيدها ... يفر مني بها وأتبعه

فما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل بن معمر قال أليس هو الذي يقول:
ألا ليتنا نحيا جميعا وإن أمت ... يوافق في الموتى ضريحها
فلو كان عدو الله تمى لق ... اءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحها
لكان أصلح والله لا يدخل علي أبداً فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال أما هو الذي يقول:
طرقك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فأرجعي بسلام
فإن كان ولا بد فهو الذي يدخل فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقا فأنشده قصيدته
الرائية المشهورة التي منها:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حيا لا يفارقنا ... بوركت يا عمر الخيرات من عمر
فقال يا جرير ما أرى ذلك فيما ههنا حقا قال بلى يا أمير المؤمنين إني ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك يا
جرير قد ولينا هذا الأمر ولا نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام
أعطه المائة الباقية قال فأخذها جرير وقال والله هي أحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ما ورائك
فقال ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عليه لراض وأنشد:
رأيت رقى الشيطان لا تستغزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ومن لطائف الظرف ما حدث إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر يوما إني استأذنت أمير المؤمنين في
الخلوة غداً فهل أنت مساعدي فقلت جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثك قال فبكر إلي بكور
الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظري للميعاد فصلينا ثم أفضينا إلى الحديث
وقدم الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنامة ثم ضمخنا بالخلوق ومدت الستائر ثم إنه
ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال إذا أتى عبد الملك فأذن له يعني قهرماناً له فاتفق أن جاء عبد الملك بن صالح
الهاشمي شيخ الرشيد وهو من جلالته القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل وكان
الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا واحدا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا سقط
في أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام
اجلالا له فلما نظر إلى تلك الحال دعا غلامه فدفع إليه سيفه وعمامته ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم
قال فجاء إليه الغلمان فطرحوا عليه الثياب الحرير وضمخوه ودعي بالطعام فطعم وشرب ثلاثا ثم قال
ليخفف عني فإنه شيء ما شربته والله فتهلل وجه جعفر وفرح ثم النفث إليه فقال جعلت فداك بالعت في
الخير والفضل فهل من حاجة تبلغ إليها قدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها مكافأة لم صنعت قال بلى إن في
قلب أمير المؤمنين علي غضبا فتسأله الرضا عني فقال له جعفر قد رضي أمير المؤمنين عنك ثم قال وعلي
عشرة آلاف دينار فقال هي لك حاضرة من مالي ومن مال أمير المؤمنين مثلها ثم قال وابني إبراهيم أحب أن

أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال قد زوجه أمير المؤمنين ابنة العالية قال وأحب أن تحقق على رأسه الأولوية قال وقد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبد الملك بن صالح قال إبراهيم بن المهدي فبقيت متحيراً متعجباً من إقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية ولكن من أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد وعقد له على مصر والرايات والألوية بين يديه وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر فأشار إلينا فقال تعلق قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره فلما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال كيف كان يومك يا جعفر فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال إيه والله أبوك فقلت سألي في رضا أمير المؤمنين قال فيم أجبت قلت قد رضي أمير المؤمنين عنك قال قد رضيت ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار قال فيم أجبته قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد قضيت قلت وذكر أنه راغب في أن يشد ظهر ولده إبراهيم بصهر منك قال فيم أجبته قلت قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال قد أمضيت ذلك ثم ماذا لله أبوك قلت وذكر أنه يشتهي أن تحقق على رأس ولده إبراهيم الأولوية قال فيم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته فأحضر إبراهيم والقضاة والفقهاء وأتم له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أيهم أكرم وأعجب، ما ابتدأه عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر ولم يكن شرباً قط ولباسه ما ليس من لبسه من ثياب المنادمة أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه.

ومن لطائف المنقول ما حكى عن أبي معشر البلخي المنجم الإمام المصنف صاحب التصانيف المفيدة في علم النجوم قيل إنه كان متصلاً بخدمة بعض الملوك وإن ذاك الملك طلب رجلاً من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التي يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيئاً حتى لا يهتدي إليه ويبعد عنه حديثه فأخذ طستاً وجعل فيه دماً وجعل في الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياماً وتطلبه الملك وبالع في الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب إظهاره فعمل المسألة التي يستخرج بها وسكت زماناً حائراً فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى شيئاً عجيباً فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة فقال إلا أعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى له إلا ما ذكرت هذا شيء ما وقع لي مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك فسأله عن الموضوع الذي كان فيه فأخبره بما اعتمد عليه فأعجبه حسن احتياله في إخفاء نفسه ولطافة أبي معشر المنجم في استخراجه وله غير ذلك من الإصابات. قال قاضي القضاة شمس الدين بن

خلكان ومما يناسب هذا من فطن المتطبين ما رواه الحسين بن إدريس الحلواني قال سمعت الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه يقول ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لأنه لا يعدو العاقل إحدى خلتين إما أن يهتم لآخرته ومعاذته أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض ملوك الأرض قديماً كثير الشحم لا ينتفع بنفسه فجمع الحكماء وقال احتالوا لي بحيلة يخف

عني لحمي هذا قليلا قال فما قدروا له على شيء فجاءه رجل عاقل لييب متطرب فقال عاجني ولك الغنى
قال أصلح الله الملك أنا طيب منجم دعني حتى أنظر الليلة في طالعك لأرى أي دواء يوافقه فلما أصبح قال
أيها الملك الأمان فلما أمنه قال رأيت طالعك يدل على أنه لم يبق من عمرك غير شهر واحد فإن اخترت
عاجلك وإن أردت بيان ذلك فاحسني عندك فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقصص مني قال فحبسه
ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتما فكلما انسلخ يوم ازداد هما وغما حتى هزل
وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما فبعث إليه وأخرجه فقال ما ترى فقال أعز الله الملك أنا أهون
على الله من أن أعلم الغيب والله إني لم أعلم عمري فكيف أعلم عمرك ولكن لم يكن عندي دواء إلا الغم
فلم أقدر أن أجلب إليك الغم إلا بهذه الحيلة فإن الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن إليه غاية
الإحسان وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم. قلت ويعجبني قول جعفر بن شمس الخلافة في هذا المعنى:

هي شدة يأتي الرخاء عقيها ... وأسى يُشترُ بالسرور العاجل
وإذا نظرت فإن بؤساً عاجلاً ... للمرء خيرٌ من نعيم زائل
ويعجبني قوله وإن كان في غير ما نحن فيه :

مدحتك ألسنة الأنام مخافةً ... وتشاهدت لك بالثناء الأحسن
أترى الزمان مؤخراً في مدتي ... حتى أعيش إلى انطلاق الألسن

نادرة لطيفة نقل عن قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه أن الجنيد قال ما انتفعت بشيء
كانتفاعي بأبيات سمعتها قيل له وما هي قال مررت بلرب القراطيس فسمعت جارية تعني من دار وتقول
هذه الأبيات:

إذا قلت أهدى المهجر لي حُلَّ الأسي ... تقولين لولا المهجر لم يطب الحبُّ
وإن قلت ما أذنبت قلتُ مجيبةً ... حيثُك ذنبٌ لا يقاسُ به ذنب

فصعقت وصحت فبينما أنا كذلك إذ خرج صاحب الدار فقال ما هذا يا سيدي فقلت له مما سمعت فقال
إنها هبة مني إليك فقلت قد قبلت وهي حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه
ولدا نبيلاً حج على قدميه ثلاثين حجة.

وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي علي الفارسي أنه كان يوماً يسافر عضد الدولة بن
بويه في ميدان سيران فقال له لم انتصب المستثنى في قولنا قام القوم إلا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره
استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هل رفعتنه و قدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميداني ثم إنه
لما رجع إلى منزله وضع في ذلك كلاماً حسناً واهل إليه فاستحسنه وحكى أبو القاسم أحمد الأندلسي قال
جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر فقال إني لأغبطكم على قول الشعر فإن خاطري لا
يوافقني إلى ذلك مع تحقيق العلوم التي هي من معادنه فقال له رجل فما قلت قط شيئاً منه قال ما أعلم أن
لي شعراً غير ثلاثة أبيات في الشيب وهو قولي:

خضبْتُ الشيبَ لما كان عيباً ... وخَضَبُ الشيبِ أولى أن يُعاباً

ولم أخضب مخافة هجر خلٍّ ... ولا عيباً خشيت ولا عتاباً
ولكن المشيب بدا ذميماً ... فصيرت الخضاب له عقاباً
ومن لطائف المنقول أن أبا محمد الوزير المهلبى كان في غاية من الأدب والمحبة لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه في شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقي في سفره شدة عظيمة فاشتبهى اللحم فلم يقلد عليه فقال ارتجالاً:
إلا موتٌ يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موتٌ لذيد الطعم يأتي ... يخلصني من العيش الكريه
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ ... وددت لو أنني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرٍّ ... تصلق بالوفاة على أخيه
كان له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الأبيات اشترى له لحماً بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلب الأحوال وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر وبلغه وزارة المهلبى فقصده وكتب إليه:
ألا قل للوزير فدثته نفسي ... مقال مذكّر ما قد نسيه
أتذكرُ إذ تقولُ لضيق عيشٍ ... ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه
فلما وقف عليها تذكر الحال وهزته أريجية الكرام فأمر له بسبعمائة درهم ووقع له في رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثال حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق منه انتهى.

وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة العواص ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته وكان أخوه هشام يجفوني لذلك فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا لمن أثق به من اخواني سرا فلما لم أسمع أحداً ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة فإذا شرطيان قد وقفوا علي وقالوا يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي وكان والياً على العراق فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف ثم قلت لهما تدعني حتى آتي أهلي وأودعهم ثم أسير معكما فقالا ما إلى ذلك من سبيل فاستسلمت في أيديهما ثم صرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر فسلمت عليه فرد علي السلام ورمى إلي بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه ثني عشرة ليلة إلى دمشق فأخذت الدنانير ونظرت فإذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق في ثني عشرة ليلة فترلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد علي السلام واستدناي فدنوت منه حتى قبلت رجله فإذا جاريان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال أتدري فيما بعثت إليك فقلت لا، قال: بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين:

ودعوا بالصباح يوما فجاءت ... قينةٌ قي يمينها إبريق
فقلت يقوله عدي بن يزيد العبادي في قصيدة قال: أنشدنيها فأنشدته:
بكر العاذلون في وضح الصب ... ح يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله ... والقلب عندكم موثوق
لست أدري لكثرة العذل فيها ... أعذولٌ يلومني أم صديق
قال حماد فأنتهيت فيها إلى قوله

ودعوا بالصباح يوما فجاءت ... قينةٌ في يمينها إبريق
قدّمته على عقار كعين ال ... ديك صفى سلافها الراووق
مرةً قبل مزجها فإذا ما ... مزجت لَدَّ طعمها من يذوق
قال فطرب هشام ثم قال أحسنت يا حماد سل حاجتك قلت إحدى الجاريتين قال هما جميعا لك بما عليهما
وما لهما فأقام عنده ثم وصله بمائة ألف درهم. قلت: انظر أيها المتأمل إلى نفاق رخيص الأدب في ذلك
العصر وكساد غالبيه في هذا العصر وبشهادة الله أن البيت الذي طلب حماد الراوية بسببه من بغداد إلى
دمشق في اثنتي عشرة ليلة وأجيز عليه بالجاريتين والمائة ألف درهم تأنف نفسي أن أضعه في قصيدة من
قصائدي لرخصه وسفالته وهو:

ودعوا بالصباح يوما فجاءت ... قينةٌ في يمينها إبريق
وكت أود أن أكون في ذلك العصر ويسمع هشام بن عبد الملك قولي في هذا الباب من قصيدة قلتها:
في ليلةٍ رقم البدر المنير لها ... طارا به لعصاً جرزاء نقراتُ
وبات لي منه لما قد تبسّم لي ... تحت الصفائر صبحاتُ وغبقاتُ
والراح دقّ على فهمي تصوّرها ... لكن لما ضاع في الكاسات نفحاتُ
كانت علامةً تحقيقٍ وقال فمي ... هي المنازل لي فيها علامات
مذ أنشأتنا سجعنا في محاسنها ... مغرّدين وللإنشاء سجعات
هذا وأفواه كاساتي قد ابتسمت ... ومازجتها ثغورٌ لؤلؤيات
ومن يقل حركاتهم ما سكنت ... فللحجاب على التسكين جزماتُ
قال ثعلب ما أحد من الشعراء تكلم في الليل الطويل إلا قارب ولكن خالد الكاتب أبدع فيه فقال:
رَقَدْتُ فلم تَرِثِ للساھر ... ولیلُ الحبِّ بلا آخر

ولم تدرِ بعدَ ذهاب الرُّقا ... دِ ما صنع الدمعُ بالناظر
وقال بعض من كان يحضر مجلس المبرد كنا نختلف إليه فإذا كان آخر المجلس أُملى علينا من طرف الأخبار
وملح الأشعار ما نرتاح إلى حفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب التي منها:
فإذا مررتَ بقبره فاغفر له ... كرمَ المهجانِ وكلَّ طرفٍ سانح
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أcha دمٍ وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها في لساني لأحفظها فإذا بشيخ قد خرج من خربة وفي يده حجر فهم أن يرميني به فترست بالخرة والدفتري فقال ماذا تقول أتشتمني فقلت اللهم لا ولكني كنت عند أستاذنا أبي العباس المبرد فأنشدنا مراثية زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب فقال له إيه إيه أنشدني ما أنشدكم باردكم لا مبردكم فأنشدته فقال والله ما أجاد الرائي ولا أنصف المرثي ولا أحسن الراوي قلت فما عساه أن يقول قال كان يقول:

إحماني إن لم يكن لكما عق ... رٌ إلى جنب قبره فاعقراني

وانضحا من دمي عليه فقد كا ... ن دمي من نداه لو تعلمان

قال فقلت هل رأيت أحدا واسى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح بن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركني وتولى فلما عدت إلى المبرد قصصت عليه القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان انتهى. قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوي به الوسواس ورؤي ببغداد والصبيان يتبعونه فأسند ظهره إلى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يا بارد فقال كيف أكون باردا وأنا الذي أقول:

بكي عاذلي من رحمتي فرحمتُهُ ... وكم مثله من مسعدٍ ومعينٍ

ورقت دموعُ العين حتى كأنها ... دموعُ دموعي لا دموعُ جفوني

وحدث أبو الحسن علي ابن مقلة قال حدثني أبي عن عمه قال اجتاز أبو خالد الكاتب وأنا على باب دارى بسر من رأى والصبيان حوله يعبثون به فجاءني لما رأيته وسألني صرفهم عنه فصرفتهم وأدخلته دارى وقلت له ما تشتهي تأكل قال الهريسة فتقدمت بإصلاحها له فلما أكل قلت أي شيء تحب بعد هذا قال رطب فأمرت بإحضاره فأكل فلما فرغ من أكله قلت له أنشدني من شعرك فأنشدني:

تناسيتَ ما أوعيتُ سمعك يا سمعي ... كأنك بعد الضرِّ خال من النفع

فإن كنت مطبوعاً على الصدِّ واللفا ... فمن أين لي صبرٌ فأجعله طبعي

لئن كان أضحي فوق خديك روضةً ... فإن على خدي غديراً من الدَّمع

فقلت زدني فقال لا يساوي قهريسك ورطبك غير هذا ومن المروي عنه قال بعض طلبة المبرد خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالد الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل الباردا ثم قال ما الذي أنشدكم اليوم قلت أنشدني:

أعار الغيث نائلهُ ... إذا ما ماؤه نفدا

وإن أسدُ شكاً جبناً ... أعار فؤاده الأسد

فقال أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم أنه إذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل وإذا أعار الأسد فؤاده بقي بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فأنشد:

علم الغيث الندى من يده ... مذ دعاه علم البأس الأسد

فإذا الغيث مقرُّ بالندى ... وإذا الليث مقرُّ بالجلد

قال فكنتيهما وانصرفا.

نادرة لطيفة دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدة فقال سل حاجتك فقال يا أمير المؤمنين هب لي كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول هب لي كلبا فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لي أو لك فقال بل لك فقال إني أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال يا أمير المؤمنين هبني خرجت للصيد أعدو على رجلي فأمر له بدابة فقال له يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر بسلام فقال يا أمير المؤمنين هبني صدت صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي عيالا فمن أين لي ما يقوت هؤلاء قال المهدي اعطوه جريب نخل ثم قال هل بقيت لك حاجة قال نعم فأذن لي أن أقبل يدك. انتهى وحكى أن هشام بن عبد الملك قد حاجا إلى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال اتوني برجل من الصحابة فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا قال فمن التابعين فاني بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمر المؤمنين ولم يكنه وجلس إلى جانبه بغير إذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له: أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك فقال يا طاوس ما حملك على ما صنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ولم تكني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت يا هشام كيف أنت فقال له طاوس ما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك لم تسلم علي يامرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بامرتك فخفت أن أكون كاذبا وأما قولك لم تكني فإن الله عز وجل سمى أنبياءه فقال يا داود يا يحيى يا عيسى وكفى أعداءه فقال تبت يدا أبي لهب وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فأنظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له عظمي فقال له إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول إن في جهنم حيات وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام فخرج انتهى.

نادرة لطيفة مروية عن أبي عامر الشعبي ولكن يعين أن نبداً بشيء من ترجمته قال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام والشعبي بالكوفة ويقال أنه أدرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والنادرة الموعود بذكرها هي ما حكى الشعبي قال أنفذني عبد الملك ابن مروان إلى ملك الروم فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبتة وكانت الرسل لا تطيل الإقامة فحبسني عنده أياما كثيرة فلما أردت أن أنصرف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكني من العرب فدفع إلي رقعة وقال إذا أدت الرسائل إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة قال فأدت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت. فأوصلتها إليه فقال لي هل قال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك قلت نعم قال لي أنت من أهل بيت المملكة قلت لا لكني رجل من العرب في الحملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبني فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدري ما في الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها فإذا فيها عجبت من قوم

فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره قلت يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها وإنما قال هذا لأنه لم يرك قال أتدري لم كتبها قلت لا قال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك انتهى.

وقيل كان الشعبي ضئيلاً نحيلاً فقيل له في ذلك فقال زوحت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف. ويقال إن الحجاج قال له يوماً كم عطاك في السنة فقال ألفين فقال له ويحك كما عطاؤك قال ألفان فقال ويحك كيف لحت أولاً فقال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الأمير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه.

نادرة بديعة غريبة منقولة عن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ صاحب قلعة شيراز وكان سديد المذكور مقصوداً من البلاد ممدوحاً مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضاً ومنه قوله وقد غضب على مملوكه فضربه.

أسطوا عليه وقلبي لو تمكن من ... كفيّ غلهم غيظاً إلى عنقي
وأستعين إذا عاقبته حقاً ... وأين ذلُّ الهوى من عزة الحق

وكان موصوفاً بقوة الفطنة ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهي أنه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيراز وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منهن على نفسه فخرج من حلب إلى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتيقدهم محمود صاحب حلب إلى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي النحاس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتاباً يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه إلى حلب ففهم الكاتب أنه يقصد له شراً إذا جاء إليه وكان الكاتب صديقاً إلى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه إلى أن بلغ إلى آخره وهو إن شاء الله فسد النون وفتحها فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه فقال سديد الملك إني أرى ما لا ترون في الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب في جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالأنعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه سر بما فيه وقال لأصدقائه قد علمت أن الذي كتبت لا يخفى عن مثله وقد أجاب بما طيب قلبي عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى إن المأثم يأترون بك ليقتلوك فأجاب سديد الملك بقوله إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها وكانت هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه انتهى.

وحكى الصابي في كتاب الأعيان والأمثال أن رجلاً اتصلت عطلته وانقطعت مادته فرور كتاباً من الوزير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسي إلى ابن زيتون المارداني عامل مصر يتضمن المبالغة في الوصايا وزيادة الإكرام وعمل المصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع إليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب في أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العادة وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعه مراعاة قرينة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعدٍ وعده به ثم كتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذي ورد عليه وأنفذه بعينه فلما وقف عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من

الحرمة وما له من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وعجب إليهم منها وقال لهم ما الرأي في مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع إبهامه وقال اجهلهم محضرا يكشف لابن زيتون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعدكم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة إلى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب إلينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخيب سعيه والله لا كان هذا أبداً ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل ما يخدمنا نعرفه وهذا رجل خدمني أيام نكبته فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب إلى ابن زيتون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة إذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فاقبل يدعوه له ويثني عليه ويكي ويقبل يديه والأرض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور إلى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله فضحك ابن الفرات وقال كم وصل إليك منه قال أوصل إلي من ماله ومن قسط قسطه على عماله عشرين ألف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم أختبره فوجده كاتباً سديداً فاستخدمه انتهى. والحمد لله على ذلك.

ذكر الحصري في كتابه المسمى بالدر المصون في سر الهوى المكنون أن الجاحظ ذكر للوائق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه قال الجاحظ فخرجت من عنده فرأيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانحدار إلى مدينة السلام فعرض عليّ الانحدار معه فأنحدرت ونصبت ستارة وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تعني.

كل يومٍ قطيعةً وعتابٌ ... ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا ... دون ذا الخلق أم كذا الأحاب
ثم سكنت فأمر طنبورية فغنت:

وارحمتا للعاشقين ... ما إن أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمون ... ويقطعون فيصبرونا
كم يهجرون ويصرمون ... ويقطعون فيصبرونا
فقالت لها العوادة فيصنعون ماذا قالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها في الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وفي يده مذبة فألقى المذبة من يده لما رأى ما صنعت الجارية ثم أتى إلى موضع سقوطها ونظر إليها وأنشد:

أنت التي غرقتني ... بعد القضا لو تعلمينا

ورمى بنفسه في أثرها فأدار الملاح الحراقة فإذا بهما متعاقبين ثم غاصا فهال ذلك محمداً واستعظمه وقال يا عمرو إن لم تحدثني حديثاً يسليني عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد يوماً للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب إن رأى أمير المؤمنين أعزّه الله ان يخرج جاريته فلانة حتى تغني ثلثة اصوات فعل ان شاء الله تعالى فأغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه براسه ثم أردفه رسولا آخر أن يدخل به إليه فلما دخل قال ما حملك على ما صنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على

عفوك فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود فقال لها غني ما يقول لك فقال الفتى غني:

تألق البرق نجدياً فقلت له ... يا أيها البرق إني عنك مشغول
فغنته فقال له سليمان أأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال لها غني:
حبذا رجعتها إلينا يداها ... في يدي درعها تحل الأزارا
فغنته فقال لسليمان أأمر لي برطل فأتي به فشربه ثم قال غني:

أفأطم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجلي
فغنته قال لسليمان أأمر لي برطل فما استتم شربه حتى صعد على الفور على قبة لسليمان فرمى بنفسه على
دماغه فمات فقال سليمان إنا لله وإنا إليه راجعون أترأه الأحمق ظن أبي أخرج إليه جاريتي وأردها إلى ملكي
يا غلمان خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا بها إلى أهلهم إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بشفها عليه
فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة في دار لسليمان اتخذت للمطر فجذبت نفسها من أيديهم ثم قالت:
من مات عشقاً فليمت هكذا ... لا خير في عشقٍ بلا موت
فرمت بنفسها في الحفيرة فماتت فسري عن محمد وأحسن صليتي انتهى.

وكتب أبو منصور الفتيكن التركي متولي دمشق إلى عضد الدولة بن بويه كتاباً مضموناً إن الشام قد صفا
وصار في يدي وزال في مستقرهم فكتب إليه عضد الدولة في جوابه هذه الكلمات وهي متشابهة في الخط لا
تعرف إلا بعد النقط والضبط وهي غرك عزك قصار قصار ذلك فأخش فاحش فعلك فعلك قدماً بهذا
قال القاضي شمس الدين ابن خلكان تغمده الله برحمته لقد أبدع غاية الإبداع. قلت وأبدع منه قول
السلامي فيه من قصيدته التي منها:

إليك طوى عرض البسيطة جاعلاً ... قصار المطايا أن يلوح لها القصرُ
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ... ثلاثة أشياء كما اجتمع النشر
وبشرت آمالي بملك هو الوري ... ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر
قال ابن خلكان هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال. وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر
الأرجاني فقال:

يا سائلي عنه لما جئت أمدحه ... هذا هو الرجل العاري من النار
لقيته فرأيتُ الناس في رجل ... والدهر في ساعة والأرض في دار
ولكن أين الثريا من الثرى وألم أبو الطيب المتبي أيضاً بهذا المعنى لكنه ما استوفى بقوله:
هو الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ... ومنزلك الدنيا وأنت الخلاق
ولكن ليس لأحد منهما طلاوة بيت السلامي انتهى.

نادرة لطيفة كان أبو بكر اخلي يتولى نفقات أبي المسك كافور والأخشيدي وكان له في كل عيد أضحى
عادة وهو أن يسلم إلى أبي بكر المذكور بغلاماً محملاً ذهباً وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة إلى

الجبانة وما بينهما قال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الأخيرة إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك إلى من تضمنت اسمه الجريدة فأطرق منزل كل إنسان ما بين رجل وامرأة وأقول الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدي يهتك بالعيد ويقول لك أصرف هذا في منفعتك فارفع إليه ما جعل له وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله ابن جابر وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم يبق إلا الصرة فجعلتها في كمي وسرت مع المغيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل إلينا الشيخ وعليه اثر السهر فسلمت عليه فلم يرد علي وقال ما حاجتك قلت الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال والي بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم أي أدعو له في الخلوات وادبار الصلوات بما الله سامعه ومستجبيه قلت وقد أنفذ معي نفقة وهي هذه الصرة ويسالك قبولها لتصرف في مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه في الله تعالى وما نفسد هذه المحبة بعله فراجعته القول فبين لي الضجر في وجهه واستحيت من الله أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت قال فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظري فلما رأيته قال إيه يا أبا بكر قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك في هذه الليلة وفي هذا اليوم الشريف فقال الحمد لله الذي جعلني لإيصال الراحة إلى عبادة ثم أخبرته بامتناع ابن جابر فقال نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لي عد إليه واركب دابة من دواب التوبة واطرق بابه فإذا نزل إليك فإنه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه جواباً ثم استفتح وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلي الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابر الأستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد الأسود ومن هو مولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا أتدري من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وإنما هو أرسل لك يا بن جابر أنت ما تفرق بين السبب والمسبب. قال أبو بكر فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل إلي فقال لي مثل لفظ كافور فأضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لي كافور فبكى وقال لي أين ما حملت فأخرجت الصرة فأخذها وقال علمنا الأستاذ كيف التصوف قلت له أحسن الله جزاءك ثم عدت إليه فأخبرته بذلك فسر وسجد شكراً لله وقال الحمد لله على ذلك.

ونقل ابن خلكان في تاريخه أن أبا عبد الله محمد بن الأعرابي كان يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان شيئاً وكان يقول جائز في كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والطاء فلا يخطيء من يجعل هذا في موضع هذا وينشد:

إلى الله أشكو من خليل أوده ... ثلاث خصال كلها لي غائض
ويقول هكذا سمعته بالضاد.

ومن النوادر اللطيفة ورد أبو نصر الفارابي إلى دمشق على سيف الدولة بن حمدان وهو إذ ذاك سلطاناً قتل إنه لما دخل عليه وهو يري الأتراك وكان ذلك زيه دائماً وقف فقال له سيف الدولة أجلس فقال حيث أنا

أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة وزاحه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة ممالك وله معهم لسان خاص يساورهم به فقال لهم بذلك اللسان إن هذا الشيخ قد أساء الأدب وإني سأثله عن أشياء إن لم يعرفها أخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فإن الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء والخاصين في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله فصرهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في أن تأكل قال لا قال فهل لك أن تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعم فأمر سيف الدولة بإحضار القيان فحضر كل ماهر في الصنعة بأنواع الملاهي فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك كل من في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخر فبكى كل من في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحررها فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج وهو الذي وضع القانون وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة إقامته بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان أزهى الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مسكن ولا مكسب وسأله سيف الدولة في مرتب من بيت المال فقال يكفي أربعة دراهم ولم يزل على ذلك إلى أن توفي سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير.

ومن المنقول من خط القاضي الفاضل أن نور الدين الشهيد كتب إلى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعيلية كتاباً يهدده فيه فشق ذلك على سنان فكتب إليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو:

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا ... لا قام مصرع قلب كنت تصرعه

قال الحمام إلى البازي يهدده ... واستصرخت بأسود الغاب أضبعه

أضحى يسدُّ فم الأفعى باصبعه ... يكفيه ماذا تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفصيله وجهله وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن الفيل وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم فما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأما ما صر من قولك فتلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة فإن الجواهر لا تروى بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض فإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ما أؤذي نبي ما أؤذيت ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ما حال والأمر ما زال والله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويستقربون به إلى حياض الموت قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين وفي أمثال العامة أو للبط تددون بالشط فهيء للبلاء جلباباً وتدرع للرزايا أثواباً وإنك لكالباحث عن حشفه بظلفه أو الجادع أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز.

ومن غرائب الطرف ما حكاه ابن خلكان في تاريخه قال حدثني من أثق به أن شخصا قال له رأيت في تأليف أبي العلاء المعري ما صورته أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي لكي يحدث لي أنسك يا زين الأخلاء فما مثلك من غير عهدا أو غفل وسأله من أي الأبحر وهل هو بيت واحد أم أكثر فإن كان أكثر فهو أبياته على روي واحد أو مختلفة الروي قال فافكر فيه ثم أجابه بجواب حسن قال ابن خلكان قُلت للقاتل اصبر حتى انظر فيه ولا تقل ما قاله فأجاب القاضي شمس الدين بن خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عنه الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة أبيات في روي اللام وهي على صورة يسوغ استعمالها عند العروضين ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لأجل قطع الموصول منها ولا بد من الأتيان بهذا لتظهر صورة ذلك وهي:

أصلحك الله واب ... قاك لقد كان من ال

واجب أن تأتينا ال ... يوم إلى منزلنا ال

خالي لكي يحدث لي ... أنسك يا زين الأخل

لاء فما مثلك من ... غير عهداً أو غفل

قلت وعلى ذكر أبي العلاء الضرير يعجبني قول مظفر بن جماعة الضرير:

قالوا عشقت وأنت أعمى ... ظيماً كحيل الطرف المي

وحلاء ما عاينتها ... وتقول قد شغفتك وهما

وخيله بك في المنا ... م فما أطف ولا ألماً

من أين أرسل للفقأ ... د وأنت لم تنظره سهما

ومتى رأيت جماله ... حتى كساك هواه سقما

وبأي جارية وصلت لوصفه نشرأ ونظما

فأجبت إني موسو ... ي العشق إنصاتا وفهما

أهوى بجارحة السما ... ع ولا أرى ذات المسمى

ويعجبني أيضاً قول ضرير آخر:

وغادة قالت لأتراها ... يا قوم ما أعجب هذا الضرير

أيعشق الإنسان ما لا يرى ... فقلت والدمع بعيني غزير

إن لم تكن عيني رأت شخصها ... فإنها قد مثلت في الضمير

ومثل هذا قول المهذب عمر ابن الشحنة:

وإني امرؤ أحببتكم لحاسن ... سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وتقدمه بشار بقوله:

يا قوم أذني لبعض القوم عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة في كتابه المسمى بسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون عن علي بن أبي

طالب أنه قال سبّحان الله ما أزهّد كثير من الناس في الخير عجباً لرجل يبيئه أخوه المسلم حاجة فلا يرى

نفسه أهلاً للخير ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً وكان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنما تدل على سبل النجاح فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتى بسبايا طيء وقعت جارية بها جميلة لما رأيته أعجبت بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يا محمد إن رأيت أن تخلي سبيلي ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي وإن أبي كان يفك العاني ويشيع الجائع ويكسو العاري ويفشي السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائي فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق والمنقول عن حاتم في زيادة الكرم كثير.

من ذلك ما حكاه المدائني قال أقبل ركب من بني أسد وبني قيس يريدون النعمان فلقوا حاتماً فقالوا تركنا قومنا يشون عليك وقد أرسلوا إليك رسالة قال وما هي فأنشد الأسديون شعراً للنابعة فيه فلما أنشدوه قالوا إن نستحي أن نسألك شيئاً وإن لنا حاجة قال وما هي قالوا صاحب لنا قد أرجل يعني فقدت راجلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه فاحملوه عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت يتبع أمه فتتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ما تبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس وأفلو والجارية.

وقيل أجود العرب في الجاهلية ثلاثة حاتم الطائي وهرم بن سنان وكعب بن مامة وحاتم كان أشهرهم بالكرم ذكر أنه أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

وحكى الهيثم بن عدي قال تمارى ثلاثة من أجواد الإسلام فقال رجل أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وقال آخر أسخى الناس عرابة الأوسي وقال آخر بل قيس ابن سعد بن عبادة وأكثروا الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله إليه فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ما تشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجل من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو على الراحلة وخذ ما في الحقيبة واحتفظ بسيفك فإنه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائماً فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك إليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك أهون من إيقاظه هذا كيس فيه سعمائة دينار والله يعلم أن ما في دار قيس غيره خذه وامض إلى معائن الإبل إلى أموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدنا وامض لشأنك فليل إن قيساً لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت فاعتقها ومضى صاحب عرابة الأوسي إليه فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبيدين وقد كف بصره فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخلي العبيدين وصفق يميناه على يسراه وقال أواه أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعني العبيدين قال ما كنت بالذين أقص جناحيك قال إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت تأخذ وإن شئت تعق وأقبل يلتمس الحائط بيده راجعاً إلى منزله قال فأخذهما وجاء بهما فثبت أنهم

أجود عصرهم إلا أنهم حكموا لعراية لأنه أعطى جهده.
نادرة غريبة حضر يعقوب بن إسحق الكندي المسمى بوقته فيلسوف الإسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد
دخل عليه أبو تمام فأنشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ إلى قوله:
إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إيلس
قال له الكندي ما صنعت شيئاً فقال كيف: قال ما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب
وأيضاً فإن شعراء دهرنا تجاوزوا بالمدوح من كان قبله ألا ترى إلى قول العكوك في أبي دلف.
رجل أبرّ على شجاعة عامر ... بأساً وغبر في محيّا حاتم
فأطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول:
لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والبس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والبراس
ولم يكن هذا في القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال
الكندي ولوه لأنه قصير العمر لأن ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من
شخصه في ذلك الوقت على قرب أجله انتهى.
وسمع الكندي:

وفي أربعٍ مني حلت منك أربع ... فما أنا أدري أيها هاج لي كربي
خيالك في عيني أم الذكر في فمي ... أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي
فقال لقد قسمتها تقسيماً فلسفياً. انتهى.

ونقل الشيخ جمال الدين ابن نباتة في كتابه المسمى بسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون أن واضع العود
بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه الربط وتفسيره باب النجاة ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة
وجعلت أوتاره أربعة يازاء الطبايع الأربع فالزير يازاء السوداء والبم يازاء الصفراء والمثنى يازاء الدم
والمثلث يازاء البلغم فإذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبايع وأنتجت الطرب وهو رجوع
النفس إلى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدى هذا العلم بيطليموس وختم بإسحق ابن إبراهيم الموصلي.
وحكى ابن حمدون في تذكرته أن الحسن ابن حماد قال كنت بالمدينة فخلا لي الطريق نصف النهار فجعلت
أتغنى بشعر ذي يزن وهو:
ما بال قومك يا رباب ... خزرأ كأفهم غضاب

فإذا كوة قد فتحت وإذا وجه قد بدا منها تتبعه حية حمراء فقال يا فاسق أسأت النأدية ومنعت القاتلة
وأدعت الفاحشة ثم أندفع يغني فغنى الصوت غناء لم أسمع بمثله فقلت أصلحك الله من أين لك هذا الغناء
قال نشأت وأنا غلام يعجبني الأخذ عن المغنين فقالت أمي يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى
غناؤه فدع الغناء واطلب الفقه فتركته وتبع الفقهاء فبلغ بي إلى ما ترى فقلت أعد لي الصوت جعلت
فذاك فقال لا ولا كرامة أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس.

فائدة غريبة روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا القرآن ينزل بحزن فإذا قرأتموه فأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به من لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه.

نادرة لطيفة قال عبد الملك بن أبي زيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فإذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد أرايت إن لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود.

نادرة لطيفة تتضمن المثل السائر في قولهم عن الخائب رجع بخفي حنين المقول عن حنين أنه كان إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابي بخفين ولم يشتر منه شيئا وغازه ذلك فخرج إلى الطريق التي لا بد للأعرابي من المرور منها فعلق الفردة الواحدة منهما في شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الأعرابي فرأى أحد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبهه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من الكمين فأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابي إلى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفي حنين فصارت مثالا.

نادرة لطيفة قيل إن بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفي أيديكم فضول أموال فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وإن كانت لله ففرقوها على عباد الله وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا إن الله يجزي المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ما ترك الإعرابي لنا عذرا في واحدة. ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصري ما ترك الأعرابي أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم.

نادرة أدبية بديعة حكى ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر بعدما أورد لغزا في الخلخال:

ومضروب بلا جُرم ... مليح اللون معشوق

له شكل الهلال على ... رشيق القدِّ ممشوق

وأكثر ما يُرى أبداً ... على الأمشاط في السَّوق

قال بلغني أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال: دخلت السوق فلم أرى على الأمشاط شيئا.

ومن نوادر الأدب أيضا إشارة الحجاج إلى قول ابن نباتة السعدي في فرس أغر محجل:

غضبت صباحاً وقد رأيتني قابضاً ... أبري فقلت لها مقالة فاجر

بالله إلا ما لطمت جبينه ... حتى يحقق فيك قول الشاعر

يريد بذلك قوله:

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقصص منه فخاض في أحشائه

ومن المنقول المشهور أن الأدب وأهله كان عند أصحاب حماه في الذروة العالية ولكن قصة زكي الدين بن

عبد الرحمن العوفي مع الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك تقي الدين عمر بن شهنشاه

كانت على غير المعهود منه ومن سلفه الطاهر وما ذاك إلا أن زكي الدين المذكور أنشد الملك المظفر محموداً قبل أن يتملك حماه:

متى أراك ومن تهوى وأنت كما ... تهوى على رغمهم روحين في بدن
هناك أنشد والأمال حاضرة ... هنت بالملك والأحباب والوطن
فوعده إن تملك حماه أن يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشد:
مولاي هذا الملك قد نلت ... برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئت ... فذا أوان الموعد الصادق
فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته أسفار أنفق فيها المال الذي أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال:

إن الذي أعطوه لي جملة ... قد استردوه قليلاً قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا ... وحسبنا الله ونعم الوكيل
فبلغ ذلك الملك المظفر فأخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال:
أخرجني من كسر بيت مهتم ... ولي فيك من حسن الثناء بيوت
فإن عشت لم أعدم مكاناً يضميني ... وأنت فتدري ذكر من سيموت
فحبسه المظفر فقال ما ذنبي إليك فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وأمر بخنقه فلما أحسن بذلك قال:
أعطيتني الألف تعظيماً وتكرمة ... يا ليت شعري أم أعطيتني ديني
قلت كان والد الملك المظفر ألقى بهذا المقام الذي لم يقصد به زكي الدين العوفي غير ترويح الأدب في
اختلاف المعاني والمداعبة به والتوصل بذلك إلى بسط الملك المظفر ولكن حال الزكي كقول الشاعر:
وكت كالمتمني أن يرى فلماً ... من الصباح فلما أن رآه عمي
قلت وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الأدب وكان أحب الناس لأهله وله كتاب
طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفي بالإسكندرية وكان مغرماً بحب الأدباء
والعلماء وجمع تاريخاً على السنين في عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمى بمظاهر الحقائق وسر الخلائق
وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب ما لا مزيد عليه وكان في خدمته ما يناهز مائتي
متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمتجيمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفي
سنة عشر وستمائة ومن شعره:

أربي راحاً وريحا ... نٌ ومحبوبٌ وشادي

والذي ساق لي المل ... ك له دفع الأعادي

قلت وقد تقدم القول وقد تقرر أن جميع ملوك حماة الخروسة من بني أيوب وكان لهم المام بالأدب وأهله
وقد تعين أن نذكر هنا ترجمة ومؤيدهم فإنه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين
أبو الفداء إسماعيل ابن الملك الأفضل ابن الملك المظفر ابن الملك المنصور بن الملك المظفر صاحب حماة
الخروسة كان أميراً بدمشق الخروسة فخدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ في خدمته فوعده بحماة ووفى

له بذلك وجعله بما سلطانا يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره ليس لأحد من الدولة المصرية معه حديث وأركبه في القاهرة بشعار المملكة وأبهة السلطنة ومشى الأمراء في خدمته حتى الأمير سيف الدين ابن أرغون النائب وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج إليه في ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبوه بالملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر إلى نوابه أن يكتبوا إليه يقبل الأرض والمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي وفي العنوان صاحب حماه وكان الملك الناصر يكتب إليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي المولوي. وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والأدب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوي وله تاريخ بديع وكتاب الكنائس وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين. وكان قد رتب للشيخ جمال الدين بن نباتة في كل شهر ألف درهم غير ما يتحفه وهو مقيم بدمشق وتوجه الملك المؤيد في بعض السنين إلى الديار المصرية ومعه ابنه الملك الأفضل محمد ولده فجهز إليه السلطان الحكيم جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء فكان يحيى إليه بكرة وعشيا فيراه ويبحث معه في مرضه ويقدر له الأدوية ويطبخ له الشراب بيده في دست فضة فقال له ابن المغربي يا مولانا السلطان أنت والله ما تحتاج إلى المملوك وما أجىء به إلا امتثالا للأوامر الشريفة ولما عوفي أعطاه بغلة بسرج ذهب وجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يا رئيس أعذرنى فإني لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم وبني بظاهر حماة الخروسة جامعا حسنا وسماه جامع الدهيشة وأوقف عليه كتابا قيل إنها ما أجمعت لغيره من سائر الفنون فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ومن شعره:

كم من دمٍ حلت وما ندمت ... تفعل ما تشتهي فلا عدمت

سمت فلو تبلغ الشموس إلى ... لثم مواطىء أقدامها لثمت
والمنقول عن القاسم المكنى بأبي دلف أنه جمع بين طرفي الكرم والشجاعة ولي دمشق في خلافة المعتصم فأما شجاعته فإنه لحق قوما من الأكراد قطعوا الطريق فطعن فارساً طعنة فنفذت الطعنة إلى فارس آخر رديفه فقتلها فقال بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة ... يوم الهياج ولا تراه كليلا
لا تعجبوا فلو أن طول قناته ... ميلٌ إذا نظم القوارس ميلا
وفيه يقول ابن عنين:

تمشي المنايا إلى غيري فأكرهها ... فكيف أمشي إليها بارز الكنف
ظننت أن نزال القرن من خلقي ... وأن قلبي من جنيّ أبي دلف
وأما شهرته في الكرم فهو الذي قال فيه أبو تمام:
يا طالبا للكيماء وعلمها ... مدح ابن عيسى الكيماء الأعظم
لو لم يكن في الأرض إلا درهمٌ ... ومدحته لأتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشد:

أبو دلفٍ إن المكارم لم تزل ... مغلفةً تشكو إلى الله حلها
فبشرها منه بميلاد قاسمٍ ... فأرسل جبريلاً إليها فحلها
فأمر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر بيت المال فأمر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فأمر له بضعفه
فلما حمل إليه المال قال أبو دلف:

أتعجب إن رأيت عليّ ديناً ... وإن ذهب الطريف مع التلاد
وما وجبت عليّ زكاة مالٍ ... وهل تجب الزكاة على جواد.
وقال آخر:

إن سار سار المجد أو حلَّ وَقَفَ ... أنظر بعينيك إلى أسنى الشرف
هل ناله بقدرٍ أو بكلف ... خلقٌ من الناس سوى أبي دلف
فأعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك بن علي بن أبي جبلة:

إنما الدنيا أبو دلفٍ ... بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلفٍ ... ولّت الدنيا على أثره
كلُّ من في الأرض من عرب ... بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمةً ... يكتسبها يوم مفتخره

فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم. ولما بلغت المأمون غضب غضباً شديداً على العكوك فطلب فهرب
فاجتهدوا إلى أن جاءوا به مقيداً فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القاتل في مدحك لأبي دلف
كل من في الأرض من عرب البيتين جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل
بيت لا يقاسم بكم لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وإنما ذهبت في شعري
لأقران وإشكال أبي دلف فقال والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا في الكل، وما أستحل دمك بهذا، ولكن
بكفرك حيث قلت في عبد ذليل مهين:

أنت الذي تنزل الآيات منزلها ... وتنقل الدهر من حالٍ إلى حال
وما نظرت مدى طرفٍ إلى أحدٍ ... إلا قضيت بأرزاقٍ وآجال

ذاك هو الله يا كافر أخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات. ومن مصنفاته كتاب البراة والصيد
وكتاب السلاح وكتاب النزاهة وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى في الغناء وهو مترجم بذلك في
كتاب الأغاني وذكر أبو عبيدة في كتاب مثالب أهل البصرة أن النضر بن شميل النحوي البصري كان عالماً
بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل
بن أحمد فاتفق أن ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعة من أهل البصرة ثلاثة آلاف
رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوي أو عروضي أو لغوي أو إخباري أو فقيه فلما بعدوا عن المدينة جلس فقال
يا أهل البصرة يعز عليّ فراقكم والله لو وجدت كل يوم أكلة باقلاء ما فارقكم قال فلم يكن أحد فيهم

يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل إلى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما فمن ذلك أنه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريزي صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص في أوهام الخواص قال حكى عن محمد بن ناصح الأهوازي قال حدثني النضر بن شميل المازني قال كنت أدخل على المأمون في سمره فدخلت ذات ليلة وعليّ قميص مرقوع فقال يا نضر ما هذا النقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان قلت يا أمير المؤمنين أنا رجل كبير وضعيف وحرّ مرو شديد فأبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك تنقشف ثم أجرينا الحديث فأجرى ذكر النساء فقال حدثني هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سداداً من عوز بفتح السين من سداد فقلت صدق يا أمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي جميلة عن الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كانت سداداً من عوز بكسر السين قال وكان أمير المؤمنين متكئاً فاستوى جالساً وقال يا نضر كيف قلت سداداً قلت نعم يا أمير المؤمنين لأن سداداً بالفتح هنا لحن قال أو تلحني قلت إنما لحن هشام وكان لحنة فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت السداد بالفتح القصد في الدين والسييل والسداد بالكسر البالغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد قال أو تعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجي يقول:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون قبح الله من لا أدب له وأطرق ملياً ثم قال ما مالك يا نضر قلت أريضة لي بمرو قال أفلا نفيدك معها مالا قلت إني إلى ذلك محتاج قال فأخذ القرطاس وأنا لا أدري ما يكتب ثم قال كيف تقول إذا أمرت أن يترب قلت أتربه قال فهو ماذا قلت مترب قال فمن الطين قلت أظنه قال فهو ماذا قلت مطين قال هذه أحسن من الأولى ثم قال يا غلام أتربه ثم صلى بنا العشاء ثم قال لعلامه تبلغ النضر إلى الفضل بن سهل قال فلما قرأ الفضل الكتاب قال يا نضر إن أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فأخبرته ولم أكذبه شيئاً فقال ألحنت أمير المؤمنين قلت كلا إنما لحن هشام وكان لحنة فتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم أمر لي الفضل بثلاثين ألف درهم فأخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى.

وحكى أن النضر ابن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك فقال لا تقل مسح بالسين ولكن قل مسح الله بالصاد أي أذهب وفرقه أما سمعت قول الأعشى:

وإذا ما الخمر فيها أزدت ... أقل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل أن السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسرط وصقر وسقر فقال له النضر فأنت إذا أبو صالح.

قلت ويشبه هذه النادرة ما حكى أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير أبي الحسن بن الفرات أن تقام السين مقام الصاد في كل موضع فقال الوزير أقول جنات عدن بدخلوها ومن صلح من آبائهم أم صلح فحجل الرجل واقطع والذي ذكره أرباب اللغة في جواز إبدال الصاد من السين أنه في كل كلمة كان فيها سين

وجاء بعدها أحد الحروف الأربعة وهي الطاء والخاء والغين والقاف فقول الصراط والسراط وفي سخر
لكم صخر لكم وفي مسغبة مصغبة وفي سيقل صيقل وقس على هذا.

ونقل قاضي القضاء شمس الدين ابن خلكان في تاريخه أن أبا جعفر أحمد بن عيسى البلاذري المؤرخ قال
كنت من جلساء المستعين فقصدته الشعراء فقال لست أقبل إلا من يقول مثل قول البحري في المتوكل:
فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر
قال البلاذري فرجعت إلى داري وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحري قال هاته فأنشدته:
ولو أن بُرد المصطفى إذ لبسته ... يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته ولبسته ... نعم هذه أعطافه ومناكبه
فقال أرجع إلى منزلك وأفعل ما أمرك به فرجعت فبعث إلي سبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث
من بعدي ولك الجراية والكفاية ما دمت حياً.

ويعجبني من المدائح الرافلة في حلل الحشمة قول عبد الله الأسطرابي:
أهدي لجلسه الكريم وإنما ... أهدي له ما حزت من نعمائه
كالبهر يطره السحاب وما له ... فضلٌ عليه لأنه من مائه
ومثله قول القاضي الفاضل وقد كتبت به إلى وزير بغداد:
يا أيها المولى الوزير ومن له ... من حلل من الزمان وثاقي
من شاكر عني نداءك فإنني ... من عظم ما أوليت صاق نطاقي
من تحف على يديك وإنما ... تملت مؤنتها على الأعناق
قلت كان نظم القاضي الفاضل رحمه الله ونشره كفرسي رهان ولكن نشر أكثر مما نظم. وأجمع الناس أنه أتى
مع الإكثار بالعجائب. وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه أن مسودات رسائله إذا جمعت
ما تقصر عن مائة مجلد وهو يجيد في أكثرها ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام
العباسية نسي وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة والأنواع البديعة
والذي يؤيده قول العماد الكاتب في الخريدة إنه في صناعة الإنشاء كالشريعة الحمديدية نسخت الشرائع.
ومن غر نشره هذه الرسالة التي أنشأها في هائم الرسائل وسحب فيها ذيل البلاغة والفصاحة على سحبان
وائل، وهي سرحة لا تحمل من البطائق أجنحة، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار
ما تحمله الضمائر، وتطویر الأرض إذا نشرت الجناح الطائر، وتزوي لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك
هذه الأمة، وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة
قلوعاً، وتركب الجو بحراً يصفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعاً، وتعلق الحاجات على إعجازها، ولا تعوق
الإرادات عن إنجازها ومن بلاغات البطائق استعادت ما هي مشهورة به من السجع، ومن رياض كتبها
ألقت الرياض فهي دائمة الرجوع، وقد سكنت النجوم فهي أنجم، وأعدت في كنانتها فهي للحاجات أسهم،
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل، وإذا أنيطت بالرقاع صارت أولى أجنحة مثني وثلاث ورباع، وقد باعد

الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف خيال اليقظة الذي صدق العين وما كذبها، وقد أخذت عهد أداء الأمانة في رقابها أطواقا وأدت من أذناها أوراقا، وصارت خوافي من وراء الخوافي، وأعطت سرها المودع بكتمان سحبت عليه ذبول ريشها الصوافي، ترغم أنف النوى بتقريب العهد، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود، وهي أنبياء الطيور لكثرة ما تأتي به من الأنباء وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء.

ومن غريب المنقول أنني حضرت في بعض الليالي على جانب النيل المبارك في خدمة مولانا المقر الأشرف المرحومي القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية المخروسة كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ويده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدي بخطه وهذه الرسالة أول الجزء فشرع في قراءتها وكررها مرارا وهو يترنم في بديعها وغريبها ورسم في أثناء ذلك بمعارضتها فلم أجد بدا من الشروع لالتزام الواجب واوترت قوس العزم مطمئنا بهذا الرأي الصائب وقد أوصلت هنا شمل القطعتين ليتأمل المتأمل في جنى الجنتين وينزه نظره في حدائق الروضتين ويطرب لسجع حثائم الدوحيتين. قلت شرح فما سرح العيون إلا دون رسالته المقبولة، وطلب السبق فلم يرض مفرق البرق سرجا ولا استطلى صفحته المصقولة، وهمز جواد التسليم فقصر وأمست أذياه بعرق السحب مبلولة، وارسل فأقره الناس برسالته وكتابه الصدق، واقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير كنت نجابا، وعلى يدي مخلق يؤدي ما جاء على يده من الترسل فيهيح الأشواق، وما برحت الحثائم تحسن الأداء في الأوراق، وصحبناه على الهدى فقال ما ضل صاحبكم وما غوى، ومن روى عنه حديث الفضل المسند فعن عكرمة قد روي. يطير مع الهواء لفرط صلاحه ولم يبق على السر المصون جهاج، إذا دخل تحت جناحه إن برز من مقصفه، لم يبق للبرد قيمة بل تنعزل بتدبيح أوراقه، وتعلق عليه من العين التميمة ما سجن إلا صبر على السجن وضيق الأطواق، ولهذا همدت عواقبه على الإطلاق، ولا غنى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض، ولا أطلق من كب الجو إلا كان سهما مريضا تبلغ به الأغراض، كما علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس، وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالشمس، فهو الطائر الميمون والغاية السبابة، والأمير الذي إذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقة، فهو من الطيور التي خلا لها الجو فنقرت ما شاءت من حبات النجوم، والعجماء التي من أخذ عنها شرح المعلقة فقد أعرب عن دقائق الفهوم، والمقدمة والنتيجة الكتاب الحجلي في منطق الطير وهو من جملة الكتاب الذي إذا وصل القارئ منه إلى الفتح قهّل بفاتحة الخير، وإن تصدر البازي بغير علم فكم جمعت بين طرفي كتاب وإن سألت العقبان عن بديع السجع أحجمت عن رد الجواب.

شعر:

رعت النسور بقوة جيف الفلا ... ورعى الذبابُ الشهد وهو ضعيف
ما قدمت إلا وأورثتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة، وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خير كاتمة، كم أهدت من مخلقها وهي غادية رائحة، وكم حنت إليها الجوارح وهي أدام الله اطلاقها غير جارحة، وكم

أدارت من كؤوس السجع ما هو أرق من قهوة الانشا، وأبهج على زهر المنثور من صبيح الأعشا، وكم عامت بحور الفضا ولم تحفل بموج الجبال، وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الأغملة قلامة الهلال، وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب، وانحدرت كأنها دمة سقطت على خد الشفق لأمر مريب، وكم لمع في أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح، فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح، والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع، ولا برح تغريدها مطربا بين البادي والراجع، انتهى.

وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري في كتابه المسمى بالوشى المرقوم في حل المنظوم قال حدثني الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بمدينة دمشق سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة وكان إذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية أن فن الانشاء لا تخلو منه رأس مكانا أو بيانا وكل من أنشأ أقام لسلطانه بانشائه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب البيوت إذا نشأ له ولد أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيا بتغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ العبيدي وهو أحد خلفائها فدخلت يدون المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الأيام وهو صاحب الإنشاء بمصر موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي ربح بي ثم قال ما الذي أعددت لفن الانشاء وكتابته فقلت ليس عندي سوى أي حفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة فقال في هذا بلاغ ثم امرني بملازمته فلما ترددت إليه وتدربت عليه وطال تدريبي بين يديه امرني أن أحل عليه ديوان الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ثم امرني أن أحله مرة أخرى فحللته انتهى ما ذكره ابن الأثير قلت وقال عماد الدين الكاتب في كتاب الخريدة في حق موفق الدين بن الخلال: كان فن الترسل والإنشاء آل إليه وكان في ذلك ناظر مصره وإنسان ناظره وقبله جامع مفاخره قلت الذي ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الإنشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال من شىء الخليفة الحافظ العلوي ورتبته في الإنشاء معلومة ولكن جنحت إلى الوقوف على شيء من نظمه لأنظر في الرتبين كما قررت ذلك في نظم القاضي الفاضل ونشره فوجدت قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له في تاريخه نظما ونثرا دلي على أن نظمه نشره رضيعا لبان وفرسا رهان. فمن ذلك قوله في الشمعة والله دره حيث أجاد:

وصحيحة بيضاء تطلع في الدجا ... صبحاً وتشقي الناظرين بدائها

شابت ذوائبها أوان شبابها ... وأسود مفرقها أوان فنائها

كالعين في طبقاتها ودموعها ... وسوادها وبياضها وضيائها

وله:

وأغن سيف لحاظه ... يغري الحسام بحده

عجب الورى لما جنت ... وقد فنيت ببعده

وبقاء جسمي ناحلاً ... يصلى بوقدة صده

نادرة كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن ارطاة أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولّ القضاء أفقههما فجمع بينهما فقال له إياس أيها الرجل سل عني وعنه فقيهي المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ففهم القاسم إن سألهما عنه أشارا به فقال له لا تسل عني ولا عنه فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم مني بالقضاء فإن كنت كاذبا فلما عليك أن تولني وأنا كاذب وإن كنت صادقا فينبغي أن تقبل قولي فقال له إياس إنك جئت برجل وقمت به على شفير جهنم فنجني نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدي أما إذ فهمتها فأنت لها أهل فاستقضاه.

نادرة لطيفة نقل ابن عبد ربه في العقد أن أبا سفيان زار معاوية في الشام فلما رجع من عنده دخل على الإمام عمر رضي الله عنه فقال له الإمام أجدنا قال ما أصبنا شيئا فنجديك فأخذ الإمام عمر خاتمه فبعث به إلى هند وقال للرسول قال لها يقول لك أبو سفيان أنظري الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضر بهما فلم يلبث عمر أن أتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر في بيت المال فلما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد ردها إليه قال ما كنت لأخذ مالا عابه مر علي والله إن لنا إليه حاجة ولكن لا ترد علي من قبلك فإرد عليك من بعدك.

استنجاز المواعيد قلت وما ظنك بشيء قد جعله الله في كتابه العزيز مدحة وفخرا لأنبيائه فقال وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون لكفى قال عمر بن الحرث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق. ويعجبني قول العباس بن الأحنف:

ما ضرَّ من شغل الفؤاد يخله ... لو كان عللي بوعدي كاذب
صبرا عليك فما أرى لي حيلة ... إلا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من مطل وتبقى حاجتي ... فيما لديك وما لها من طالب
وذكر حيان بن سليمان عامر ابن الطفيل فقال والله كان إذا وعد الخير وفي. وإذا وعد الشر أخلف وهو القائل:

ولا يهرب ابن العمّ ما عشت صولتي ... ويأمن مني صولة المتهدّد
وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز مواعيدي
وقال ابن حازم:

إذا قلت عن شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحرّ واجب
وإلا فقل لا، تسترح وترح بها ... لتلا يظنّ الناس أنك كاذب
ويعجبني قول عبد الصمد الرقاشي في خالد بن ديسم عامل الري وقد أبطأ عليه بوعده:
أخالد إن الريّ قد أجحفت بنا ... وضاق علينا رسمها ومعاشها

وقد أطعمتنا منك يوماً سحابةً ... أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يصحو فيرجع طامعاً ... ولا ودقها يهمني فتروي عطاشها
قلت ومن البلاغة المرقصة في هذا الباب خطاب كوثر بن زفر وقد وعده يزيد بن المهلب وأبطأ بوعده
وهو... أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيئاً إلا
وهو يصغر عنك وأنت تكبر عنه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل. قيل أن يزيد بن المهلب
لما سمع هذا الخطاب البليغ مال سكرًا وطربًا وقال له سل حاجتك قال حملت من عشرين عشر ديات قال قد
أمرت لك بها وشفعتها بمثلها.

ويعجبني قول بعضهم أما بعد فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعداها سالما من حوايج المظل والسلم.
لطيف الاستمناح قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف
السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل والله در القائل:
إن الكريم أخو المودة والنهي ... من ليس في حاجاته بمثقل
دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال له أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة
والعامة فقال يا أمير المؤمنين يداك بالعطية أطلق من لساني، فأجزل عطيته.
وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت أشكو إليك قلة الجرذان فقال ما أحسن هذه الكناية املأوا
لها بيتها لحما وخبزًا وسمنا.

نادرة لطيفة كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكئاً وكان يجلس في حلقة أزهر
السمان المحدث فلما أفضت إليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا
أمير المؤمنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزواج ابني محمدا فوصله بأثني عشر ألف درهم
وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو
جعفر: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: جئت مسلما فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا
فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال ما حاجتك يا أزهر قال: أتيت عائدا
فقال: لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا فأذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا
فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له: ما حاجتك يا أزهر قال: يا أمير المؤمنين دعاء كنت
أسمعك تدعو به جئت لأكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فإني دعوت الله به
أن لا أراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك بأثني عشر ألفا وتعال إذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك.

ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده:
سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالد

فقلت شراءً قال لا بل وراثَةً ... توارثني من والدٍ بعد والد
فأمر له بعشرة آلاف درهم.

أجواد الجاهلية الذين انتهى إليهم الجود ثلاثة نفر حاتم ابن عدي الطائي وهرم بن سنان المازني وكعب بن

مامة الإيادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أوقد ناراً في بقاع الأرض لينظر إليها المار ليلاً فيبادر إليها وهو القائل لغلامه يسار:
أوقد فإن الليل ليلٌ قرّ ... والريح يا موقد ربيحٍ صرّ
حتى يرى نارك من يمرّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ
وأما هرم ابن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه:
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
وأما كعب بن مامة الإيادي فلم يأت له إلا ما ذكر عنه من إثارة رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشاً ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق إليه.

وأما أجواد الحجاز فثلاثة في عصر واحد وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد ابن العاص.
وأجواد أهل البصرة خمسة في عصر واحد وهم عبد الله ابن عامر وعبد الله بن أبي بكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالم بن زياد وعبد الله بن معمر القرشي التيمي وطلحة الطلحات وهو طلحة ابن خالد الخزاعي.

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد وهم عتاب بن ورقاء الرياحي وأسماء بن خارجة وعكرمة الفياض.
فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطريق ومن جوده أن أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس إن لي عندك يداً وقد احتجت إليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيك واقفاً بزمن وغلامك يملاً من مائها والشمس قد صهرتك فظلمتلك بطرف كسائي حتى شربت فقال أجل إني لأذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبأيك.

ومن جوده أيضاً أن معاوية حبس عن الحسين بن علي رضي الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقبل له لو وجهت إلى عمك عبيد الله بن العباس لكفأك وقد قدم بألف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله إنه لأجود من الريح إذا عصفت وأسخر من البحر إذا زخر ثم وجه إليه رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان أرق الناس قلباً وألينهم عطفاً انهملت عيناه ثم قال ويلك يا معاوية تكون لين المهادر رفيع العمداد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة العيال ثم قال لقهرمانه أحمل إلى الحسين نصف ما تملكه من ذهب وفضة ودابة وأخبره أنني شاطرته فإن أقنعه ذلك وإلا فأرجع وأحمل إليه النصف الآخر قال فلما وصل الرسول إلى الحسين قال أنا لله ثقلت والله على عمي وما ظننت أنه يتسع بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا في الإسلام.

ومن جوده أيضاً أن معاوية أهدى إليه وهو عنده في شهر من هدايا النوروز حللاً كثيرة ومسكناً وآنية من ذهب وفضة ووجهها إليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال: هل في نفسك منها شيء قال نعم والله أن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشأنك بما فهي لك قال جعلت فداك أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها

بختلك وادفعها إلى الخازن وهو يحملها إليك ليلا فقال الحاجب والله إن هذه الحيلة في الكرماء أكثر من الكرم ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه يعني معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام إنا من قوم نفي بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الأنصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما بيوم ما ذكرته العرب وأنا أشهد أن عفو جودك أكثر من وإبله.

ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الله بن أبي عمارة دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها إلى المشتري فشيب بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه في ذلك فكان جوابه أن قال:

يلومني فيك أقوامٌ أجالسهم ... فما أبالي أطار اللوم أم وقفوا

فانتهى خبره إلى عبد الله ابن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه أن تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال ما لا أرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال ما فعل بك حب فلانة قال حبها في اللحم والدم والمخ والعصب قال اتعرفها إن رأيته قال لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمرها عبد الله أن تخرج إليه وقال له إنما اشتريتها لك ووالله ما دنوت منها فشأنك بها بارك الله لك فيها فلما ولي قال يا غلام احمل إليه مائة ألف درهم قال فبكى عبد الله وقال يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحدا من صلب آدم فهناكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها.

ولقد تقرر أن أجواد الإسلام أحد عشر جواداً ذكرت من جود بعضهم ما تيسر وقال صاحب العقد أنه جاء بعدهم طبقة أخرى وهي الطبقة الثانية.

فمنهم الحكم ابن أحطب قيل: سألته أعرابي فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الأعرابي فقال له لعلك استقلت ما أعطيتك فقال لا والله، ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك ثم أنشد:

فكان آدم حين حان وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحوباء

ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... وكفيت آدم عيلة الأبناء

وحكي عن العنبي أنه قال: حدثني رجل قال: قدم علينا الحكم ابن أحطب وهو مملق فأغنانا فقلت وكيف أغناكم وهو مملق فقال علمنا المكارم فجاد غنيا على فقيرنا.

معن بن زائدة

ومنهم معن بن زائدة يقال فيه حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وبعيراً وبعيراً وجارية ولو عرفت مركوباً غير هذا لأعطيتك.

يزيد بن المهلب

ومنهم يزيد بن المهلب قيل كان هشام بن حسان إذا ذكره قال: كانت السفن تجري في بحر جوده.
حكى الأصمعي أنه قدم على يزيد قوم من قضاة فقال رجل منهم:
والله ما نلري إذا ما فاتنا ... طلبٌ إليك من الذي تطلبُ
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد ... أحدٌ سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا ... أو، لا فأرشدنا إلى من نذهب
فأمرنا له بألف دينار.

يزيد بن حاتم

قيل إن ربيعة الرأي قدم مصر فأتى يزيد السلمي فلم يعطه شيئاً ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لأمر
ضروري فخرج وهو يقول:
اراني ولا كُفران لله راجعاً ... بخفي حنين من نوال ابن حاتم
فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه أنه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فأرسل من يجد في
طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال: شغلناك عنك وعجلت علينا ثم أمر بخفيه فخلعتنا من
رجليه وملنا مالا وقال ارجع بهما بدلا من خفي حنين.
ومنهم

أبو دلف

وأسمه القاسم وفيه يقول ابن أبي جبلة:
إنما الدنيا أبو دلفٍ ... بين باديهِ ومحتضره
فإذا وليّ أبو دلفٍ ... ولّت الدنيا على أثره
وقال:
إن سار سار الحمد أو حلّ وقف ... أنظر بعينيك إلى أعلى الشرف
هل ناله بقدرة أو بكلف ... خلقٌ من الناس سوى أبي دلف
فأعطاه خمسين ألف درهم.
ومنهم

خالد بن عبد الله القسري

قيل إنه كان جالسا في مظلة إذ نظر إلى اعرابي يخبُّ على بعيده مقبلا نحوه فقال لحاجبه إذا قدم لا تحجبه
فلما قدم أدخله فسلم فقال:
أصلحك الله قلّ ما بيدي ... فما أطيق العيال إذ كثروا

أناخ دهرٌ رمى بكلِّكله ... فأرسلوني إليك وانتظروا
فقال خالد إذا أرسلوك إلي وانتظروا والله لتعودن إليهم بما يسرهم فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.
ومنهم

عدي بن حاتم

حكى صاحب العقد قال: دخل أبو دارة على عدي بن حاتم فقال إني مدحتك قال أمسك حتى آتيك بمال
فإني أكره أن أعطيك ثمن ما تقول هذه ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاثة أماء وفرسي هذا حبس في
سبيل الله فامدحني على حسب ما أجزتك.

قيل أن أروى بنت الحرث بن عبد المطلب كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطاباً وكان حلم معاوية
أعظم من خطابها دخلت عليه وهي عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال مرحبا بك يا خالة كيف كنت بعدنا
قالت بخير يا أمير المؤمنين لقد كفرت النعمة وأسأت بآبائك ولا سابقة في الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله فأتعس الله
حقك من غير دين كان منك ولا من آباتك ولا سابقة في الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله فأتعس الله
منكم الجدود وأمرغ منكم الخدود ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا
هو المنصور فوليتم علينا بعد فأصبحتم تجمحون على سائر العرب بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا منكم فكنا فيكم بمنزلة بين إسرائيل في آل فرعون وكان علي رضي
الله عنه عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من موسى فعايتنا الجنة وغايتكم النار فقال لها
عمرو ابن العاص: كفي أيتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك
وحدك فقالت له أنت يا ابن الباغية تتكلم وأمك كانت أشهر بغي بمكة وأرخصهن أجرة وادعك خمسة نفر
كلهم يزعم أنك ابنه فستلت أمك عن ذلك فقال كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فألحقوه به فغلب عليك
شبه العاص بن وائل فلحقت به، فقال مروان كفي أيتها العجوز واقصدي ما جئت له فقالت: وأنت أيضا يا
ابن الزرقاء تتكلم ثم التفتت إلى معاوية فقالت والله ما أجزأ هؤلاء غيرك وأمك القائلة في قتل حمزة عم النبي
صلى الله عليه وسلم:

نحن أخزيناكم يوم بدر ... والحرب بعدا لحرب ذات عسر
ما كان لي عن عتبة من صبر ... ولا أخي وعمه وبكر
سكنت وحشياً غليل صدري ... فشكرٌ وحشيٌّ على دهري
حتى تُرمَ أعظمي في قبري
فأجابتها ابنة عمي بقولها:

خزيت في بدرٍ وغير بدر ... يا بنت جبارٍ عظيم الكفر
فقال معاوية عفا الله عما سلف يا خالة هات حاجتك فقالت مالي إليك حاجة وخرجت عنه وهذه العبارة
بنصها منقولة من العقد لابن عبد ربه رحمه الله تعالى.

وحكى صاحب العقد أيضا قال قدم عقيل بن أبي طالب على معاوية فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ثم قال له في بعض الأيام يا عقيل أنا خير لك من أخيك علي قال صدقت أخي أثر دينه على دنياه وأنت آثرت دينك على دينك فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسه منك لنفسك. ودخل عقيل أيضا على معاوية وقد كفّ بصره فأقعدته على سرير معه ثم قال له أنتم معاشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال عقيل وأنتم معاشر بني أمية تصابون في بصائركم. ودخل عليه بما فقال معاوية لأصحابه هذا عقيل عمّه أبو لهب فقال عقيل وهذا معاوية عمّته حمالة الحطب ثم قال: يا معاوية إذا دخلت النار فأعدل ذات اليسار فإنك ستجد عمي أبو لهب مفترشاً عمّتك حمالة الحطب فأنظر أيهما الفاعل أم المفعول به.

وقال له يوما ما أين الشبق في رجالكم يا بني هاشم قال لكنه في نسائكم أين يا بني أمية. وقال الجاحظ اجتماعت يوما بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال: يا بني هاشم والله إن خيري لكم لمنوح وإن باي لكم المفتوح وقد نظرت في أمري وأمركم فرأيت أمرا مختلفا إنكم ترون أنكم أحق مني بما في يدي فإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا هذا مع إنصاف قائلكم وإسعاف سائلكم فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما وكان جريئا عليه فقال والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ولا فحنت لنا بابا حتى قرعناه وأما هذا المال فما لك منه إلا ما لرجل واحد من المسلمين ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا أثر تحمله خف ولا حافر وأما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل أكفأك أم أزيدك قال كفاني.

وقال الشعبي قال ابن الزبير يوما لابن عباس قاتلت أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها أنت وأبوك وخالك وبنا سميت أم المؤمنين فأنت أخرجتها أنت وأبوك وخالك وبنا سميت أم المؤمنين وكنا لها خير بنين وقاتلت أنت وأبوك علياً فإن كان مؤمنا ضلتم بقتال المؤمنين وإن كان علي كافرا فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف.

وذكر صاحب العقد أن عبد الله بن الزبير تزوج امرأة من فرارة يقال لها أم عمرو فلما دخل بها قال هل تدرين من معك قالت نعم عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد قال ليس هذا قالت فأى شيء تريد قال: معك من أصبح في قريش كمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس قالت أما والله لو أن بعض الهاشميين حضرك قال خلافا لقولك قال فالطعام والشراب علي حرام حتى أحضر الهاشميين وغيرهم ولا يستطيعون لذلك إنكارا قالت إن أطعني لم تفعل فأنت أعلم بشأنك فخرج من المجلس فإذا بحلقة فيها جماعة من قريش وفيها من بني هاشم عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعبد الله بن الحرث بن عبد المطلب فقال لهم ابن الزبير إني أحب أن تنطلقوا معي إلى منزلي فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير يا هذه اطرحي عليك سترك ثم أذن للقوم فلما أخذوا مجالسهم دعا ابن الزبير بالمائدة فتعدى القوم فلما فرغوا قال ابن الزبير إنما جمعتمكم لحديث رده علي صاحبة هذا الستر وزعمت أن لو كان بعض بني هاشم حاضرا ما أقر لي بما قلت وقد حضرتم جميعا والحديث الذي رده علي قلت لها ليلة الدخول بها وأنا

معها في خدرها إن معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس فردت على مقالي فقال ابن عباس إن شئت أقول وإن شئت أكف قال لا بل قل وما عسيت أن تقول أليست تعلم أن الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين وأن خديجة سيدة نساء أهل الجنة عمتي وأن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي وأن عائشة أم المؤمنين خالتي فهل تستطيع لهذا إنكارا يا ابن عباس قال ابن عباس لا ولكن ذكرت شرفا شريفا وفخرا عظيما غير أنك نلت ذلك كله وأنت تتفاخر من بفخره فخرت وتسامي من بفضله سموت قال ابن الزبير وكيف ذلك قال لم تذكر مفخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أهل بيته وأقرب إليه وأولى بالفخر به قال ابن الزبير فأنا أفاخر بك بما كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس لقد انصفت أسألكم أيها الحضور أعبد المطلب كان أشرب في قريش أم خويلد قالوا عبد المطلب قال أسألكم أهاسم كان أشرف في قريش أم أمية قالوا بل هاشم قال فأسألكم بالله أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى قالوا اللهم عبد مناف فأنشد ابن عباس يقول:

تفاخري يا ابن الزبير وقد مضى ... عليك رسول الله لا قول هازل

فلو غيرنا يا ابن الزبير فخrote ... ولكن بنا ساميت شمس الأصائل

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما افترقت فرقتان إلا وكنت في خيرهما فقد فارقك من لدن قصي بن كلاب فنحن في فرقة الخير أولا ونحن في فرقة الخير آخراً فإن قلت نعم خصمت وإن قلت لا كفرت قال فضحك بعض القوم وقالت المرأة من خلف الستر أما والله لقد فحيت عن هذا المجلس فأبى إلا ما ترى فقال ابن عباس مه أيتها المرأة أقنعي ببعلك وأخذ القوم بيد ابن عباس فقالوا إنهمض أيها الرجل فقد أفحمت في منزله غير مرة فنهض ابن عباس وهو يقول:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا ... فلو ترك القطا ليلاً لنا

وحكى صاحب العقد قال بينما معاوية جالس وعنده وجوه الناس إذا دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً وقال لعن الله علياً فأطرق الناس وفيهم الأحنف فقال الأحنف يا أمير المؤمنين القائل إن علم أن رضاك في لعن المرسلين لعنهم فاتق الله ودع عنك علياً فقد لقي ربه وأفرد بقبوره وخلال بعمله وكان والله مبروراً في سبقه طاهر الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة فقال له معاوية يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى أما والله لتصعدن المنبر وتلعن علياً طوعاً أو كرها فقال أن تعفني خير لك وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجدني شقياً به أبداً قال وما أنت قاتل يا أحنف قال أحمد الله وأصلي على نبيه ثم أقول إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً ومعاوية وعلى ما أقتتلا واختلفا وادعى كل واحد منهما أنه مبيغى عليه فإذا دعوت فآمنوا رحمكم الله اللهم ألعن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه واللعن الفئة الباغية آمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على ذلك ولا أنقص ولو كان فيه ذهاب نفسي فقال معاوية إذا أعفيتك انتهى.

وقال معاوية لعقيل إن علياً قطعك ووصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعه على المنبر قال افعل فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علياً فالعنوه عليه لعنة الله والملائكة والناس

أجمعين ثم نزل فقال له معاوية يا عقيل إنك لم تبين من المراد منا قال والله لا زدت حرفا والكلام راجع إلى نية المتكلم.

ومن غريب المنقول ما نقل عن المنصور وهو أنه وعد الهذلي بجائزة ونسي فحجا معا ومرا في المدينة النبوية ببيت عاتكة فقال الهذلي يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:
يا دار عاتكة التي أتغزل

فأنكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لأنه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي يأنشاد ذلك البيت من غير استدعاء فإذا فيها:

واراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم المنصور أنه أشار إلى هذا البيت فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر إليه من النسيان.

ومثله ما حكى أن أبا العلاء المعري كان يتعصب لأبي الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لأبي الطيب من الشعر إلا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل لكفاه. فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد إخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عني به قول أبي الطيب في القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأني كامل

ومثله قصة السري الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا فان السري الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى في مجلسه يوما ذكر أبي الطيب فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السري أشتي أن الأمير يتخب لي قصيدة من غرر قصائده لأعارضها ويتحقق الأمير بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التي مطلعها:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي ... وللحب ما لم يبق مني وما بقي

قال السري فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحق ... أراه غباري ثم قال له الحق

فقلت والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت.

عيون المها

ومثله ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الأذكياء وهو من الغرائب في هذا الباب أن رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد ينتزه فأقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله علي بن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعري وما وقفا بل سار مشرقا ومغربا قال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله إن لم تقولي لي ما أراد باین الجهم فضحكت، قالت: أراد به قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وعنيت أنا بأبي العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها ... قريبٌ ولكن دون ذلك أهوال
ومثله ما هو منقول على الإمام الحافظ فتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس
اليعمري أن الشيخ بماء الدين بن النحاس رحمه الله دخل إلى الجامع الأزهر فوجد أبا الحسين الجزار جالسا
وإلى جانبه مليح ففرق بينهما وصلى ركعتين ولما فرغ قال لأبي الحسين ما أردت إلا قول ابن سناء الملك
فقال أبو الحسين الجزار وأنا تفاعلت بقول صاحبنا السراج الوراق أما مراد الشيخ بما الدين فهو إشارة إلى
قول ابن سناء الملك:

أنا في مقعد صدق ... بين قوادٍ وعلق
وأما مراد أبي الحسين الجزار من قول سراج الوراق فهو:
ومهفهفٍ راضٍ الأبي ... فقادةً سلسَ القياد
فلما توسّط بيننا ... جرت الأمور على السداد
فبلغ كل منهما ما أراد من صاحبه ولم يشعر أحد بمراد الاثنین غیرهما. قلت وبالنسبة إلى هذا الذكاء المفرط
الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي.

ذكاء المنصور

فمن ذلك ما روي عن منصور بن العباس وهو أنه جلس يوما في إحدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوبا
يجول في الطرقات فأرسل إليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنه خرج في تجارة فأفاد فيها مالا كثيرا وأنه
رجع بها إلى زوجته ودفع المال إليها فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا مسلقا فقال له
المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال تزوجتها بكرا أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسنة قال شابة فدعا
له المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فإنه يذهب همك فأخذها واقتلب إلى أهله فقال المنصور لجماعة
من نقبائه اقموا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشمتم فيه روائح الطيب فأتوني به ومضى الرجل بالطيب
إلى بيته فدفعه إلى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته أعجبها إلى الغاية فبعثت به إلى رجل
كانت تحبه وهو الذي دفع المال إليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازا ببعض الأبواب
ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتى به إلى المنصور فقال له من أين استغدت هذا الطيب فتلجلج في كلامه
فسلمه إلى صاحب شرطته وقال له: إن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه وإلا فاضربه ألف سوط فما
هو إلا أن جرد وهدد حتى أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيتها ثم أعلم المنصور بذلك فدعا صاحب
الدنانير وقال له رأيك أن رددت إليك الدنانير أتحكمني في امرأتك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ها هي
دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر.

المهدي والقاضي شريك

ومن ذلك ما روي عن المهدي وهو أن شريك بن عبد الله القاضي دخل عليه يوما فأراد المهدي أن يبخره فقال للخادم أحضر للقاضي عودا فذهب الخادم فجاء بالعود الذي يلهي به فوضعه في حجر شريك فاضطرب شريك من ذلك وقال ما هذا يا أمير المؤمنين قال عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضي فقال شريك جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا في الحديث حتى نسي الأمر فقال المهدي لشريك ما تقول في رجل أمر وكيلا له أن يأتي بشيء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشيء فقال للخادم اضمن ما أتلفت.

التاجر الذي أنكر العقد

ومن ذلك أنه حكى أنه قدم رجل إلى بغداد ومعه عقد يساوي ألف دينار فأراد بيعه فلم يتفق فجاء إلى عطار موصوف بالخير والديانة فأودع العقد عنده وحج وأتى بمدة للعطار وسلم عليه فقال من أنت ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا رجل صالح فما وجدت من تكذب عليه إلا هذا فتحير الحاج وتردد إليه فما زاده إلا شتما وضربا فقبل له لو ذهبت إلى عضد الدولة لحصل لك من فراسته خير فكتب قصته وجعلها على قصبة وعرضها عليه فقال ما شأنك قصص عليه القصة فقال اذهب غدا واجلس في دكان العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك في اليوم الرابع فأوقف وأسلم عليك فلا ترد علي إلا السلام فإذا انصرفت أعد عليه ذكر العقد ثم أعلمني بما يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان في اليوم الرابع جاء عضد الدولة في موكبه العظيم فلما رأى الحاج وقف وقال السلام عليكم فقال الحاج وعليكم السلام ولم يتحرك فقال يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا ولا تعرض علينا حوائجك فقال له: اتفق هذا ولم يزد على ذلك شيئا هذا والعسكر واقف بكما له فأنذهل العطار وأيقن بالموت فلما أنصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الحاج وقال له: يا أخي متى أودعني هذا العقد وفي أي شيء هو ملفوف فذكرني لعلني أتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام وفش ثم فتح جرابا وأخرج منه العقد وقال: الله أعلم أنني كنت ناسيا ولو لم تذكرني ما تذكرت فأخذ الحاج العقد ومضى إلى عضد الدولة فأعلمه فعلقه في عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودي عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم أخذ الحاج العقد ومضى إلى بلاده.

ذكاء إيلس

ومثله ما نقل عن ذكاء إيلس الذي سارت به الركبان قيل أن رجلا استودع أمين إيلس مالا وخرج المودع إلى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فأتى إيلسا فأخبره فقال له إيلس أعلمته أنك أتيتني قال لا قال افنازعته عند غيري قال لا قال: فانصرف واكنم شرك ثم عد إلي بعد يومين فمضى الرجل ودعا إيلس أمينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن أسلمه إليك أفحصين منزلك؟ قال نعم قال فأعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل إلى إيلس فقال انطلق إلى صاحبك فإن جحد فقل له إني أخبر القاضي بالقصة فأتى

الرجل صاحبه فقال: تعطيني الوديعة أو أشكوك إلى القاضي وأخبره بالحال فدفع إليه المال فرجع الرجل وأخبر إياسا وقال أعطاني الوديعة وجاء الأمين إلى إياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربني بعد هذا يا خائن.

ذكاء في القضاء

ومثله أنه وليّ القضاء رجل مشهور الدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع بعض الشهود كيسا مخنوما ذكر أن فيه ألف دينار فلما حصل الكيس عند الشاهد وطالت غيبة ظن أنه قد مات فهم بانفاق المال وخشي من مجيء صاحبه ففتق الكيس من اسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وأعاد الخياطة كما كانت فقدر أن الرجل حضر إلى واسط وطالب الشاهد بوديعة فأعطاه الكيس بختمه فلما حصل في منزله فض ختمه فإذا في الكيس دراهم فرجع إلى الشاهد وقال له أردد علي مالي فإني أودعتك دنانير والذي وجدت دراهم فأنكر فاستدعى عليه إلى القاضي المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعتك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضي لصاحب الكيس أحضر لي الدراهم فأحضرها فقال القاضي للشهود اعتبروا تواريخ الدراهم فقرأوا سككها فإذا منها ما له سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فأمره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضي وأطاف به البلد واسقطه. ومثله بل أغرب منه أن رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحدته فخاصمه إلى إياس وقال المدعي أني أطلبه بمال أودعته إياه وقدره كذا وكذا فقال له إياس ومن حضرك قال كان رب العزة حاضرا قال دفعته إليه في أي مكان قال في موضع كذا قال فاي شيء تعهده من ذلك الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق إلى الموضع وانظر إلى الشجرة لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لهلك دفت مالك تحت الشجرة فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال إياس للرجل المدعي عليه اقعد حتى يرجع خصمك فجلس وإيس يقضي بين الناس ونظر إليه بعد ذلك ثم قال له يا هذا أتري صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكرها قال لا فقال له والله يا عدو الله أنك لخائن فقال أقلني أقالك الله يا أمير المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال إياس قد أقر بحقك فخذه. ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء أن

يحيى بن أكرم القاضي

وليّ القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة فاستصغره أهل البصرة فقال أحدكم كم سن القاضي فعلم يحيى أنه استصغره فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم في أعين أهل البصرة وهابوه.

فتوى أبي حنيفة

ومن المنقول من كتاب الأذكياء أن بعض اللصوص دخل بيتا ومعه جماعة تحت أمره ونهيه في القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقعوه للقتل فتدخل عليهم في إبقاء مهجته وأخذ ما في البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف أنه لا يعلم بهم أحدا فاصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء إلى أبي حنيفة وأعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأدين جيرانك وإمام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون أن يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم فقال اجمعوا داعيكم فادخلوهم الجامع ثم أخرجوهم واحدا واحدا وكلما خرج منهم واحد قولوا هذا لصك فإن كان ليس بلصه قال لا وإن كان لصه فليسكت فإذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ما سرق له.

ومنه أن الربيع صاحب المنصور كان يعادي أبا حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين إن أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول إذا حلف الرجل على شيء ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة لا يجوز ذلك إلا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستشون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تتعرض لأبي حنيفة. ومنه أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت إلى الماء فجاءني أعرابي ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت ما رأيك يا أعرابي في السوق فقال هات فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى أمتأ ثم عطش فقال علي بشربة فقلت بخمسة دراهم على قرح من ماء فاسترددت الخمسة وبقي الماء.

ومنه أنه استودع رجل بالكوفة رجلا مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل يحلف له فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة فخلا به وأخبره بذلك فقال له الإمام لا تكلم أحدا بمجوده وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له وقد خلا لهم المكان إن هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فأنصرف من عند الإمام فجاء صاحب الوديعة فقال له الإمام أرجع إلى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسيا فذهب إليه وسأله فلم يحتج معه إلى علامة بل دفع إليه متاعه وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة إني نظرت في أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أنفس من هذا.

ومنه أنه كان بجوار أبي حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له يوما من الأيام يا إمام أريد التزويج إلى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة: فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفة فقال إني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى قال احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فإن الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت إليه دخل بها قال له أبو حنيفة ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد إلى موضع بعيد فاكرى الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج إليه وأظهر أنه يريد

الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فأشدد ذلك على أهل المرأة وجاءوا إلى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها إلى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه إلى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى إن القوم قد سمعوا وأجابوا إلى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لا بد من زيادة أخذها منهم فقال أبو حنيفة أيما أحب إليك أن ترضى بما بذلوا لك وإلا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال فقال الفتى الله الله يا إمام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر. ومنه أن رجلاً جاء إلى أبي حنيفة وقال يا إمام دفنت مالا مدة طويلة ونسيت الموضع الذي دفنته فيه فقال الإمام ليس في هذا فقه فأحتال لك ولكن أذهب فصل الليلة إلى الغداة فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى ففعل. فلم يمض إلا قلب من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذي دفن فيه فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره فقال قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي الليل كله فهلا أتممت ليلتك كلها شكراً لله. ومنه أن بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حباً شديداً وتبغضه بغضاً شديداً ولم تزل المنافرة بينهما البتة وأضجره ذلك وطالت مدة تجرؤها عليه في الكلام فقال لها يوماً أنت طالق ثلاثاً بتاتاً إن خاطبتني بشيء ولم أخاطبك بشيء مثله فقالت له في الحال أنت طالق ثلاثاً بتاتاً فابلس الرجل ولم يدر ما يجيب وخاف في جوابها من وقوع الطلاق وارسل إلى أبي جعفر الطبري فأخبره بما جرى فقال له إذا طالبتك بالجواب فقل لها أنت طالب ثلاثاً بتاتاً إن أنا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك.

ومنه ما قيل إن ذا النون المصري كان يعرف الأسم الأعظم قال يوسف بن الحسن لما تحققت منه ذلك قصدت مصر وخدمته سنة ثم قلت له يرحمك الله إني قد خدمتك ووجب حقي عليك وأشتهي أن تعلمني اسم الله الأعظم فلا تجد له موضعاً مثلي قال فسكت ولم يجبني ستة أشهر وأوماً إلي أنه يعلمني ثم أخرج من بيته طبقاً ومكبة وقد شدا بمنديل وكان ذو النون يسكن الجيزة فقال تعرف فلانا صديقنا من الفسطاط قلت نعم قال فأحب أن تؤدي هذا إليه قال فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشي طول الطريق وأقول مثل ذي النون يوجه إلى فلان بمدية ترى أي شيء هي فلم أصبر أن بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فإذا فأرة نفرت من الطبق وفرت فأغظت غيظاً شديداً وقلت ذو النون المصري يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة فرجعت على ذلك الغيظ فلما رأي علم ما في وجهي فقال يا أحمق انتمستك على فأرة فخننتي فكيف أأتمنك على اسم الله الأعظم فسر عني فلا أراك بعدها.

الإفراط في ذكاء العرب

قيل سار مضر وربيعة وإياد وإغار أولاد نزار ابن معد إلى أرض نجران فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلاً قد رعى فقال البعير الذي رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال إياد وهو أبتري وقال إغار وهو شرود فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر أهو أعور قال نعم قال ربيعة أو أزور قال نعم قال إياد أهو أبتري قال نعم قال إغار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيري دلوني عليه

فحلفوا أنهم ما رأوه فلزمهم وقال فكيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالأفعى الجرهمي فنأى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا لي بعيري بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمي كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رايته يرعى جانباً ويترك جانباً فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت أحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئه لأزواره وقال إباد عرفت بتره بأجتماع بعره ولو كان زيالا لتفرق وقال إنمار عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان المتلف نبتة ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبت فقال الأفعى ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فأخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ في إكرامهم.

ومنه أن عقبة الأسدي كان مشهوراً بمعالجة الجن وصدق العزائم فأتوه بجارية قد جنت في ليلة عرسها فعزم عليها فإذا هي قد سقطت فقال لأهلها اخلوني بها فأجابوه فلما خلا بها قال لها أصدقيني عن نفسك وعليّ خلاصك فقالت إنه كان لي صديق وأنا في بيت أهلي وأنهم أرادوا أن يدخلوني على زوجي ولست بيبكر فخنفت الفضيحة فهل عندك حيلة في أمري قال نعم ثم خرج إلى أهلها فقال أن الجني أجابني إلى الخروج منها فاختاروا من أي عضو واعلموا أن العضو الذي يخرج منه الجني لا بد أن يهلك ويفسد فإن خرج من عينها عميت وإن خرج من أذنها صمت وإن خرج من يدها شلت وإن خرج من رجلها زمنت وإن خرج من فرجها ذهبت بكارها فقال أهلها أنا لم نجد شيئا أهون من ذهاب عنركما فأخرج الشيطان منه فأوهمهم أنه فعل ذلك وأدخلت المرأة على زوجها.

ومن ذلك أن الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً على عملٍ فبلغه أنه قال:

اسقني شربةً أُلدَّ عليها ... واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل بالحال فضم إليه بيتاً آخر فلما قدم على الإمام قال ألسنت القاتل:

اسقني شربةً أُلدَّ عليها ... واسق الله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين أن لهذا ثانياً وهو:

عسلاً بارداً بماءٍ سحابٍ ... إنني لا أحبُّ شرب المدام

فقال الإمام الله الله إرجع إلى عملك.

الرشيذ وأجر وصفة الشيخ

ومن لطائف هزليات الأذكياء أن الرشيذ خرج متنزهاً فأنفرد عن العسكر ومعه الفضل بن الربيع فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً ضعيفاً وهو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل أين تريد يا شيخ، فقال حائطاً لي قال هل أدلك على شيء تدأوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة فقال ما أحوجني إلى ذلك قال فخذ عيدان الهواء وغبار الماء وورق الكمأة فصير الجميع في قشر جوزة واكتحل من العشر فإنه يذهب رطوبة عينيك فاتكأ الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه الضرطة أجرة وصفك فإن نفعتنا زدناك فضحك الرشيذ يكاد يسقط عن ظهر دابته.

ومن الجدد المفحم أن رجلا من اليهود قال للإمام علي رضي الله عنه ما دفنتم نبيكم حتى قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال الإمام أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة.

ومنه أن المتوكل قال يوما لجلسائه نعم المسلمون على عثمان أشياء منها أن الإمام أبا بكر رضي الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمرفقة ثم قام عمر دون مقام أبي بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عباد: ما أحد أعظم منه عليك من عثمان يا أمير المؤمنين قال وكيف وبلغ قال لأنه صعد ذروة المنبر ولو أنه كلما قام خليفة نزل مرفقة ونزل عثمان كمن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله.

ذكاء طيب

ومن المنقول عن أذكاء الأطباء أن جارية من جواري الرشيد تمطت فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها فشق على الرشيد وعجز الأطباء عن علاجها فقال له طيب حاذق يا أمير المؤمنين لا دواء لها إلا أن يدخل إليها رجل أجني غريب فيخلو بها ويمرخصها بدهن نعرفه فأجابها الخليفة إلى ذلك رغبة في عافيتها فأحضر الطيب الرجل والدهن وقال أريد من أمير المؤمنين أن يأمر بتعريضها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفة وأمره أن يفعل وأضمر في نفسه قتل الرجل وقال للخادم خذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى إليها وأوماً بيده إلى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التي قد كانت عطلت حركتها ولشدة ما داخلها من الحياء والجزع هي جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها في فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به إلى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف تعمل في رجل نظر إلى حرمننا فمد الطيب يده إلى حلية الرجل فانزعها فإذا هي ملصقة وإذا الشخص جارية وقال يا أمير المؤمنين ما كنت لأبذل حرمك للرجل ولكن خشية أن أكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لأني أردت أن أدخل على قلبها فزعا شديداً ليحمي طبعها ويقودها إلى تحريك يدها وتمشي الحرارة الغريزية في سائر أعضائها بهذه الوسيلة فسرى على الرشيد ما كان وقر في صدره من الرجل وأجزل عطيته.

ذكاء متطفل

ومن المنقول عن أذكاء المتطفلين قال أبو عمرو الجهمضي كان لي جار طفيلي وكان من أحسن الناس منظرًا وأعذبهم منطقًا وأطيبهم رائحة فكان من شأنه إذا دعيت إلى وليمة يتبعني فيكرمه الناس من أجلي ويظنون صحبتي له فاتفق أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت في نفسي كأني برسول الأمير قد جاءني وكأني بالطفيلي قد تبني والله لئن فعل لأفضحنه فأنا على ذلك إذا جاءني رسول

الأمير يدعوني فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت فإذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني بالتأهب فتقدمت وتبعني فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة فلما مدَّ يده ليأكل قلت حدثني دراسة بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقاً وخرج مغيراً فلما سمع الطفيلي ذلك قال أنفت لك والله يا أبا عمرو من هذا الكلام على مائدة سيد من أطعم الطعام فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظن أنك تعرض به دون صاحبه وقد بخلت بطعام غيرك على من سواك ثم ما استحييت حتى حدثت عن دراسة بن زياد وهو ضعيف وعن أبان بن طارق وهو متروك الحديث والمسلمون على خلاف ما ذكرت فإن حكم السارق القطع وحكم المغير أن يعزر على ما يراه الإمام وأين أنت من حديث حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن الزبير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الثمانية وهو إسناد صحيح ومتن صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله لقد أفحمني ولم يحضرني جواب فلما خرجنا فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي وسمعته يقول:

ومن ظنَّ من يلاقي الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظنَّ عجزاً

ذكاء متلصص

ومن المنقول عن أذكاء المتلصصين أن بعض التجار قال احتال علي رجل بحوالة فكان يأتيني كل يوم ويأخذ قدر نفقته إلى أن نفدت وصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندي وكان يراني أخرج من صندوق لي فأعطيه فقال لي يوماً إنَّ قفلَ الرجل صاحبه في سفره وأمينه في حضره وخليفته على حفظ ماله وإن لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل إليه وأرى قهلك هذا وثيقاً فقل لي ممن ابتعته لا بتاع مثله لنفسي فقلت من فلان الإقفالي قال فما شعرت يوماً وقد جئت إلى دكاني وتقدمت إلى الصندوق لأخرج منه شيئاً من الدراهم ففتحتته فإذا ليس فيه شيء فقلت للغلامي وهو عندي أمير غير متهم هل أنكرت شيئاً من أحوال الدكان قال لا قلت ففتش هل ترى نقبا أم في السقف حيلة قال لا قلت فاعلم أن الذي كان في الصندوق قد ذهب فقلى الغلام فأمسكته وقمت مفكراً وتأخر الرجل عني فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام أخبرني كيف تفتح دكاني وتقفله فقال أحمل الدرايب دفعتين وثلاثة حتى أصعها في محلها وهكذا أصنع في غلقها قلت فمن تدع عند الدكان إذا قلت الدرايب قال: أتركه خالياً قلت فمن ههنا ذهبت فمضيت إلى الصانع الذي ابتعت منه القفل وقلت له: أجهلك إنسان منذ أيام واشترى منك مثل هذا القفل قال نعم رجل من صفته كذا وكذا وأعطاني صفة صاحبي فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكث طول الليل إلى الصباح فلما فتح الغلام وحمل الدرايب ليضعها في محلها خرج وأنه ما فعل ذلك غلاً وقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعني قفلي ومفتاحي فقلت ابتدىء بواسطة فلما صعدت طلبت خانا أنزله فلما دخلت الخان وجدت قفلاً مثل قفلي على باب بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم أمس من البصرة فقلت ما صفته فوصف لي صاحبي

فما شككت أنه هو وأن الدراهم في بيته فاكتريت بيتا إلى جانبه ورصدته حتى انصرف قيم الحان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسي بعينه فأخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه ونزلت على القور في السفينة وانحدرت إلى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت إلى منزلي بمالي كله.

ذكاء صبي

ومن المنقول عن أذكاء الصبيان أنه وقف إياس بن معاوية وهو صبي على قاضي دمشق ومعه شيخ فقال أصلح الله القاضي هذا الشيخ ظلمي وأكل مالي فقال القاضي ارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال إياس إن الحق أكبر مني ومنه ومنك قال اسكت قال وإن سكت فمن يقوم بحجتي قال تتكلم فوالله لا تتكلم بخير فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضي وولى إياساً مكانه.

من أذكاء النساء

ومن المنقول عن أذكاء النساء حكى المدائني قال خرج ابن زياد في فوارس فلقوا رجلاً ومعه جارية لم ير مثلها في الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الإقدام عليه فعاد ليرمي فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية ومد بعضهم يده إلى أذنهما وفيها قرط وفي القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وما قدر هذه الدرة إنكم لو رأيتم ما في قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا له ألق ما في قلنسوتك وكان فيها وتر قد أعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركه في القوس ورجع إلى القوم فولى القوم هارين وخلوا الجارية.

ذكاء الحيوان

وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكاء نبذة عن الحيوان الذي كان بذكائه شبه ذكاء الآدميين. فمن ذلك أن بعض الكتاب مر بمقبرة فإذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض إلى قرية كذا وكذا فإن فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقبل له ما يعلم ذلك إلا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان هنا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوماً إلى بعض متنزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاءوا باللبن إلى الطباخ ونسي أن يغطيه بشيء واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشوق أفعى فكرعت في ذلك اللبن ومجته في الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها إلى الأفعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ما صنعت الأفعى ووافى الملك من الصيد في آخر النهار فقال يا غلمان ادركوني بالثريدة فلما وضعت بين يديه أوامأت الخرساء فلم يفهم ما تقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت إليه ولم يلبث في الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عني ومد يده إلى اللبن بعد ما رمى إلى الكلب ما كان يرمي إليه فلم يلتفت الكلب إلى شيء من ذلك ولم يلتفت إلى يغر الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن

في فيه وثب إلى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع في اللبن فسقط ميتها وتناثر لحمه وبقي الملك متعجبا من الكلب وفعله فأومأت الخرساء إليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب فداني بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيري فدفنه وبنى عليه القبة التي رأيته.

من أخبار الحمقى

قلت قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي مختلفة الأنواع وقد تعين أن نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين لأنه قال في كتاب الحمقى: ما وضعت ذلك إلا لأن النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح إلى بعض المباح من اللهو كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الحنظلة ساعة وساعة. وعن علي رضي الله عنه أنه قال روحوا القلوب بطرائف الحكم فإنها تمل كما تمل الأبدان. وكان رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فإذا أكثروا وثقل عليه الحديث قال ان الأذن بحاجة وإن القلوب خمسة هاتوا من أشعاركم وحديثكم وقال أبو الدرداء رضي الله عنه إني لاستجم نفسي بشيء من الباطل كراهة أن أحملها من الحق ما يملها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ في أحاديث العرب وأشعارهم ومثله عن الزهري ومالك بن دينار. وكان شعبة يحدث فإذا رأى أبا زيد قال له إيه أبا زيد.

استعجمت دارُ نعيمٍ ما تكلمنا ... والدارُ إن كلمتنا ذات أخبار

ووصف رجل عند ابن عائشة فقيل هو جدّ كله فقال ابن عائشة لقد أعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فكها بالانتقال من حال إن حال نفس عنها ضيق العقد ورجع إلى الجد بنشاط. وقال الرشيد: النوادر تستحدّ الأذهان وتفتق الآذان. وقال آخر لا يجب الملح إلا ذكران الرجال ولا يكرها إلا مؤنثوهم وقال الشاعر:

أروح القلب ببعض الهزل ... تجاهلاً مني بغير جهل

أمرح فيه مزح أهل الفضل ... والمزح أحياناً جلاء العقل

قال ابن الجوزي في كتاب الحمقى أن الأحنف بن قيس قال إذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فأحكموا عليه بالحمق. وقال معاوية لرجل كفى أن نشهد عليك بالحمق ما نراه من طول لحيتك. وقال آخر وتلطف ما شاء: من طالت لحيته تكوسج عقله. وقال أصحاب الفراسة: من طالت قامته ولحيته وجبت تعزيتة في عقله. وقالوا إذا كان الرجل طويلاً طويلاً اللحية وأضيف إلى ذلك أن يكون صغير الرأس فأحكم عليه بالحمق. وقال زياد ما زادت لحية الرجل على قبضة إلا كان نقصاناً من عقله وقال الشاعر:

إذا عرّضت للفتى لحية ... وطالت وصارت إلى سرّته

فقد ضاق عقل الفتى عندنا ... بمقدار ما زاد من لحيته

وقال ابن الرومي:

إن تطل لحيةً عليك وتعرض ... فالمنخالي مخلوقة للحمير

علّق الله في عذاريك محلاً ... ولكنّها بغير شعر

وقال بعضهم: صارم الأحقق فليس له خير من الهجران. وقيل مكتوب في التوراة من اصطنع إلى أحقق معروفا فهي كخطيئة مكتوبة عليه. وقال سفيان الثوري هجران الأحقق قرينة إلى الله تعالى. فمن ضرب المثل بحمقه وتغفله هبنقة واسمه يزيد وكان قد جعل في عنقه قلادة عظام وودع وقال أخشى أن أضيع من نفسي ففعلت ذلك لأعرفها فحولت أمه القلادة إلى عنق أخيه فلما أصبح ورآها قال يا أخي أنا أنت وضل له بعير فجعل يقول من وجدته فهو له فقيل له فلم تنشده قال: لحلاوة الظفر. واختصمت بنو طفاوة وبنو راسب في رجل ادعى كل من الفريقين أنه منهم فقال هبنقة حكمه أن يلقى في الماء فإن طفا فهو من طفاوة وإن راسب فهو من راسب فقال الرجل إن كان الحكم هكذا فقد زهدت في الطائفتين.

ومنهم

أبو عيشان

وهو رجل من خزاعة كان يلي سدانة البيت فاجتمع مع قصي بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصي ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه وسار بها إلى مكة وقال يا قريش هذه مفاتيح أبيكم إبراهيم رجعها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم وأفاق أبو عيشان فندم غاية الندم فقيل أحق من أبي عيشان وقال شاعرهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت ... بزق خمر فبست صنعة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت ... عن المقام وظل البيت والنادي

ومنهم

ربيعة البكاء

سمي البكاء لأنه دخل على أمه وهي تحت زوجها فبكى وصاح أقتل أُمي فقالوا أهون مقتول أم تحت زوج فذهبت مثلاً.

ومنهم

حمزة بن بيض

قال يوما لغلामه أي يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء. ومنهم حجي قال بعضهم كان من أذكاء الناس وإما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمقى والمغفلين. قيل إنه دخل الحمام وخرج منه فضربته ريح باردة فمست خصيته فإذا إحداها قد تقلصت فرجع إلى الحكماء وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت إحدى بيضتي ثم إنه دخل في الحمام وحجي فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكراً لله وقال كل شيء لا تسرقه اليد لا يفقد. واشترى يوما دقيقاً وحمله على حمال فلما دخل الحمال في الزحام هرب فرآه حجي بعد أيام فاستتر

منه لئلا يطالبه بالأجرة. وكان لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج إليه فقال ما لكم عافاكم الله إنما هي أُمِّي تجلد عميرة. ومنهم

ابن الجصاص

قيل إنه كان يقصد التباله خيفة من الوزير ابن الفرات. فمن المقول من حمقه أنه كان مع الوزير في مركب ومعه بطيخة فأراد أن يعطيها للوزير ويصق في البحر فبصق في وجه الوزير ورمى البطيخة في البحر هذا من المنقول عما ظهر عنه من التباله وإلا فقد روي عنه أنه قال لما ولي ابن الفرات الوزارة قصدي قصدا قبيحاً وأنفذ العمال إلى ضياعي وبسط لسانه بثلي ونقصني في مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد وليت يقول: هذا بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينا سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت في ليلي أفكر في أمري معه فوقع في نفسي في الثلث الأخير من الليل أن ركبت إلى داره على الفور فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول الوزير نائم فقلت عرف الحجاب أي حضرت في مهم فعرفهم فخرج إلي أحدهم فقلت الأمر أهم من ذلك فأيقظه وعرفه عني ما قلت لك فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني فارتاع لدخولي وظن أني جئت برسالة من الخليفة أو حدثت حادثة وهو متوقع لما أورده عليه فظفر إلي وقال ما الذي جاء بك في هذا الوقت قلت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئت إلا في أمر يخصني ويخص الوزير ولم تصلح مفاوضته إلا على خلوة فسكن روعه وقال لمن حوله انصرفوا فمضوا فقال هات فقلت أيها الوزير إنك قصدتني بأقبح قصد وشرعت في هلاكي وإزالة نعمتي وفي إزالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض وقد جعلت هذا الكلام عذرا بيني وبينك فإن نزلت تحت حكمي في الصلح وإلا قصدت الخليفة في هذه الساعة وحولت إليه ألف دينار وأنت تعلم قدرتي عليها وأقول له: خذ هذا المال وسلم إلي ابن الفرات وأسلمك لمن أختاره للوزارة ويقع في نفسي أنه يجيب إلى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن ولا أعتمد إلا على بعض كتابك فإنه لا يفرق بينك وبينه إذا رأى المال حاضرا فيسلمك في الحال إليه ويفرغ عليك العذاب بحضوري ويأخذ منك المال المعين وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال إلي وأكون أهلك عدوي وشفيت غيظي وزاد محلي بتقليدي وزيرا فلما سمع هذا الكلام سقط يده وقال يا عدو الله أو تستحل ذلك فقلت بل عدو الله من استحل مني هذا فقال وما تريد فقلت تحلف الساعة بما استحلقتك من الأيمان المغلظة أن تكون معي لا علي في صغير أمري وكبيره ولا تنقص لي رسما ولا تضع مني، بل تبلغ في رفعتي ولا تبطن علي فقال وتحلف أنت أيضا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة فقلت أفعل فقال: لعنك الله والله لقد سحرتني واستدعيت بدواة فعملنا نسخة يمين وحلف كل منا عليها فلما أردت القيام قال لي يا أبا عبد الله لقد عظمت في نفسي والله ما كان المقتدر يفرق بيني وبين أحسن كتابي إذا رأى المال فليكن ما جرى بيننا مطويا فقلت سبحان الله فقال إذا كان غدا فسر إلى المجلس فترى ما أعاملك به فقامت فأمروا العلماء أن يسيروا في خلعتي بأجمعهم إلى داري ولما أصبحت جئت فبالغ في الإكرام

والعظيم وأمر بإنشاء الكنب إلى النواحي بإعزاز وكلائي وحماية أملاكي فشكرته وقمت فأمر الغلمان أيضا بالمشي بين يدي والحجاب والنس يتعجبون من ذلك ولم يعلم أحد ما السبب وما حدث بهذا الحديث إلا بعد القبض عليه.

وذكر ابن الجوزي في الباب السابع من كتاب الحمقى والمغفلين أن جماعة من العقلاء صدر عنهم أفعال الحمقى وأصروا على ذلك مستصوبين لها فصاروا بذلك الاصرار حمقى ومغفلين. فأول القوم ابليس لعنه الله تعالى فإنه صوّب نفسه وخطأ حكمة الله تعالى ورمى عن قوس الاعتراض في عدم السجود لآدم عليه السلام ثم قال أنظري إلى يوم يبعثون فصارت لذته في أيقاع العصي في الذنب كأنه يغبط ونسي عقابه الدائم فلا حمق كحمقه ولا عفلة كغفلته والله در القاتل في ابليس: عجبْتُ من ابليس في غفلته ... وخبث ما أظهر من نيّته تاه على آدم في سجدة ... وصار قواداً لنريته

الثاني فرعون في دعواه الربوبية وافتخاره بقوله أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي فافتخر بساقية لا هو أجراها ولا يعرف مبدأها ولا منتهاها ونسي أمثالها مما ليس تحت قدرته وليس في الحمق أعظم من ادعائه الألوهية وقد ضربت الحكماء بذلك مثلاً فقالوا دخل ابليس على فرعون فقال له من أنت قال ابليس قال ما جاء بك قال جئت متعجبا من جنونك قال كيف قال أنا عاديته مخلوقا مثلي فامتنعت من السجود له فطردت ولعنت وأنت تدعي أنك إله، هذا والله هو الحمق والجنون البارد. ومن عجيب الحمق والتغفل اتخاذ الاصنام باليد والاقبال على عبادته والإله ينبغي أن يفعل ولا يُفعل. وكذلك غرود في بنائه الصرح ثم رميه بنشابة يريد أن يقتل أله السموات والأرض. وكذلك بنو اسرائيل حين جاوزوا البحر وقد أنجاهم الله تعالى من تلك الأهوال واستنقذهم من فرعون قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. وكذلك قول النصارى إن عيسى إله وابن إله ثم يقرون أن اليهود صلبوه وهذا غاية البله والعفلة. وكذلك ارافضة يعلمون إقرار علي ببيعة أبي بكر وعمر واستيلائه الخفية من سبي أبي بكر وترويجيه أم كلثوم ابنته من مر وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهم ثم في الرافضة من يسبهما وفيهم من يكفرهما وكل ذلك يطلبون به حب علي بزعمهم وقد تركوا حبهم وراء ظهورهم.

وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاعني رجل فقال إني حلفت بالطلاق أن لا أكلم في هذا اليوم من هو أحق وكلم رافضيا أو نصرانيا لقلت له حشت فقال له ابن الديناري أعزك الله ولم صارا أحقين قال لأنهما خالفا الصادقين.

أما الصادق الأول فعيسى عليه السلام قال للنصارى إني عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلا وحمقا. والصادق الثاني الإمام علي رضي الله عنه فإنه قال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبي بكر وعمر هذان سيذا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما.

ومن المنقول عن حمق النساء أن الأمين لما حوَصر قال لجاريته غني فغنت:

أبكى فراقهم عيني فأرقها ... إن التفرّق للأحباب نكباء

فقال لعنك الله أما تعرفين غير هذا فغئت:

وما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء في فلك

إلا لينتقل السلطان من ملكٍ ... قد غيب تحت الثرى إلى ملك

فقال لها قومي فقامت فعثرت بقدر بلور فكسرتة فقال قائل قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ولما قتله المأمون دخل على زبيدة ليعزيها به فقالت إن أردت أن تسليني فتغدّ عندي فتغدّى عندها فأخرجت له من جوارى الأمين من تغنيه فغنت:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرآبه

فوثب المأمون مغضبا فقالت له زبيدة أحرمني الله أجره إن كنت دسسته إليها أو لقتنها فصدقها وانصرف. ومن ذلك أن المعتصم لما فرغ من بناء قصر له أدخل الناس عليه فاستأذن إسحق بن إبراهيم في الإنشاد فأذن له فأنشد:

يا دار غيرك البلى ومحاك ... يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم وجميع من حضر المجلس وتعجبوا كيف يصدر من مثل اسحق هذا التغفل المفرط ولم يجتمع بعد ذلك بالدار اثنان.

ومن لطائف المنقول عن الحمقى والمغفلين أن عيسى بن صالح تولى قنسرين والعواصم للرشيد وكان من الحمق على جانب عظيم قال بعضهم أتاني رسوله بالليل فأمرني بالحضور فتوهمت أن كتابا جاءه من أمير المؤمنين في مهم احتاج فيه إلى حضور مثلي فركبت إلى داره فلما دخلت سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر فقالوا لا فامضيت إلى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت إلى الموضع الذي هو فيه فقال لي أدخل ليس عندي أحد فدخلت فوجدته على فراشه فقال: أعلم أي سهرت الليلة مفكراً في أمر إلى ساعتى هذه قتل وما هو الأمر أصلح الله الأمير قال اشتهيت أن يصيرني الله حورية في الجنة ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكري فقلت له هلا اشتهيت محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكون زوجك فإنه سيد الأنبياء عليهم السلام فقال لا تظن أي لم أفكر في هذا قد فكرت فيه ولني كرهت أن أغيط عائشة رضي الله عنها.

ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الأعراب قيل صلى إعرابي خلف بعض الأئمة في الصف الأول وكان اسم الإعرابي مجرماً فقراً الإمام والمرسلات عرفاً فلما بلغ إلى قوله تعالى ألم نهلك الأولين تأخر الإعرابي إلى الصف الأخير فقال ثم نتبعهم الآخرين فرجع إلى الصف الأوسط فقال كذلك نفعل بالجرمين فولى هاربا وهو يقول والله ما المطلوب غيري.

ومثله صلى إعرابي خلف أمام صلاة الصبح فقراً الإمام سورة البقرة وكان الإعرابي مستعجلاً ففاته مقصوده فلما كان من الغد بكر إلى المسجد فابتدأ فقراً سورة الفيل فقطع الإعرابي الصلاة وولى هارباً وهو يقول أمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف النهار واليوم تقرأ سورة الفيل ما أظنك تفرغ منها إلى الليل. ومنه كان إعرابي قائماً يصلي فأخذ قوم يصفونه بالصالح وهو يسمع فقطع الصلاة وقال وأنا مع

هذا صائم. ومنه دخل خالد بن صفوان الحمام وفي الحمام رجل ومعه ابنه فأراد الرجل أن يعرف خالداً ما عنده من البيان والنحو فقال يا بني ابدأ بيدك ورجلاك ثم النفث إلى خالد فقال له يا أبا صفوان هذا كلام قد ذهب أهله فقال خالد هذا كلام ما خلق الله له أهلاً.

ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء أن بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد نما خبر المهدي أنه مات وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك فقال رافعا صوته:

مات الخليفة أيها الثقلان

فقالوا هذا أشعر الناس فإنه نعى الخليفة إلى النس والجن في نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم إليه فقال:

فكأنني أفطرتُ في رمضان

قال فضحك الناس وصار شهرة في الحلق.

ومثله أن سيف الدولة بن حمدان أنصرف من الحرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل معهم رجل شامي فأنشده:

وكانوا كفار وسوسوا خلف حائطٍ ... وكنت كسّورٍ عليهم تسقفا

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة بكانه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكي قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملِي بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له ذلك النظم كم كت أملت قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف.

ومن المنقول عن المغفلين على الإطلاق قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فإذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست إليهم وهم ينقصون من علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقممت من عندهم مغضبا فرأيت شيخاً جميلاً يصلي فظننت به الخير فجلست إليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون علي بن أبي طالب وينقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال لي يا عبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكي فقممت من عنده وخلفت لا أقيم بها.

ومن ذلك أن رجلاً سأل بعضهم وكان من الحمق على الجانب عظيم فقال إيما أفضل عندك معاوية أو عيسى بن مريم فقال ما رأيت سائلاً أجهل منك ولا سمعت بمن قاس كاتب الوحي إلى نبي النصارى، ومن ذلك أن لصاً تسور روضة وكان اللص مغفلاً فظفر من خلال الروضة فوجد رجلاً وزوجته وهي تقول له يا رجل من أين اكتسبت هذا المال العظيم فقال لها كنت لصاً وكنت إذا تسورت روضة بيت صبرت إلى أن يطلع القمر فإذا طلع اعتنقت الضوء الذي في الروضة وتدلّيت بلا حبل وقلت شولم شولم فتزلت فأخذ جميع ما في البيت ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت إلا ظهرت لي ثم أقول شولم شولم وأصعد في الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت وأذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر إلى أن طلع القمر ونام أهل البيت

فتعلق في ضوء الروزنة فوق وتكسرت أضلاعه فقام إليه صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه إلى صاحب الشرطة. ومنهم

يسوق الحمير ويعدها

من كان يسوق عشرة حمير فركب واحداً منها وعدها فإذا هي تسعة حمير فنزل وعدها فإذا هي عشرة فقال أمشي وأربح حماراً خير من أن أركب وأخسر حماراً فمشى حتى كاد يتلف إلى أن بلغ قريته. ومنهم من مات بعض أقاربه فقيل له لم لا تبعث جنازته فقال هذا الكلام ما يقوله عاقل أكون منسيا فأذكر بنفسى ومن ذلك أن بعض المغفلين سمع رجلاً ينشد:

وكان بنو عمي يقولون مرحباً ... فلما رأوني معدماً مات مرحباً

فقال: كذب الشاعر مرحب قتله علي بن أبي طالب لم يمت إلا قتيلاً، ومنه من باع داراً وكان يؤذن بباب مسجد بالقرب منها فأنسى أنه باعها فصلى ورجل إليها ودخل من الباب فصاحت النسوة وقلن له يا رجل اتق الله فينا فقال اعنروني فإني ولدت في هذا الدار ولم أذكر البيع. ومنهم

أخبار وطرف

من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال لها يا جارية ما حملك على هذا فقالت له يما مولاي حلفني بحياة رأسك وأنت تعلم صدق محبتي لك فسكت. ومنهم من سمع أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام إلى الظهر وقال يكفيني ستة أشهر. ومنهم من جاء إلى الجب ونظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب إلى أمه وقال يا أمي في الجب لص فجاءت الأم فطلعت فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة. ومنهم من دعا فقال اللهم اغفر لي ولأمي ولأختي ولامرأتي فقيل له لم تركت ذكر أهلك قال لأنه مات وأنا صبي لم أدركه، وقال رجل لرجل كم يوم في هذا الشهر فظفر وقال والله لست من أهل هذه المدينة، ومن ذلك أن هشام ابن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل حمصي بفرس كلما قدمه يتأخر، فقال له هشام ما هذا، قال: يا سيدي فاره ولكنّه شبّهك ببطار كان يعالجه فنفر. ومنهم من قيل له عنك مال جزيل وليس لك إلا والدة عجوز وإن مت ورثتك فأفسدت مالك فقال إنها لا ترثني قيل وكيف: قال: لأن أبي طلقها قبل أن يموت. ومنهم من جاء إليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ما عندي الآن شيء ولكن عودوني في وقت آخر قالوا أقمّلحّه إلى أن يتيسر عنك شيء. ومنهم من تقدم يصلي المغرب بجماعة فأطال القيم فلما فرغ من الصلاة سجد سجدي السهو ولم يكن سهواً فقيل نحن أنكرنا عليك طول القراءة فما الجواب عن سجدي السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت أي صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو. ومن ذلك أن عبداً كان بين اثنين في الشركة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال إنما ضربت حصتي. ومنهم من قيل له كيف صنعتم في رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فأنفذناه في يوم واحد واسترحنا منه. قال الأصمعي خرج جماعة من بني غفار ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح في البحر أيسوا معها من الحياة فأعق

كل واحد منهم مملوكا أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم إنك تعلم أني ليس لي مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتي طالق طلبة واحدة لوجهك الكريم.

معلمي الصبيان

قال ابن الجوزي في آخر كتاب الحمقى والمغفلين أن المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسيراً لقلّة العقل وإبرازاً للحماقة. وقال عدل عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم أنه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل. وكان يجيى بن أكثم لا يقبل شهادة المعلم. وقيل لصبي ما لنا نراك كثير الحمق فقال لو لم أكن كذلك لكنت ولد زنا. وقيل لمعلم مالك تضرب ذا الصبي ولم يذنب قال إنما ضربته قبل أن يذنب لئلا يذنب. وقال الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرئ صبيّا، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تقصص رؤياك عن إخوتك فيكيدوا لك كيدا قتلته له ويحك قد أدخلت سورة في سورة. فقال نعم عافاك الله إذا كان أبوه يدخل شهراً في شهر فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ولا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا انتهى. ما تخيرته من كتاب الأذكياء والحمقى والمغفلين.

الوليد ومسامر الخلفاء

ومما تخيرته من سلوان المطاع لابن ظفر أن الوليد ابن يزيد لما بلغه أن ابن عمه يزيد ابن الوليد بن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه في ملكه احتجب عن ستماره ودعا في بعض الليالي خادما فقال له انطلق متتكررا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فإذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشي مشياً هويناً وهو مطرق فسلم عليه وقل له في أذنه: أمير المؤمنين يدعوك فأن أسرع في الإجابة فائتني به وإن استراب فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذي ذكرت لك فانطلق الخادم فأتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على الوليد حياه بتحية الخلافة فأمره الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر إلى أن ذهب روعه وسكن جأشه ثم اقبل عليه فقال له أحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد إن كنت تحسنها فأخبرنا ما هي فقال يا أمير المؤمنين المسامرة أخبار لمنصت وأنصت لمخبر ومفاوضة فيما يعجب ويليق فقال له الوليد أحسنت لا أزيدك امتحانا فقل أسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما أحدهما الإخبار بما يوافق خبرا مسموعا والثاني الإخبار بما يوافق غرضاً من أغراض صاحب المجلس وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقة فأنحو نحوها وألزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وهما نحن نقترح لك ما تقتفيه قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى في ضرر ملكنا فأثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت وعلى ما ترى من التدبير فقال يا أمير المؤمنين بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها إلى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طوية وطماعية في نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين

عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك إلا أنه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد فاستأذن أمير المؤمنين في العود إلى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس إلى خلع عبد الملك فأجابوه إلى ذلك وبايعوه وحصّن بعد ذلك سور دمشق وحى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير وبلغه مع ذلك أن والي حمص قد نزع يده من الطاعة وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف فأحضر وزراءه فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملكنا قد استولى عليها عمر بن سعيد وهذا عبد الله ابن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه المضربة بسيفها تطالبنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك مالكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة إليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيراً على عود من أعواد قنطرة حتى تنقضي هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام أمرهم بلزوم موضعهم وركب منفرداً وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف البدن سيء الحال وهو يجمع سماً فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ ألك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك أي أردت الانتظام في سلوكه فقال له أي أرى عليك سمة الرياسة فينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الرأي فإن الأمير الذي أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه والسلطان في اضطراب أموره كالبحر إذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوي عليّ جذب نفسي إلى صحبة هذا الأمير فهل لك أن ترشدني إلى رأي أتفق به عنده فلعلة يكون سبب قربي منه فقال الشيخ أن هذه النازلة التي نزلت بهذا الأمير من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول وإني لأكره أن أرد مسألتك بالخيبة فقال له عبد الله قبل جزاك الله خيراً فقال الشيخ إن هذا الخليفة خرج إلى قتال عدوه والإرادة غير قابلة لمراده والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يرد من قصده من محاربة ابن الزبير ووثوب عمرو بن سعيد على منبره واستيلائه على ييوت أمواله وسريره خلافته فإذا قصدت هذا الأمير وانتظمت في سلوكه أنظر في أمره فإن رأيته قد أصر على قصده ابن

الزبير فأعلم أنه مخذول فأجنبه وإن رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الأول فأرج له النصر والسلامة. فقال عبد الملك يا شيخ وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيره إلى ابن الزبير فقال الشيخ إن الذي أشكل عليك لوأضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو أن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم لأن ابن الزبير لم يطعه طاعة قط ولا وثب له على ملكة فإذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم لأنه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله وعمرو عليها متعدي ومن الأمثال سمين الغضب مهزول وولي الغدر معزول وسأضرب لك مثلاً يشفي النفس ويزيل اللبس. زعموا أن ثعلباً كان يسمّى ظالماً وكان له جحر يأوي إليه وكان مغتبطاً به فخرج يوماً يبتغي ما يأكل ثم رجل فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم أنها استوطنته وذلك أن الحية لا تتخذ جحراً بل إذا أعجبها جحر اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظلمها

ولما رأى ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فأنتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر في أرض منيعة ذات أشجار ملفتة وماء معين فأعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض وأنه ورثه عن أبيه فناده ظالم فخرج إليه ورحب به وأدخله إلى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرق له مفوض وقال له الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار والرأي عندي أن تنطلق معي إلى مأواك الذي أخذ منك غصبا حتى أنظر إليه فلعلي أهتدي إلى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا إلى ذلك الجحر فتأمل مفوض وقال لظالم اذهب معي فبت الليلة عندي لأنظر ليلتي هذه فيما يسنح من الرأي والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به حرصه عليه وطفق يدبر في حيلة اغتصابه ونفي مفوض عنه فلما أصبحا قال مفوض لظالم أي رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر والماء فأصرف نفسك عنه وهلم أعينك على احتفار جحر في هذا المكان المشتبه فقال ظالم هذا غير ممكن لأن لي نفسا تهلك لبعد الوطن حيننا فلما سمع مفوض ما قاله ظالم وما تظاهر به من الرغبة في وطنه قال له أي أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطباً ونربط منه حزمتين فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام فأخذنا قيس نار واحتملنا الحطب والقيس إلى مسكنك فنجعل الحزمتين في بابه نضرم النار فإن خرجت الحية احترقت وإن لزمت الجحر قتلها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأي فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام فأخذ قيسا فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالتها إلى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الآخرة إلى باب مسكن مفوض فسده بها سدا محكما وقدر في نفسه أن مفوضا إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته فإذا يس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاماً أدخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به إن حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأي ثم إن مفوضا جاء بالقيس فلم يجد ظلما ولا وجد الحطب فظن أن ظلما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وأنه سبقه إلى مسكنه الذي فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأي أن يبادر إليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القيس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود به لشدة الظلمة فما بعد عن الباب إلا وضوء النار وشلة الدخان قد لحقا به فعاد وتأمل الباب فرأى الحطب قد صار ناراً فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق ن داخل الجحر وحق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم إن مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جنة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته في أخذ دار ملكه وتحصينها منه وهذا كفعل ظالم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سر بذلك سرورا عظيما ثم أقبل عليه فقال جزيت عني خيرا وأني أريد أن تجعل بيني وبينك موعداً وتعرفني مكانك لألقاك به بعد يومي هذا فقال الشيخ وما تريد بذلك فقال له عبد الملك إني أريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ إني أعطيت الله عهداً أن لا أقبل منة

لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت أي بخيل فقال لأنك أخرت صلتي مع القدرة فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له أقبل مني هذا واحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ إني لا أقبل صلة ذاهل فدعني وربّي الذي لا يذهل ولا ييخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه فقال له أنا عبد الملك فأرفع حوائجك إلي فقال الشيخ وأنا عبد الملك فهلهم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فأنجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرتة وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له: من جهل مثلك في رعيته ضاع. فقال له الكهل: يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تعرف إليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد إليه في ملازمته فكان يتمتع بأدبه وحكمته إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور والله أعلم. قال عبد الملك ومن أين علمت أي بخيل فقال لأنك أخرت صلتي مع القدرة فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له أقبل مني هذا واحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ إني لا أقبل صلة ذاهل فدعني وربّي الذي لا يذهل ولا ييخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه فقال له أنا عبد الملك فأرفع حوائجك إلي فقال الشيخ وأنا عبد الملك فهلهم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فأنجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرتة وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له: من جهل مثلك في رعيته ضاع. فقال له الكهل: يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تعرف إليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد إليه في ملازمته فكان يتمتع بأدبه وحكمته إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور والله أعلم.

ومما تخبرته من عجائب سلوان المطاع قيل لما عزم سابور ابن هرمز على الدخول إلى بلاد الروم متكرراً فهاه نصحاؤه وعقلاء وزرائه وحنروه من ذلك فعصاهم وكان يقال أوزر الناس وزراء الأحداث من الملوك وعشاق الفتيان من المشايخ ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله وكان من أدهى الناس في الحزم وسداد الرأي واختلاف الأديان ولغاها وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكايد فسلم إليه في سفره وأمر أن لا يتجاوز في السير ولا يبعد عنه بحيث يراعي جميع أحواله في ليله ونهاره فتوجه نحو الشام وليس ذلك الوزير زي الرهبان وتكلم بلسانهم وتحرف بصناعة الطب الجرائحي وكان معه الدهن الصيني الذي إذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت فكان ذلك الوزير في مسيره نحو بلاد الروم يداوي الجراحات بأدوية يضيف إليها يسيراً من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة وإذا عني بأحد من ذوي الأقدار داواه بذلك صرفاً فيبرأ على الفور ولا يأخذ على ذلك أجرة فانتشر ذكره في بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر وأقبل عليه الناس وكان مع إنفراده عن سابور يراعي جميع أحواله فلم يزل كذلك حتى طافا جميع الشام وقصدا القسطنطينية فقدمها فذهب الوزير إلى البطريك وتفسير هذا

الأسم أبو الآباء فاستأذن عليه فأذن له وسأله عن قصده فأخبره أنه هاجر إليه ليتشرف بخدمته ويدخل في أتباعه ثم أهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته وأخبره فوجده عالماً بدينهم بل مبرزاً فأعجب به غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أحوال البطرك ليصحبه بما يلائمه وينفق عنده فوجده مائلاً إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار وكان الوزير في ذلك غاية فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة فصار البطرك لم يطق عن الوزير صبرا لأنه حلا لعينه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك عوضاً فعظم قدره في الناس هذا وهو يتعاهد أحوال سابور في كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس إليها على طبقاتهم فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته في قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتربا بزي ظن أنه يتستر به ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق بلاده وتحسن له همته العالية وحدة الشبهة ذلك، صور سابور في مجلسه وعلى ستور بيته وعلى فرشته وفي آلات أكله وشربه، ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر في مجلسه وأكل مع من حضر أتوا بالشراب في كؤوس البلور والذهب والفضة والزجاج الخكم وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاقم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخص فرأى عليه مخايل الرياسة ولما زاد في تأمله وصل إليه دور الكاس فتأمل الصورة التي على الكأس وراجع النظر في سابور فما شك أن الصورة التي على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك الكأس في يده إمساكاً طويلاً ثم قال رافعا صوته إن هذه الصورة التي على هذا الكأس تخبرني أخباراً عجباً فقليل له وما الذي تخبرك فقال تخبرني أن الذي هي مثال له معنا في مجلسنا هذا ثم نظر إلى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك قيصر فادناؤه وقربه وسأله فأخبره أن سابور معه في مجلسه وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعجل بضروب من العلل لم تقبل فقال ذلك المتفكرس أيها الملك لا تقبل قوله فإنه سابور لا محالة فهدهد قيصر بالقتل فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرماً وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة وتطبق عليه الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب وتجعل لها كوة لأجل المبال ويستقر سابور بها وتجمع يداؤه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يمكنه معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوي البأس والشدة يحملونها وصرف أمره إلى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه فإذا نزل العسكر نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلاً بجنوده وعساكره وقد عزم على خراب فارس ولما جد السير قال وزير سابور للبطرك أيها

الأب إنما استنفدت بخدمتك الرغبة في مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود وجر منفعة إلى مضطر وقد علمت اجتهداي في مداواة الجرحى وإن نفسي تنازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا لا غير فلعل الله تعالى يستنقذ بي نفساً صالحة أو يشوقني إلى مداواة جريح من العسكر ليتقدم

قلبي بهذه المشروبات، فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت أنني لا أستطيع فراقك فكيف تطالبني بالسفر البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع إلى البطرك إلى أن استحي منه وسمح له بذلك وزوده وكتب معه إلى المطران يخبره برتبته عنده وأن يحله في أعلى المراتب ويستضيء برأيه إذا أشكل عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله في قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده وصار الوزير يستميله بما يميل إليه ويطرفه في كل ليلة بطرف الأخبار رافعا بها صوته لسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس في أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويطنه من الأسرار فكان سابور يجد بذلك راحة عظيمة وكان الوزير قد أعد خلاص سابور أنواعا من المكاييد رتبها عندما قدم على المطران منها أنه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره أنه لا يخلط بطعام البطرك غيره لأجل بركته فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو ذلك الزاد الذي معه وأنفرد بالأكل وحده فلم يزل قيصر سائرا بجوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبي وتغوير المياه وقطع الأشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولي على دار ملك سابور قبل أن يشعروا فيملكوا عليهم رجلا منهم ولم يكن للفرس هم إلا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعاقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولا منعة في دفعه أكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير في محاضراته للمطران ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر في تلك الصورة فلما علم سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويتس من الحياة فلما جاء الموكل بطعامه قال له إن هذه الجامعة قد نالت مني منالا ضعفت قوتي عن احتماله فإن كنتم تريدون بقاء نفسي فنفسوا عني منها واجعلوا بينها وبين يدي وعنقي خرقا من التحرير فجاء الموكل بالطعام إلى المطران وأعلمه بالذي قاله سابور فسمعه الوزير وعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما أراد سابور فلما جنَّ الليل وجلس لمسامرة المطران قال له ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا وددت أنني كنت حدثت به البطرك قبل سفري فقال له المطران إني أرغب إليك أن تحدثني الليلة أيها الراهب الحكيم فقال الوزير حبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته لسمع سابور ويفهم الغرض ويستأنس فقال أعلم أيها المطران أنه كان ببلادنا فتى وفتاة ليس في زمانهما أحسن منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين ولا يبتغي أحدهما بالآخر بدلا ثم أن عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء إلى أن ذكر أحدهم امرأة أظن في وصفها وبالغ، وذكر أن اسمها سيدة الذهب فوقع في قلب عين أهله حبها فسأل الواصف عن منزلها فذكر أنها يلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها فانطلق إلى البلد التي هي ساكنة بها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد إلى بابها حتى رآها فرأى منظرا حسنا ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل في الأحوال ولازم عين أهله المعاودة إلى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلمها وكان جافيا غليظ الطبع شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماسته عليه فاحتلموه إلى داخل دار الذئب وربطوه إلى سارية في الدار ووكل به عجوزاً مقطوعة اليد جدداء عوراء شوهاء فلما جن عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه وجعلت تصطلي فذكر عين أهله ما كان

فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكى بكاء شديداً فأقبلت عليه العجوز وقالت له ما ذنبك الذي أوجب هذا فقال عين أهله ما علمت لي ذنباً فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير. وكذب فقال عين أهله للعجوز وما الذي كذب فيه الفرس عند الخنزير فقالت له العجوز ذكروا أن فرساً كان لأحد الشجعان فكان يبالغ في إكرامه ويحسن

إليه ويعدده لمهمات ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به في صحبته كل يوم فيزيل لجامه وسرجه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى في كل مرج مخضب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يده ثم أنه خرج يوماً إلى المرج راكباً ونزل عنه فلما استقرت قدماه على الأرض نفر الفرس وجمع ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام ورام أن يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يضطجع فمنعه الركاب فبات بشر فلما أصبح ذهب يبتغي فرجاً مما هو فيه فاعترضه نمر فدخله ليقطعه إلى جهته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسيح فيه كان حزامه ولبه من جلد ما اتقن في دبغه فلما خرج أصابت الشمس الحرام واللب فيبسا واشتد عليه فورم موضع اللب والحزم واشتد به الضرر وقوي به الجوع ومضت عليه أيام فتزايد ضعفه وعجز عن المشي فمر به خنزير فهم بقتله فرآه ضعيفاً جداً فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من أضرار اللجام واللب والحزام وسأله أن يصنع معه معروفاً ويخلصه مما هو فيه فسأله الخنزير عن الذنب الذي أوقعه في تلك العقوبة فرعم الفرس أن لا ذنب له فقال له الخنزير كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه، ومن جهل ذنوبه وأصر عليها لم يرج فلاحه فحدثني يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره وكيف كان عند فارسه مكرماً وكيف فارقه وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير فقال الخنزير قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثر الذنوب، منها خلافتك لفارسك الذي بالغ في الإحسان إليك وأعدك لمهمات ومنها كفرك إحسانه ومنها تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام ومنها اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست من أهله ولا لك عليه مقدرة ومنها إصرارك على ذنبك وكنت قادراً على العود إلى فارسك قبل أن يوهنك اللجام والجوع والحرام واللب بالألم فقال الفرس للخنزير قد عرفت ذنبي فانطلق عني ودعني فإني أستحق أضعاف ما أنا فيه فقال الخنزير بعد أن عرفت وعدت على نفسك باللوم واخترت لها العقوبة على جهلها تعين الشروع في خلاصك ثم إن الخنزير قطع عذرا اللجام فسقط وقطع الحزام ففسد عن الفرس قال فلما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز قال لها صدقت فيما نطقته قد أدبتني فتأدبت ثم أعلمها بخبره ثم رغبها في أن تمن عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالفرس فقالت العجوز الذي سألتني لا يمكنني فعله الآن ولعلي أجد لك فرجاً ومخرجاً عن قريب فعليك بالصبر وأمستك العجوز عن مخاطبته قال فلما انتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبل على المطران وقال إني أحس في أعضائي فئوراً وفي رأسي صداعاً ولم أقدر الليلة على إتمام الحديث ولعلي أكون الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك فنهض إلى مضجعه فجعل سابور يتأمل حديث الوزير ويتأمل الأمثال التي ضربها له ودسها في المسامرة ففهم أن الوزير كنى عن سابور بعين أهله وكنى عن

مملكته بسيلة الناس وكُنّي عن بلاد الروم بسيلة الذهب وكُنّي عن قيصر بالذئب الذي ذكر أنه بعل سيدة الذهب وكُنّي عن طموح نفس سابور إلى مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى رؤية سيدة الذهب وكُنّي عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله وكُنّي عن نفسه وحاله وعجزه بالعجوز وأنه ساع في خلاصه فاستروح سابور ريح الفرج فسكنت نفسه ووثق بوزيره فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران وأخذ مقعده للمسامرة قال الوزير أيها الحكيم الراهب أخبرني عن ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا فقال الوزير سمعا وطاعة فشرع في حديثه وقال إن عين أهله أقام على حاله عدة أيام وكل يوم يدخل عليه الذئب ويهدده بالقتل ويزيده قيذاً ثم إن العجوز جاءته في بعض الليالي وأضرمت لها بالقرب منه ناراً وجلست تصطلي ثم أقبلت على عين أهله وقالت له ساعدي على خلاصك بالصبر فقال لها عين أهله وهان على الطليق ما لقي الأسير فقالت العجوز حادثة سنك قصرت فهمك عن إدراك الحقائق أفترسم حديثاً لك فيه سلوة قال نعم فقالت العجوز ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغولاً به فأخفاه بعض معارفه بخشف غزال فعلق قلب الصبي بذلك الخشف الصغير فكان لا يفارقه وجعلوا في جيله حلياً نفيساً وربطوا له شاة ترضعه حتى

اشتد ونجم قرناه فأعجبه بريقهما وسوادهما وقال لأهله ما هذا الذي ظهر في رأس الخشف قالوا قرناه وقالوا له إنهما سيكبران ويطولان فقال الغلام لأبيه إني أحب أن أرى غزالاً كبيراً له قرنان كاملان فأمر أبوه بعض الصيادين أن يصيد له غزالاً كبيراً فأحضر له غزالاً قد استكمل قوة ونموا فأعجب الغلام وحلى جيده أيضاً فتأنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية فقال الخشف للغزال ما كنت أظن لي في الأرض شكلاً قبل أن أراك فقال له الغزال إن أشكالك كثيرة فقال الخشف وأين هي فأخبره الغزال بتوحيشها وانفرادها في فلولات الأرض وتناسلها فارتاح الخشف لذلك وتمنى أن يراها فقال له الغزال هذه أمنية لا خير لك فيها لأنك نشأت في رفاهية من العيش ولو تحصلت على ما تمنيت لندمت فقال الخشف للغزال لا بد من اللحاق بأشكالي فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع لم يجد بداً من قضاء أربه حرمة الألفة فرصدا وقتاً وخرجا معاً حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح ومرح ومر يعدو ولا يلتفت إلى ما وراءه فسقط في اخدود ضيق قد قطعه السيل فانتظر أن يأتيه الغزال فيخلصه فلم يأت به وأما ولد التاجر فإنه تنكد لفقد الخشف والغزال وأشفق أبوه فاستدعى كل من يعانى الصيد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافأة على ذلك وركب التاجر معهم وفرق أتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين وانطلق هو وعبده حتى دخلوا الصحراء فأروا على بعد رجلاً منكباً على شيء بين يديه فأسرعوا نحوه فأروا صياداً قد أوثق غزالاً كبيراً وقد عزم على ذبحه فتأمله التاجر فإذا هو الغزال الكبير الذي لولده فخلصه من الصياد وأمر عبده ففتشوه فوجدوا معه الحلي الذي كان على الغزال فسأله كيف ظفر به وأين وجده فقال إني بت في هذه الصحراء ونصبت شركاً ومكثت قريباً منه فلما أصبحت مر عليّ الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الغزال يمشي حتى حصل فيه فقنصته وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لي أني مخطيء في إدخال هذا الظبي إلى المدينة حياً لعلمي أنه إذا رؤي

حيا طولبت بما كان عليه من الحلبي فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحما فهذا خبري فقال له التاجر لقد جنى عليك طمعك الخيبة فماذا عليك لو اطلقته وخلصت ما كان عليه من الحلبي ثم إن التاجر أرسل الغزال إلى ولده مع أحد عبيده وقال للصيد ارجع معي فارني الجهة التي رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به إلى تلك الجهة فسمع من قريب صوته فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته فصرت فسمع التاجر الصوت فأدركه فإذا هو في ذلك الأخدود ملقى فأخذه ووهب التاجر للصيد ما رضي به وصرفه ورجع التاجر بالخشف إلى ولده فكملت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدرُوا على ذلك فبينما الخشف نائم في كناسه إذ دخل عليه الغزال فايقظه وعاتبه على نفاذه منه فقال الخشف أما أنت الذي غدرت وقد علمت احتياجي في غربتي إلى معاونتك فقال له والله ما أخترني عن ذلك إلا وقوعي في شرك الصيد وقص عليه القصة فقبل عذره وعادا إلى الألفة كما كانا فلما سمع عين أهله خطاب العجوز فهم كنايتها عن عجزها في تخليصه أمسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحديث سكت فقال له المطران أيها الحكيم الراهب ما هذا السكوت فقال الوزير قد عاودني ذلك الفتور الذي أجده في أعضائي فقال المطران لا تفعل فإن ذلك يشق علي فقال الوزير نعم أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع يحدّثه قال وبات عين أهله تلك الليلة في أضيق الأحوال ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل في تلك الليلة فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز لم أحظ في هذه الليلة بمؤانستك فقالت له قد جرحت قلبي قولك لي هان على الطليق ما لقي الأسير لو اعتبرت باطن حالي لعلمت أن أسري أشد من أسرك فاستمع لي أحدثك. واعلم أيها الفتى أي كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لي محبا فكنت معه في ارغد عيش وولدت له أولادا كثيرة فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل أولادي الذكور وباعني أنا وبناتي فاشتراني هذا الفارس الذي عدا عليك واحتملني إلى هذه البلدة وأساء إلى وكلفني من العمل ما لا أطيق ولي معه على هذه الحالة سبع سنين ثم

فررت منه فظفري يقطع يديد وعود عسفي ومضرتي وقد عزمتم على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلني وجل قصدي ذلك لأجل الراحة مما أنا فيه ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج إليك وأنا في غاية الحيرة من الفزع والجزع ثم أنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً لتقتل نفسها فقال لها عين أهله وإن تركتك تقتلين نفسك فقد شاركك في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو معا أو نعطب معا فقالت إن كبر سني وضعف بصري يمنعني من اتباعك فقال لها عين أهله إن الليل متسع والموضع الذي أنا فيه قريب ولي قوة على حملك فقالت له العجوز إذا عزمتم على هذا فإني لا أحوجك إلى حملي وخرجنا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا على ما صنعت واتخذها أمّا، فهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أني لا أفارقك أبدا ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل سابور وأن الغزال الكبير مثل الوزير وأن خروج الخشف مع الغزال إلى الصحراء وحصول

الحشف في الأخدود مثل لصحبة سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله إن عجز عن المشي فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلتطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقبة سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل إلى أن ألقى في الطعام مرقدا قوي الفعل ولما حضر طعام المطران انفراد الوزير بأكل زاده على ما جرت به العادة فلم تكن إلا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير إلى فتح باب البقرة واستخرج سيده وأزال الجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا إلى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك سابور ثم عرفهم نفسه فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضربت نواقيس النصرى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فإذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتلوا أمره ثم أن سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم ما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا من كل جهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينبج من جنوده إلا اليسير ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مملكته فقسم الغنائم بين أهل عسكره وأحسن إلى حفظة ملكه وفوض جميع أموره إلى الوزير ثم أنه أحضر قيصر فإلفه وأكرمه وقال له إني مبق عليك كما أبقيت علي وغير مجاز لك على التصديق ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك ما أسارى الفرس. فضمن له جميع ذلك ووفى به فلما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطرفه وجهزه إلى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد إلى طاعته انتهى. فظفر بي فقطع يديده وعود عسفي ومضرتي وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلني وجل قصدي ذلك لأجل الراحة مما أنا فيه ولأجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج إليك وأنا في غاية الحيرة من الفرع والجزع ثم أنها فتحت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً لتقتل نفسها فقال لها عين أهله وإن تركك تقتلين نفسك فقد شاركك في دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومي اذهبي معي لكي ننجو معا أو نعطب معا فقالت إن كبر سني وضعف بصري يمنعاني من اتباعك فقال لها عين أهله إن الليل متسع والموضع الذي أنا فيه قريب ولي قوة على حملك فقالت له العجوز إذا عزمت على هذا فأني لا أحوجك إلى حملي وخرجت معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمتنا فجزاها عين أهله خيرا على ما صنعت واتخذها أمّا، فهذا ما بلغني من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت أني لا أفارقك أبدا ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ففهم أن الحشف مثل سابور وأن الغزال الكبير مثل الوزير وأن خروج الحشف مع الغزال إلى الصحراء وحصول الحشف في الأخدود مثل لصحبة سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به إلى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله إن عجز عن المشي فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلتطف وزير

سابور حتى دخل الخيمة التي يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقبة سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل إلى أن ألقى في الطعام مرقدا قوي الفعل ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به العادة فلم تكن إلا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير إلى فتح باب البقرة واستخرج سيده وأزال الجامعة عن عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتھيا معا إلى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك سابور ثم عرفهم نفسه فابتدروا لهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبيتهم فإذا ضربت النواقيس النصرارى الضرب الأول يخرجون من المدينة ويفترقون على عسكر الروم فإذا ضربت النواقيس الضرب الثاني يحملون بأجمعهم فامتلوا أمره ثم أن سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم ما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر فلما ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا من كل جهة وقصد سابور أخبية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهمهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده إلا اليسير ثم عاد سابور إلى مدينته ودار مملكته فقسم الغنائم بين أهل عسكره وأحسن إلى حفظة ملكه وفوض جميع أموره إلى الوزير ثم أنه أحضر قيصر فإلفه وأكرمه وقال له إني مبق عليك كما أبقيت علي وغير مجاز لك على التصنيق ولكن آخذك بإصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك ما أسارى الفرس. فضمن له جميع ذلك ووفى به فلما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن إلى قيصر وأطرفه وجهازه إلى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد إلى طاعته انتهى.

كتاب : ثمرات الأوراق
المؤلف : ابن حجة الحموي

ومن لطائف المنقول قصة أرينب بنت اسحق زوج عبد الله بن سلام كان عبد الله بن سلام واليا بالعراق من قبل معاوية وكانت أرينب بنت اسحق زوجا له وهي من أجمل نساء عصرها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد ابن معاوية قد هام بجماها وأدبها على السماع وبما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق وفتن بها فلما عيل صبره خص بسره خصيصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شدة شغف يزيد بها فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره فبث له شأنه فقال معاوية: مهلا يا يزيد قال علام تأمرني بالمهل وقد اقتطع منها الأمل فقال معاوية وأين حباك ومروعتك فقال له يزيد قد عيل الحجي ونقد الصبر قال يا بني ساعدني على أمرك بالكتمان والله بالغ أمره وكانت أرينب بنت اسحق قد سارت بذكر جماها الركبان وضربت بها الأمثال فأخذ معاوية في الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه وينال غرضه ومناه فكتب إلى عبد الله بن سلام يستحثه على الحضور لمصلحة عينها له وكان معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا الرسول صلى الله عليه وسلم فلما قدم عليه عبد الله بن سلام الشام أعد له معاوية منزلا حسنا وقبلة إليه وبالغ في إكرامه ثم قال لأبي هريرة وأبي الدرداء أن ابنتي قد بلغت وأريد انكاحها وقد رضيت عبد الله بن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ولكن أرجو أن لا تخرج عن رأيي إن شاء الله تعالى فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه وحضاك على المسارعة إلى رضائي فقولي لهما عبد الله بن سلام كفاء كريم غير أن تحته أرينب بنت اسحق وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها وأما أبو الدرداء وأبو هريرة فإنهما لما وصلا إلى عبد الله بن سلام أعلماه بما قال لهما معاوية فردهما خاطبين عنه فلما مثلا بين يدي معاوية قال إني كنت أعلمتكما أنني جعلت لها في نفسها شورى فادخلا عليها وأعلمها بما رأيت لها فدخلوا وأعلمها بذلك فأبدت ما قرره أبوها عندها من قبل فعادا إلى عبد الله بن سلام فأعلماه بذلك ففهم المراد وأشهدهما عليه بطلاق أرينب وبعثهما إليه خاطبين فلما دخلا على معاوية أعلماه بطلاق أرينب فأظهر معاوية كراهية ذلك وقال ما استحسنت طلاق زوجته ولا أحببته فانصرفا في عافية وعودا غلينا وكتب إلى ابنه يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأرينب بنت اسحق وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة إلى معاوية فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها وهو يقول لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت الشورى في نفسها فدخلوا عليها وأعلمها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها بذلك وذكرها فضله وشرفه وكرمها ومروءته فقالت جف القلم بما هو كائن ولا أنكر شرفه وفضله وإني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قو إلا بالله فإن يك صدر هذا اليوم ولّي فإن غداً لناظره قريب ثم ترايد حديث الناس بطلاق أرينب وخطبة ابنة معاوية واستحث عبد الله أبا الدرداء وأبا هريرة فأتياها فقال لها اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فقالت أرجو والحمد لله أن يكون الله قد اختار لي فإنه لا يكل إلى غيره وقد

سبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهي عنه والآخر به فلما بلغه كلامها علم أنه حيلة وأنه مخدوع وقال متعزياً ليس لأمر الله راد ولعل ما سرّوا به لا يدوم لهم سروره قال وذاع أمره وفشا في الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه بس ما صنع ثن إن معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومه وجه أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال أبو الدرداء إلى قدم العراق ما ينبغي لذي عقل أن يبدأ بشيء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة إذا دخل موضعاً هو فيه فقصد الحسين رضي الله عنه فلما رآه قام إليه وصافحه إجلالاً لصحبته لجده صلى الله عليه وسلم وقال ما أتى بك يا أبا الدرداء قال وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت اسحق فرأيت عليّ حقاً أن لا أبدأ بشيء قبل السلام عليك فشكره الحسين على

ذلك وأثنى عليه وقال لقد ذكرت نكاحها وأردت الارسال إليها إذا انقضت عدتها وقد أتى الله بك فاحطب على بركة الله عليّ وعليه وهي أمانة في عنقك واعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعّل إن شاء الله فلما دخل قال أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته وكوّننا بعزته وجعل لكل أمر قدراً ولكل قدر سبباً فليس لأحد عن قدر الله مخلص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله ابن سلام على غير قياس ولعل ذلك لا يضيرك وجعل الله فيه خيراً كثيراً وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من أقر به من أمته وسيد شباب أهل الجنة فاختراري أيهما شئت فسكت طويلاً ثم قالت يا أبا الدرداء لو جاعني هذا الأمر وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك وجعلته في يديك فاختر لي ارضاهما لربك والله شاهد عليك فاقض ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفياً فقال أبو الدرداء أيتها المرأة إنما عليّ إعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله عنك إنما أنا بنت أخيك ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوقتك به فقد وجب عليك أداء الأمانة فلم يجد بداً من القول فقال يا بنية: ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ في ذلك وأرضى عندي والله أعلم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً شفتيه على شفتي الحسين فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه قالت قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن عليّ عليهما السلام فساق لها مهراً عظيماً وبلغ معاوية ما فعله أبو الدرداء فعظم عليه وقال من يرسل ذا بله وعمى ركب خلاف ما يهوى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها ذهباً وكان معاوية قد أطرحه وقطع عنه جميع روافده لقوله إنه خدعه حتى طلق امرأته فلم يزل يحفوه حتى قل ما بيده فرجع إلى العراق فلما قدمها لقي الحسين فسلم عليه ثم قال لقد علمت ما كان من خبري وخبر أرينب وكنت قبل فراقني إياها استودعتهما مالا وكان الذي كان ولم أقبضه ووالله إن ظني بها جميل فذاكرها في أمري فإن الله يجزيك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف إلى أهله قال لها: قدم عبد الله بن سلام وهو كثير الثناء عليك في دينك وحسن صحبتك فسرني ذلك وذكر أنه استودعك مالا فقالت صدق استودعني مالا لا أدري لمن هو وأنه لمطبوع عليه بخاتمه وها هو ذا فادفعه إليه

بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال الا أدخله عليك حتى تبرئي منه ولقي عبد الله فقال: ما أنكرت مالك وزعمت أه كما دفعته إليها بطابعك فادخل يا هذا إليها واستوف مالك بحيث تحصل البراءة من الطرفين فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأخرجت إليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر وأثنى فخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحتى لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل مني فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله إنها طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم أنني لم أستنكحها رغبة في مالها ولا في جمالها ولكني أردت إحلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها في مهرها بعدما عرضته عليه وقال: الذي أرجوه من الثواب خير لي فلما انقضت عدتها تزوجها عبد الله بن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة إلى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون في تاريخه والله أعلم. لك وأثنى عليه وقال لقد ذكرت نكاحها وأردت الارسال إليها إذا انقضت عدتها وقد أتى الله بك فاحطب على بركة الله عليّ وعليه وهي أمانة في عتقك واعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعل إن شاء الله فلما دخل قال أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته وجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لأحد عن قدر الله مخلص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله ابن سلام على غير قياس ولعل ذلك لا يضيرك وجعل الله فيه خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من أقر به من أمته وسيد شباب أهل الجنة فاختراري ايهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت يا أبا الدرداء لو جاعني هذا الأمر وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك وجعلته في يديك فاختر لي ارضاها لريك والله شاهد عليك فاقض ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا فقال أبو الدرداء أيتها المرأة إنما علي إعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله عنك إنما أنا بنت أخيك ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما طوقتك به فقد وجب عليك أداء الأمانة فلم يجد بدا من القول فقال يا بنية: ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي في ذلك وأرضى عندي والله أعلم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتي الحسين فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم شفتيه قالت قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن علي عليهما السلام فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية ما فعله أبو الدرداء فعظم عليه وقال من يرسل ذا بله وعمى ركب خلاف ما يهوى وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها ذهابا وكان معاوية قد أطرحه وقطع عنه جميع روافده لقوله إنه خدعه حتى طلق امرأته فلم يزل يجفوه حتى قل ما بيده فرجع إلى العراق فلما قدمها لقي الحسين فسلم عليه ثم قال لقد علمت ما كان من خبري وخبر أرينب وكنت قبل فراقني إياها استودعها مالا وكان الذي كان ولم أقبضه والله إن ظني بها جميل فذاكرها في أمري فإن الله يجزيك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف إلى أهله قال لها: قدم عبد الله بن سلام وهو كثير الشاء عليك في دينك وحسن صحبتك فسرني ذلك وذكر أنه استودعك مالا فقالت صدق استودعني مالا لا أدري لمن هو وأنه لمطبوع عليه بخاتمه وها هو ذا فادفعه إليه بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال الا أدخله عليك حتى تبرئي منه ولقي عبد الله فقال: ما أنكرت مالك وزعمت أه كما دفعته إليها بطابعك

فادخل يا هذا إليها واستوف مالك بحيث تحصل البراءة من الطرفين فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأخرجت إليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر وأثنى فخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحشى لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل مني فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله إنما طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم أنني لم أستنكحها رغبة في مالها ولا في جمالها ولكني أردت إحلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها في مهرها بعدما عرضته عليه وقال: الذي أرجوه من الثواب خير لي فلما انقضت عدتها تزوجها عبد الله بن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة إلى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون في تاريخه والله أعلم.

ومن غرائب المنقول وعجائبه عن الأمير بدر الدين أبي المحاسن يوسف المهنندار المعروف بمهنندار العرب أنه قال حكى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازي متولي القاهرة في الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمئة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأني بكم وقد أنكرتم بياضهم فقلنا له نعم: قال هؤلاء أمهم إفرنجية أختها في أيام الملك الناصر صرح الدين وأنا شاب فقلنا وكيف أخذتها قال حديثي بها عجيب قلنا أتعفنا به قال: زرعت كتانا في هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار ولم يبلغ الثمن إلى أكثر من ذلك فحملته إلى القاهرة فلم يصل إلى أكثر من ذلك فأشير علي بحمله إلى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيئا فوصلت به إلى عكا فبعت بعضه بالأجل والبعض تركته عندي واكترت حانوتا أبيع فيه على مهلي إلى حيث انقضاء المدة فيما أنا أبيع إذ مرت بي امرأة إفرنجية ونساء الأفرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب فأتت تشتري مني كتانا فرأيت من جمالها ما بهرني فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت إلي بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى فتكررت إلي وعلمت أنني أحبها فقلت للعجوز التي معها أنني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها: قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال على أن أدفع خمسين دينارا صورته فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ما قبرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلواء فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير اليوم فقلت في نفسي أما تستحي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية اللهم أني قد عففت عنها في هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت إلى الصبح فنامت إلى الصبح وقامت في السحر وهي غصبي ومضت ومضيت أنا إلى حانوتي فجلست فيه وإذا هي قد عبرت علي هي والعجوز وهي مغضبة وكأنها القمر فهلكت فقلت في نفسي من هو أنت حتى تترك هذه البارعة في حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعي فقالت وحق المسيح ما أرجع إليك إلا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ثم مضت ومضيت إلى موضعي ثم عبرت بعد ذلك علي وكانت مستغربة فقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمداً فارتعدت لذلك وعزمت أنني

أصر ف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي معاشر المسلمين إن الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة فأنقضت عني وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه وأخذت معي بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفي قلبي من الإفرنجية ما فيه فوصلت إلى دمشق وبعث البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومن الله بكسب وافر وأخذت أنجر في الجوارى عسى أن يذهب ما بقلبي من الإفرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى فطلب مني جارية للملك الناصر فأحضرت جارية حسنة فاشترت له بي بمائة دينار فأوصلوا إلى تسعين دينارا وبقيت لي عشرة دنانير فلم يلتقوها في الخزنة ذلك اليوم لأنه أنفق جميع الأموال فشاوروه على ذلك فقال امضوا به إلى الخزنة التي فيها السبي من نساء الإفرنج فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدنانير التي له فأتيته الخيمة فعرفت غريمي الإفرنجية فقلت أعطوني هاتيك فأخذتها ومضيت إلى خيمتي وخلوت بها وقلت لها أتعرفيني قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر الذي جرى لي معك ما جرى وأخذت مني الذهب وقلت ما بقيت تبصرني إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فأسلمت وحسن إسلامها فقلت والله لا وصلت غليها إلا بأمر القاضي فرحت إلى ابن شداد وحكيت له ما جرى فعجب وعقد لي عليها وباتت تلك الليلة عندي فحملت مني ثم رحل العسكر وأتىنا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيراً من الرجال والنساء ولم يبق إلا التي

عندي فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندي وطلبت مني فحضرت وقد تغير لوني وأحضرتها معي بين يدي مولانا السلطان الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أسرك وأسرك غيرك فقالت يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحملت وهابطني كما ترونه وما بقيت الإفرنج تنتفع بي فقال لها الرسول أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجي فلان فأعادت عبارتها الأولى فقال الرسول لمن معه من الإفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لي الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبني ثانياً وقال إن أمها أرسلت معي وديعة وقالت إن ابنتي أسيرة واشتبهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت إلى الدار وفتحت القماش فإذا هو قماشها بعينه قد سرت له لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هما بربطي لم يتغيرا وهؤلاء الأولاد منها وهي التي صنعت لكم هذا الطعام. دي فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندي وطلبت مني فحضرت وقد تغير لوني وأحضرتها معي بين يدي مولانا السلطان الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أسرك وأسرك غيرك فقالت يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحملت وهابطني كما ترونه وما بقيت الإفرنج تنتفع بي فقال لها الرسول أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجي فلان فأعادت عبارتها الأولى فقال الرسول لمن معه من الإفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لي الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبني ثانياً وقال إن أمها أرسلت معي وديعة وقالت إن ابنتي أسيرة واشتبهى أن

توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت إلى الدار وفتحت القماش فإذا هو قماشها بعينه قد سيرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هما بربطتي لم يتغيرا وهؤلاء الأولاد منها وهي التي صنعت لكم هذا الطعام.

ومن لطائف المنقول من المتجاد قال الواقدي كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه بالري وأقام مالكة سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندي ما حكاه لي، قال: لما دخل المأمون الري في طلبي وجعل لمن أتاه بي مائة ألف درهم خفت على نفسي وتحررت في أمري فخرجت من داري وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدري أين أتوجه فوقفت في شارع غير نافذ وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون إن عدت على أثري يرتاب في أمري فرأيت في صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت إليه وقلت هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار نعم وفتح الباب فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود إلا أنها نظيفة ثم أغلق الباب علي ومضى فتهمته قد سمع الجمالة في وأنه خرج ليدل علي، فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك إذ أقبل حمال عليه كل ما يحتاج إليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال ثم التفت إلي وقال جعلني الله فداك أنا رجل حجّام وأنا أعلم أنك تتعرف مني لما أتولاه من معيشتي فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان بي حاجة إلى الطعام فطبخت لنفسي قدرًا ما أذكر أني أكلت مثلها فلما قضيت أربي من الطعام قال هل لك في شراب فإنه يسلي الهم فقلت ما أكره ذلك رغبة في مؤانسته فأتى بقطرميز جديد لم تمسه يد وجاءني بدست شراب مطينة وقال لي روق لنفسك فروقت شرابا في غاية الجودة وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وأبقالا مختلفة في طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك أتأذن لي جعلت فداك أن أقعد ناحية وآتي بشراي فاشربه سرورا بك فقلت به افعل فشربت وشرب ثم دخل إلى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال يا سيدي ليس من قدرتي أن أسألك في الغناء ولكن قد وجبت على مروءتك حرمتي فإن رأيت أن تشرف عبك فلك علو الرأي فقلت ومن أين لك أي أحسن الغناء فقال يا سبحان الله مولانا اشهر من ذلك أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دله عليك مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظم في عيني وثبتت مروءته عندي فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطري فراق أهلي وولدي:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله ... وأعزّه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا ... والله رب العالمين قدير

فاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيرا ومن شدة طربه وسروره قال لي يا سيدي أتأذن لي أن أغني ما سنع بخاطري وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة في أدبك ومروءتك فأخذ العود وغنى:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضرب بذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنّهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا
فو الله أحسست بالبيت قد سار بي وذهب عني كل ما كان بي من الهلع وسألته أن يغني فغني:

تعبنا أنا قليلٌ عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا إنّا قليلٌ وجارنا ... عزيزٌ وجار الأكرين ذليل

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسلول

يقربُ حبُّ آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فطول

فداخلي من الطرب ما لا مزيد عليه إلى أن عاجلني السكر فلم أستيقظ إلا بعد المغرب فعاودني فكري في نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمّت وغسلت وجهي وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحتي فيها دنابر لها قيمة فرميت بها إليه وقلت له استودعتك الله فإنني ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي المزيد أن أمنت من خوفي فاعادها علي منكداً وقال: يا سيدي أن الصعاليك منا لا قدر لهم عندكم آخذ على ما وهبني الزمان من قربك وحلولك عندي ثنا والله لن

راجعني في ذلك لأقتلن نفسي فاعدت الخريطة إلى كمّي وقد أثقلني حملها فلما انتهيت إلى باب داره قال لي

يا سيدي إن هذا المكان أخفى لك من غيره وليس في مؤنتك عليّ ثقل فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك

فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة ولم يفعل فأقمت عنده أياما على تلك الحالة في الذ عيش فنذمت من الإقامة في مؤنته واحتشمت من التثقل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالا وقمت فتزيت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلي من الخوف أمر شديد وجئت لأعبر الجسر فإذا أنا بموضع مرشوش بماء فبصر بي جندي ممن كان يخمني فعرفني فقال هذه حاجة المأمون فعلق بي فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما في ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى

قطعت الجسر ودخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز فقلت يا سيدة النساء أحقني دمي فإني رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتني إلى غرفة مفروشة وقلمت لي طعاما وقالت ليهدأ روعك فما علم بك مخلوق وإذا بالباب يثق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب وإذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدوخ الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت يا هذا ما دهاك فقال ظفرت بالمغني وأنفلت عني، فأخبرها بالحال فأخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت إلى وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم قالت لا بأس عليك ثم جلدت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثا ثم قالت إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم بك فانج لنفسك فسألتها المهلة إلى الليل ففعلت فلما دخل

الليل ليست زي النساء وخرجت من عندها فأتيت إلى بيت مولاة كانت لنا فلما رأني بكّت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضياقة فظننت خيرا فما شعرت إلا إبراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني إليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزي الذي أنا فيه إلى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني إليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين، إن وليّ الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فإن تأخذ فبحقك وإن تعف

فبفضلك ثم أنشدت:

ذنبى إليك عظيمٌ ... وأنت أعظمُ منه
فخذ بحقِّك أولاً ... فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه
فرفع إلي رأسه فبدرته وقلت:
أتيت ذنباً عظيماً ... وأنت للعفو أهل

فإن عفوت فمنّ ... وإن جزيت فعذل

فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على ابنه العباس وأخبره أبي اسحق وجميع من حضر خاصته فقال ما ترون في أمره فكلُّ أشار بقتلي إلا أنهم اختلفوا في القتلة كيف تكون فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد ما تقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين: إن تقتله وجدنا مثلك قتل مثله وإن عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت في الأرض وأنشد متمثلاً:

قومي هم قتلوا أميمَ أخي ... فإذا رميت يصيني سهمي
فكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت عفا والله عني أمير المؤمنين فقال المأمون لا بأس عليك يا عم قُلت ذنبى يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول:

إن الذي خلق المكارم حازها في صُلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوبُ الناس منك مهابةً ... وتظلُّ تكلؤهم بقلبٍ خاشع
ما إن عصيتك والغواة تملّني ... أسباهاً إلا بنية طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفوّ ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وحين والدٍ بلبٍّ جازع
فقال المأمون لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك قُلت:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به ... وقبل ردّك مالي قد حققت دمي
فلو بذلتُ دمي أبغي رضاك به ... والمال حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ... إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
فإن جحدتك ما أوليت من كرم ... إني إلى اللؤم أولى منك بالكرم
فقال المأمون: إن من الكلام درأ وهذا منه: وخلع عليه وقال يا عم إن أبا إسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت فقال المأمون يا عم أمنت حقدى بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلاً ورفع رأسه وقال يا عم أتدري لم سجدت قلت شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكراً لله الذي ألهمني العفو عنك فحدثني الآن حديثك فشرحت له صورته أمري وما جرى لي

مع الحجام والجندي والمرأة والمولاة التي نمت علي فامر المؤمنون بإحضارها وهي في دارها تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع سيدك فقالت الرغبة في المال فقال لها هل لك ولد أو زوج قالت لا فأمر بضربها مائتي سوط وخلد سجنها ثم قال أحضروا الجندي وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل فقال الرغبة في المال فقال المؤمنون أنت يجب أن تكون حجاجا ووكل به ما يلزمه الجلوس في دكان الحجام لتعلم الحجامة وأكرم زوجته وأدخلها إلى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ثم قال للحجام لقد ظهر من مروؤتك ما يوجب المبالغة في إكرامك وسلم إليه دار الجندي بما فيها وخلع عليه وأنعم عليه برزقه وزيادة ألف دينار في كل سنة ولم يزل في تلك النعمة إلى أن مات.

ومما يضارع ذلك أنه لما أفضت الخلفة إلى بني العباس اختفت رجال بني أمية ومهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك وكان إبراهيم رجلاً عالماً عاملاً أديباً كاملاً وهو في سن الشبيبة فأخذوا له أماناً من السفاح فقال له يوماً حدثني عما مر بك في اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفياً بالحيرة في منزل بشارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدني فخرجت من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أخفي عند فبقيت في حيرة فإذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانهم وأتباعه فقال من أنت وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من حالي إلا أنه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوماً أراك تدمن الركوب ففهم ذلك قال إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبرا وقد بلغني أنه مخف فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري فكشروا والله تعجبي وقلت القدر ساقني إلى حنفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرني فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه فقلت له يا هذا وجب عليّ حَقُّك ومن حَقِّك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة قال وما ذاك قلت أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك فقال إني أحسبك رجلاً قد مضى الاختفاؤ فأحييت الموت فقلت لا والله ولكن أقول لك الحق يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغيّر لونه واحمرت عيناه واطرق ملياً ثم قال: أمّا أنت فستلقى أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره وأمّا أنا فغير مخفر ذمتي فأخرج عني فلست آمن عليك من نفسي وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين.

ومن لطائف ما نقلته من المستجد حدث أبو الحسن بن صالح البلخي بمصر قال أخبرني بعض عمال شيوخنا عن شيبه بن محمد الدمشقي قال كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمه ابن بشر من بني أسد مشهور بالمرودة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى أخوانه الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم فواسوه حيناً ثم ملوه فلما لاح له تغيّرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها يا بنت العم قد رأيت من اخواني تغيّراً وقد عزت على لزوم يتي إلى أن يأتيني الموت ثم أغلق بابه عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفذ وبقي حائراً في حاله فكان عكرمة الفياض واليا على الجزيرة فبينما هو

في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد إذ جري ذكر خزيمة ابن بشر فقال عكرمة ما حاله فقالوا صار في أسوأ الأحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته فقال عكرمة الفياض وما سمي الفياض إلا للافراط في الكرم فما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولا مكافئا فأمسك عن ذلك فلما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر بأسراج دابته وخرج سراً من أهله فركب ومعه غلام واحد يحمل المال ثم سار حتى وقف باب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فطرقه بنفسه فخرج خزيمة فقال له أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلاً فوضعه وقبض على لجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك قال له ما جئت في هذا الوقت وأنا أريد أن تعرفني قال خزيمة فما أقبله أو تخبرني من أنت قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدني قال لا: ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى امرأته فقال لها أبشري فقد أتى الله بالفرج فلو كان في هذا فلوس كانت كثيرة قومي فاسرجي قالت لا سبيل إلى السراج فبات يلمس الكيس فيجد تحت يده خشونة الدنانير ورجع عكرمة إلى منزله فوجد امرأته قد افقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها فلما رآها تلك الحالة قال لها ما دهاك يا ابنة العم قالت سوء فعلك بابنة عنك، أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفرداً عن غلمانته في سر من أهله إلا إلى زوجة أو سرية فقال لقد علم الله ما خرجت لوأحدة منهما قالت لا بد أ، تعلمني قال فاكتميه إذا قالت افعل فأخبرها بالقصة على وجهها ثم قال أتخين أن أحلف لك قالت لا قد سكن قلبي ثم أصبح خزيمة فصالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهوراً لمروءته وكان الخليفة به عارفاً فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما أبطأك عنا فقال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة إلينا قال ضعفي قال فمن أنهضك قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل إلا ورجل يطرق بابي وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لأنه كان متتكراً وما سمعت منه إلا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لأعناؤه على مروءته ثم قال علي بقناة فأتي بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطايه وأمره بالتوجه إلى الجزيرة فخرج خزيمة متوجها إليها فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقاءه فسلم عليه ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد فنزل خزيمة في جدار الإمارة وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالي إلى شيء منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل إليه أي لست ممن يصون ماله لغرضه فأصنع ما شئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهراً فأضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضي الساعة إلى باب هذا الأمير فتولي عندي نصيحة فإذا طلبت منك قولي ولا أقولها إلا للأمير خزيمة فإذا دخلت عليه سلبه الخلوة فإذا فعل قولي له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأته جابر عثرات الكرام غريمي قالت نعم فأمر من وقته بدابته فأسرجت وركب إلى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيراً قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة إلى خزيمة وإلى

الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى إنكب على رأسه فقبله فرفع رأسه إليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رليه فقال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجوا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الإنصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخليت ودخلا جميعاً ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمل إليه مالا كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر إليها وتذمم من ذلك ثم سأله أي سير معه إلى أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأخبره بقدم خزيمة بن بشر فراعته ذلك وقال: والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا إلا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ما وراءك يا خزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحييت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلس وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية واذريجان وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بد أردته إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته. لناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى إنكب على رأسه فقبله فرفع رأسه إليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعلك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رليه فقال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجوا جميعاً إلى أن وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الإنصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فأخليت ودخلا جميعاً ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمل إليه مالا كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له فاعتذر إليها وتذمم من ذلك ثم سأله أي سير معه إلى أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأخبره بقدم خزيمة بن بشر فراعته ذلك وقال: والي الجزيرة يقدم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ما هذا إلا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ما وراءك يا خزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحييت أن أسرك لما رأيت من شوقك إلى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له في الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلس وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره في رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف إليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية واذريجان وقال له أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال بد أردته إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته.

وضارح ذلك من المستجاد أيضا ما روي عن أبي موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر قال حدثني أبي قال كنت أتردد إلى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وأخدمها فتوجهت إلى خدمتها يوماً فقالت أقعد حتى أحدثك حديثاً كان بالأمس يكتب على الآماق، كنت أمس عند الخيزران ومن عادي أن أجلس بإزائها وفي الصدر مجلس للمهدي يجلس فيه وهو يقصدنا في كل وقت فيجلس قليلاً ثم ينهض فينمنا نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواربها فقالت أعز الله السيدة، بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة ليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية، تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها فامتنعت من أن تخبرني فالتفتت إلى الخيزران وقالت ما تريدين فقلت أدخلها فإنه لا بد من فائدة أو ثواب فدخلت امرأة من أجهل النساء لا تتوارى بشيء فوقفت بجب عضادة الباب ثم سملت متضائلة ثم قالت أنا زنة بن مروان بن محمد الأموي فقالت الخيزران لا حيّاك الله ولا قربك فالحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في الأذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهن وأسمعتيهن ما لا سمعن قبل وأمرت فأخرجن على تلك الحالة فضحكت مزنة فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة، ثم قالت يا بنت العم أي شيء أعجبك من حسن صنيع الله بي على العقوق حتى أردت أن تتأسي بي فيه، والله إن فعلت بنسائك ما فعلت فأسلمني الله لك ذليلة جائعة عريانة، وكان ذلك مقدار شرك لله تعالى على ما أولاك بي، ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران فرجعت، قالت زينب: فنهضت إليها الخيزران لتعانقها فقالت وليس في لذلك موضع مع الحال التي أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام إذا وأمرت جماعة من جواربها بالدخول معها إلى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة ترمي ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي ثم قالت لها الخيزران هل لك في الطعام فقالت والله ما فيكن أحوج مني إليه فجععلوه، فأني بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة إلى أن اكفت ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك مما تعتين به قالت ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب فقالت إذا كان الأمر هكذا فقومى حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحوّلي لها جميع ما تحتاجين إليه ثم لا نفرق إلى الموت فقامت ودارت بها في المقاصير فاختارت أوسعها وأزهرها ولم تبرح حتى حولت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوة قالت زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران هذا المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما في قلبها إلا المال فأحملوا إليها خمسمائة ألف درهم فحملت إليها وفي أثناء ذلك وافى المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به فوثب مغضبا وقال للخيزران هذا مقدار شكر الله على أنعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت أن لا أكلمك أبداً فقالت الخيزران يا أمير المؤمنين قد اعتنرت إليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا فلما علمي المهدي ذلك قال لخدام كان معه أحمل إليها مائة بدرية وأدخل إليها وأبلغها مني السلام وقل لها والله ما سررت في عمري كسروري اليوم وقد وجب على أمير المؤمنين إكرامك ولولا احتشامك لحضر إليك مسلماً عليك وقاضيا لحقك فمضى الخدام بالمال والرسالة فأقبلت على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنعه وبالغت في الثناء على الخيزران عنده وقالت ما على أمير

المؤمنين حشمة إنا في عدد حرمه ثم قامت إلى منزلها، فخلفتها عند الخيزران وهي تتصرف في المنازل والجواري كتصرف الخيزران فأخّها عندك فإنها من أحسن النوادر.

وروي عن عبد الرحمن بن عمر الفهري عن رجال سماهم، أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فحملوا فرآهم أحد الطفيلية قد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء إلى لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون إلى البحر وأطلعوهم في زورق قد أعد لهم فقال الطفيلي لا شك أنها نزهة فصعد معهم في الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلي معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر وساروا بهم إلى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون مثلوا بين يديه أمر بضرب اعناقهم فاستدعواهم باسمائهم حتى لم يبق إلى الطفيلي وهو خارج عن العدة فقال لهم المأمون من هذا قالوا والله ما ندرى يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجننا به فقال له المأمون ما قصتك قال يا أمير المؤمنين امرأتى طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رأيتم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفل إن أحلّ صاحبه هذا الحل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال إبراهيم بن المهدي هبة لي وأحدثك بحديث عن نفسي في التطفل عجيب قال المأمون قد وهبته لك هات حديثك قال يا أمير المؤمنين خرجت يوماً متكرراً للتنزه فأنتهى بي المشي إلى موضع شمت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت فتأقت نفسي إليها ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضي فرفعت بصري وإذا بشباك ومن خلفه كفّ والمعصم ما رأيته أحسن منهما فوقفت حائراً ونسيت روائح الطعام بذلك الكفّ والمعصم وأخذت في إعمال الحيلة فإذا خياط من ذلك الموضع فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت لمن هذه الدار قال لرجل من التجار قلت ما أسمه قال فلان بن فلان فقلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس ينادم إلى التجار فبينما نحن في الكلام إذا أقبل رجلان نيلان راكبان فأعلمني أنهما أحص الناس بصحبته واعلمني بأسميهما فحركت دابتي فلقيتهما وقلت جعلت فداء كما قد استبطأكما أبو فلان وساررتكما حتى أتيا الباب فدخلت وخلا فلما رأي صاحب الدار معهما لم يشك أني منهما فرحب بي وأجلسني في أفضل المواضع ثم جيء بالمائدة فقلت في نفسي هذه الألوان قد من الله عليّ ببلوغ الغرض منها بقي الكفّ والمعصم ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فرأيت مجلساً محفوفاً باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بي ويقبل عليّ في الحديث لظنه أني ضيف لأضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا أقداحاً إذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الطرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتي بعود فأخذته وجسّته فإذا هي حاذقة واندفعت تقول:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمّني ... وإيك لا نخلو ولا نتكلم

سوى أعين تبدي سرائر أنفسي ... وتقطيع أنفاس على النار تُضرم

إشارة أفواه وغمز حواجب ... وتكسير أجفان وكفّ يُسلم

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي فطربت لحذقها وحسن شعرها الذي غنت به فحسدتها وقلت قد بقي عليك

يا جارية شيء فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء في مجالسكم فندمت على ما كان مني ورأيت القوم قد أنكروا عليّ ذلك فقلت في نفسي فاتني جميع ما أملت فقلت أثمّ عود قالوا نعم فأحضروا عوداً فأصلحت ما أرت فيه ثمّ أندفعت فغنيت:

هذا محبّك مطويّ على كمدّه ... صبّ مادامعه تجري على جسده
له يدّ تسأل الرحمن راحته ... مما به ويدّ أخرى على كبده
يا من رأى كلفاً مستبعداً دنفاً ... كانت منيته في عينه ويده

فوثبت الجارية فاكبت على رجلي تقبلها وقالت المعذرة إليك يا سيدي والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثمّ أخذ القوم في إكرامي وتبجيلي بعدما طربوا غاية الطرب وسألني كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فحملوا إلى منازلهم وبقي صاحب المنزل فشرّب معي أقداحاً ثمّ قال يا سيدي ذهب ما مضى من عمري مجاناً إذ لم أعرف مثلك فبالله يا مولاي من أنت لا أعرف نديمي الذي من الله عليّ به في هذه الليلة فأخذت أداري وهو يقسم عليّ فأعلمته فوثب قائماً وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل إلا لثلك ولقد أسدى إليّ الزمان يداً لا أقوم بشكرها ومتى طمعت أن تزروني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي وما هذا إلا في المنام فأقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بألطف معنى فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها وما سترت منها شيئاً ثمّ قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيّتي فقال والكف والمعصم إن شاء الله ثمّ قال يا فلانة قولي لفلانة تنزل ثمّ جعل يستدعي واحدة بعد واحدة يعرضها عليّ وأنا لا أرى صاحبتي إلى أن قال والله ما بقي إلا أُمّي وأختي ووالله لتنزلان فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداك تبدأ بالأخت قال حبا وكرامة ثمّ نزلت أخته فأراني يدها فإذا هي التي رأيتهما فقلت هذه الحاجة فأمر غلمانها لوقته فأحضروا الشهود وأحضروا بلرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة وأشهدكم إني قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا فدفع البدره الواحدة إلى أخته والأخرى فرقها على الشهود ثمّ قال يا سيدي أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك فاحشمني ما رأيت من كرمه وتذممت أن أدخلوا بها في داره ثمّ قلت بل أحضر عمارتي وأحملها إلى منزلي فقال افعل ما شئت فأحضرت عمارتي وحملتني إلى منزلي فوحدك يا أمير المؤمنين لقد حمل إليّ من الجهاز ما ضاقت عنه ييوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدي أمير المؤمنين فعجب المؤمنون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ما سمعت قط بمثلها وأمر إبراهيم بإحضار الرجل ليشاهده فأحضروه بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه.

ومن غريب المنقول إن فتى من ذوي النعم قعد به زمانه وكانت له جارية حسناء محسنةً في الغناء فضاق بهم الخناق واشتدّ بهما الحال في عدم ما يقتاتان به فقال لها قد ترين ما قد صرنا إليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتي وأنت معي أحسن وأهون عليّ مما أذكره لك فإن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك ويغسل عنك ما أنت فيه وأنفج أنا بما لعله يصير إليّ من الثمن ولعلك تحصيلين عند من تتوصلين إلى نفعي معه فقالت والله لموتي

على تلك الحالة معك أثر عندي من أنتقالي إلى غيرك ولو كان خليفة ولكن أصنع ما بدا لك قال: فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه أحد أصدقائه ممن له رأي أن يحملها إلى ابن معمر أمير العراق فحملها إليها فلما عرضت عليها استحسنتها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مالا كثيراً حتى صارت في رتبة الأستاذين قال أما ما أنفقت عليها فغير محتسب لك به لأنك أنفقت في لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رؤوس من الخيل وعشرة رؤوس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الأمير فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانة بإدخال الجارية إلى الحرم فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت:

هنيئاً لك المال الذي قد أفدته ... ولم تُبقِ في كَفِّي غير التفكير
أقولُ لنفسي وهي في كرباتها ... أقلِّي فقد بان الحبيبُ أو أكثري
إذا لم يكن للأمر عندك موضعٌ ... ولم تجدي بداً من الصبر فاصبري
فبكي مولاها وأجاب قائلاً:

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فأعذري
أروح بهم من فراقك موجع ... أناجي به قلباً قليل التصبر
عليك سلامي لا زيارة بيننا ... ولا قرب إلا أن يشاء ابنُ معمر
فقال له ابن معمر قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل إليك منها فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله.

ومما جنيته من ثمرات الأوراق أن الحجاج لما وليّ قتل عبد الله ابن الزبير رحل إلى عبد الملك بن مروان ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة وقال قلمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة وكمال المروءة والأدب وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القراة وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله فافعل بما يا أمير المؤمنين ما يستحق أي فعل بمثله في أبوته وشرفه فقال عبد الملك: يا أبا محمد أذكرتنا حقاً واجبا ائذنوا لإبراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس في صدر المجلس وقال له عبد الملك: إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته إلا سألته فقال إبراهيم أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان لله خالصاً ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها إياها قال أهي دون أبي محمد قال نعم: قال قم يا حجاج فنهض الحجاج خجلاً لا يبصر أين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق واصغائه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء المهاجرين والأنصار يسومهم الخسف ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ومن لا رؤية له في إقامة الحق ولا إزاحة الباطل قال فاطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال: كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك قم فربما ظن الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما أبصر طريقاً قال وأتبعني حرسياً وقال أشدد

به قال إبراهيم فما زلت جالساً حتى دعا الحجاج فما زالاً يتناحيان طويلاً حتى ساء ظني ولا أشك أنه في أمري ثم دعا بي فلقيني الحجاج في الصحن خارجاً فقبل بين عيني وقال أحسن الله جزاءك. فقلت في نفسي إنه يهزأ بي ودخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الول ثم قال يا ابن طلحة هل اطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت إلا الله ورسوله والمسلمين وأمير المؤمنين علم ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته لهما وأعلمته أنك استقللت ذلك عليه وسألتني له ولاية كبيرة ولقد وليته العراقين وقررت له أن ذلك بسؤالك ليلزمه من حقك ما لا بد له من القيام به فأخرج معه غير دأّم لصحبته.

ومن لطائف المنقول عن القاضي أبي الحسين بن عبد الحسن بن علي التوحي رحمه الله تعالى أن الاسكندر لما انتهى إلى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال إن رأى الملك أن يخلي مجلسه فليفعل فأمر الإسكندر من يخدمه بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له الرسول الذي جئت به لا يجمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شيء ن السلاح فوضع الإسكندر بين يديه سيفاً مجرداً وقال له قل ما نشت ثم أخرج جميع من عنده فلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسالك عما تريد فإن كان مما يمكن الانقياد إليه ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه وغنيت أنا وأنت عن الحرب فقال له الإسكندر وما الذي أمنك مني: قال علمي بأنك رجل عاقل وليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بدخل ومتى قتلني أقلموا غيري ولم يسلموا إليك البلد ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضد الحرم فأطرق الاسكندر متفكراً في مقاله وعلم أنه رجل عاقل فقال له أريد ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاعه في كل سنة قال أجبتك قال فكيف تكون حالك قال أكون قتيلاً أو محارباً قال فإن قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال أصلح مما تقدم ذكره قال فإن قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون مضراً بين ومذهبا لجميع لذاقي قال فإن اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفراً والباقي لجيشي ولأسباب الملك قال: قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف، فلما أصبحت وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الأرض واختلط بجيش الإسكندر فارتعب وتواثب أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك إذ ظهر ملك الصين وعليه التاج فلما رأى الإسكندر ترجل فقال له الإسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال أردت أن أعلمك أي لم أطلعك من ضعف ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكني رأيت العالم الكبير مقبلاً عليك ممكناً لك فعلمت أنه من حارب العالم الأكبر غلب فأردت طاعته بطاعتك والذلة لأمره بالذلة لأمرك فقال الإسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شيء فما رأيت بين وبينك أحداً يستحق التفضيل والوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين أما إذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر اتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه.

ومن غريب المنقول عن أبي الفرج الأصبهاني أنه قال أخبرني عمي عن أبيه عن الكلبي عن أبيه قال أخبرني شيخ من بني نبهان قال أصابت بني نبهان سنة ذهبت بالأموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا قريبا من الملك يصيبكم من خيرته حتى أرجع إليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام حتى انتهى إلى عطن إبل عند تطفيل الشمس فإذا خباء عظيم وقبة من آدم قال فقلت في نفسي ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من ابل فنظرت في الخباء فإذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس لم أر أعظم من شكله وفي خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه وإذا مائة من الإبل معها فحلها فبرك الفحل وبركن حوله فقال لأحد عبيده احلب فلان فحلها ثم وضع اللبن بين يدي الشيخ فكرع منه وأخذ وقدمه إلي فشربت نصفه ثم أمر بشاة فذبحت وشويت وأكلنا منها جميعاً فأملهت حتى إذا ناموا وحكم عليهم النوم ثرت إلى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بي وتبعته الإبل فمشيت إلى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا ولما تعالى النهار التفت فإذا أنا بخيال كأنه طائر فما زال يدنو تى تبينته فإذا هو فارس على فرس وإذا هو صاحبي بالامس فعقلت الفحل وعمدت إلى كناتي فقال: إحلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفي عيالا جيعاً بالخيرة قال فإنك ميت حل عقاله لا أم لك وانصب علي خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لي أين تحب أن أضع سهمي فقلت في هذا الموضع فكأنا وضعها بيده ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلي وحططت قوسي ووقفت مستسلما فدنا مني وأخذ القوس والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف أي الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم فقال كيف ظنك بي فقلت أحسن ظن فقال أبشر إنه لن ينالك شر وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلما انتهينا إلى منزله قال لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها إليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عندي فأقامت عنده أياما فشن الغارة على بني نمير فأصاب مائة بعير فقال هذه أحب إليك أم تلك قلت هذه قال دونكها وبعث معي خفراء من ماء إلى ماء إلى أن وردت الحيرة فلقيني نبطي فقال يا أعرابي احتفظ بابلك فقد قرب مخرج النبي صلى الله عليه وسلم الذي يملك هذه الأرض ويطرد أهلها حتى أن أحداكم لبيتاع البستان بثمن بعير قال فاحتملت بأهلي إلى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا على يديه وما مضت إلا أيام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلي بستانا بالخيرة والله أعلم.

ونقل عن الواقدي قال كان لي صديقان أحدهما هاشمي والآخر نبطي فكنا في الصداقة كنفس واحدة ففانني ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي أما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطع قلبي عليهم رحمة لأنهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا في عيدهم وهم فرحون ولا بأس بالاحتفال فيما نصرفه في كسوتهم قال فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ بشيء فوجه إليّ كيسا فيه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب إليّ صديقي الآخر يشكو إلى مثل ما شكوته إلى الهاشمي فوجهت إليه بالكيس على حاله وخرجت إلى المسجد وأنا مستح من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنني لعلمها بالحال فبينما أنا كذلك إذ أقبل صديقي الهاشمي ومعه الكيس بختمه فقال أصدقني عما فعلته فيما وجهت به إليك فاعلمته بالخبر فقال إنك وجهت به إليّ ولا أملك إلا ما بعثت به إليك وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إليّ

كيس بختمه فاخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثا ونما الخبر إلى المأمون فاحضرني وسألني عن الخبر فشرحته له فأمر لنا بسبعة آلاف دينار منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا.

ويضارع ذلك ما هو منقول عن الأصمعي قال قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعني من الدخول إليه ثم قال والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لركة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ ... فما فضل الكريم على اللئيم
ثم قلت له أوصل رقعتي إليه ففعل وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها:
إذا كان الكريم قليل مالٍ ... تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رأي قال من أين يا أصمعي قلت من عند رجل أكرم الأحياء حاشى أمير المؤمنين قال ومن هو فدفعت إليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذا من بيت مالي ولا بد لي من الرجل فقلت والله يا أمير المؤمنين إني أستحي أن أروعه برسلك فقال لبعض خاصته امض مع الأصمعي فإذا أراك الرجل قل له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له أما أنت الذي وقعت بالامس وشكوت رقعة الحال وأن الزمان قد أناخ عليك بكلك فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الأصمعي بيت واحد فدفعها إليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيما شكوت لأمر المؤمنين من رقعة الحال لكن استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلى كما أعادني أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ في إكرامه وجعله من جملة ندمائه.

ومن لطائف المنقول ما هو منقول عن الربيع إنه قال ما رأيته رجلا أثبت ولا أربط جأشا من رجل رفع إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرتة ودخلت به إليه فقال له المنصور قد رفع إلينا الودائع والأموال التي لبني أمية عندك فأخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية قال لا، قال فوصي قال لا، قال فما سؤالك عما في يدي من ذلك قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت ما لهم فقال يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك إلى إقامة البينة العادلة على أن الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فإن بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إلي وقال صدق الرجل يا ربيع ما وجب عليه عندنا شيء ثم بش في وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم يا أمير المؤمنين حاجتي أن تنقذ كتابي مع البريد إلى أهلي ليسكنوا إلى سلامتي فقد راعهم اشخاصي وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين قال ما هي قال تجمع بيني وبين من سعى بي إليك فوالله ما لبني أمية عندي ولا في يدي وديعة ولكني لما مثلت بين يديك وسألني رأيت ما قلته أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامي ضرب على ثلاثة آلاف من مالي وابق فشدد المنصور على الغلام فأقر أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره

وأبقى منه وكذب عليه خوفا من الوقوع في يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وأبرأته من المال وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى فقال المنصور ما على ما فعلت مزيد في الكرم قال بلى يا أمير المؤمنين هذا حق كلامك وانصرف وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول ما رأيت مثل هذا الرجل يا ربيع.

رحلة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال الشيخ الإمام العالم المقرّي أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الأردبيلي المالكي بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشي سنة ثلاثين وخمسمائة أخبرنا الشريف القاضي الموسوي أبو إسماعيل موسى بن الحسي بن إسماعيل بن علي الحسيني المقرّي في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال أخبرنا الشيخ أبو العباس حمد بن إبراهيم الفارسي في ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وأربعمائة قال أخبرنا يحيى بن عبد الله الرجل الصالح ويحيى ابن موسى المعدل بمصر قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصري الكرازة قال حدثني أبو الفرج عبد الرزاق حمدان البطين قال حدثني أبو بكر محمد بن المثني قال حدثني الربيع بن سليمان قال سمعت الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: فارقت مكة وأنا ابن أربعة عشرة سنة لا نبات بعارضي من الأبطح إلى ذي طوى وعليّ بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا علي السلام ووثب إليّ شيخ كان فيهم قال سألتك بالله إلا ما حضرت طعامنا قال الشافعي رضي الله عنه ما كنت أعلم أنهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس ويدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر إلي ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثيت عليه فأقبل عليّ الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكّي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت يا عم بم استدلت عليّ قال أما في الحضر فبالزّي وأما في النسب فأكل الطعام لأنه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد بني أصبح مالك ابن أنس رضي الله تعالى عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت واشوقاه إلى مالك فقال لي قد بل الله شوقك أنظر إلى هذا البعير الاورق فإنه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل إلى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها وأركبوني البعير الاورق وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فحتمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنوت من القبر فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزرا ببردة متوشحا بأخرى قال حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شافعي رضي الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملت مالك حديثا كتبته بريقي على يدي والإمام مالك رضي الله عنه ينظر إلي من حيث لا

أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرتي مالك أن أنصرف فلم يرني انصرفت فأشار إلي فدنوت منه فنظر إلي ساعة ثم قال أحرمي أنت قلت حرمي قال أمكي أنت قلت مكى قال أقرشي أنت قلت قرشي قال كملت أوصافك لكن فيك إساءة أدب قلت وما الذي رأيت من سوء أدبي قال رأيتك وأنا أملي ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يديك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدي إليه فقال ما أرى عليها شيئاً فقلت إن الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته إلى حين قطعت فتعجب الإمام مالك من ذلك فقال أعد عليّ ولو حديثاً واحداً. قال الشافعي رضي الله عنه فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثاً حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه.

قال الشافعي رحمه الله فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء. قال الشافعي رضي الله عنه فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقاً فوضعه من يده وسلم الإمام عليّ ثم قال للعبد اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الاناء وأراد أن يغسل عليّ أولاً فصاح عليه مالك قال الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي رضي الله عنه فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال أنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يتدبّر بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه. قال الشافعي رضي الله عنه فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحدهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعي رضي الله عنه فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال حكم المسافر أن يقل تعبهُ بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليّ مالك الباب فقال لي الصلاة يرحمك الله فرأيتُه حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليّ ذلك فقال لي لا يرعك ما رأيته فخدمته الضيف فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضاً من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضي الله عنه فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أننا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع

الموطأ. قال الشافعي فأملت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وأبن القاسم قال الربيع وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم. قال الشافعي رضي الله عنه فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال العراق فقلت أي العراق فقال لي الكوفة فقلت من العالم بما والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحباً أبي حنيفة رضي الله عنه.

وقال الشافعي رضي الله عنه فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لي في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي: العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه.

قال الشافعي رضي الله عنه فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعاً إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شيء فقال لي انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفعت لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكتري لي بأربعة دنائير ودفعت إليّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاماً قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقممت إليه ناصحاً فقلت له أحسن صلاتك لثلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليّ صلاتي قط وخرج معجبا بفيض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف باب المسجد فقال أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا اللهم لا قال ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب إليه فقل له بم تحل في الصلاة.

قال الشافعي رضي الله عنه فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة فقلت بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلمتا أنه جواب من نظر في العلم فقالا اذهب إليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتي إليّ فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليّ أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالوا اذهب إليه وقل له أجب الشيخين.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إليّ فلما سلما عليّ قمت عليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال أحرمي أنت فقلت نعم فقال أعربي أم مولى فقلت عربي فقال من أي العرب فقلت من ولد المطلب قال من ولد من قلت

من ولد شافع قال رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسألة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع إليّ الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي رضي الله عنه فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليّ الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبد خذ سيدك إليك. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألتني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكبا. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له قدم فقدم إلي بغلة بسرجه محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي باطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال لا يروعك يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرّ بها الصديق وأكبت بها العدو.

قال الشافعي رضي الله عنه فما بت حتى كساني محمد بن الحسن خلعة بألف درهم ثم دخل خزانته فأخرج إليّ الكتاب الأوسط تأليف الإمام أبي حنيفة فطرت في أوله وفي آخره ثم ابتدأت الكتاب في ليلتي أتخفظه فما أصبحت إلا وقد حفظته ومحمد بن الحسن لا يعلم بشيء من ذلك وكان المشهور بالكوفة بالفتوى وانجيب في النوازل فبينما أنا قاعد عن يمينه في بعض الأيام إذ سئل عن مسألة أجاب فيها وقال هكذا قال أبو حنيفة فقلت قد وهمت في الجواب في هذه المسئلة والجواب عن قول الرجل كذا وكذا وهذا المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية في الكتاب. فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فأحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه إلى ما قلت ولم يخرج إلي كتاباً بعد هذا.

قال الشافعي واستأذنته في الرحيل فقال ما كنت لأذن لصيف بالرحيل عني وبذل لي في مشاطرة نعمته فقلت ما لذا قصدت ولا لذا أردت ولا رغبتي إلى في السفر قال فأمر غلامه أن يأتي بكل ما في خزانته من بيضاء وحمراء فدفع إلي ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن إحدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق في خلافة هارون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بي غلام فلاتفني وقال لي ما أسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن إدريس الشافعي فقال مطلبي فقلت أجل فكتب ذلك في لوح كان في كفه وخلى سبيلي فأويت في بعض المساجد أفكر في عاقبة ما فعل حتى إذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد واقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا إلي فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة ثم أقبلوا علي وقالوا أجب أمير المؤمنين فقممت غير ممتنع فلما بصرت بأمر المؤمنين سلمت عليه سلاماً بينا فأستحسن الألفاظ ورد عليّ الجواب ثم قال ترعم أنك من بني هاشم فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم في كتاب الله باطل فقال ابن لي عن نسبك

فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لي الرشيد ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة إلا في رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمك وكمي على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واجتمعت عليه الأمة فقلت يا أمير المؤمنين لو سألتني أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبداً فبكى الرشيد وقال تقبل من عرض الدنيا شيء قلت يكون معجلاً فأمر لي بألف دينار فما برحت من مقامي حتى قبضتها ثم سألتني بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صليتي فلم تسع المروءة إن كنت مسؤولاً غير المقاسمة فيما أنعم الله به علي فخرج لي قسم كأقسامهم ثم عدت إلى المسجد الذي كنت فيه في ليلتي فتقدم يصلي بنا غلام صلاة الفجر في جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج فقلت له بعد السلام أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعاً وأعدنا ثم قلت له أحضر بياضاً أعمل لك باب السهو في الصلاة والخروج منها فسارع إلى ذلك ففتح الله عز وجل عليّ فألقت له كتاباً من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزءاً يعرف بكتاب الزعفران وهو الذي وضعته بالعراق حتى تكامل في ثلاث سنين وولاني الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى في قبته فلما أشرت إليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار إليّ بالكلام فسألته عن الإمام مالك وعن الحجاز أجاب بخير ثم عاودته إلى السؤال عن مالك فقال لي أشرح لك أو أختصر قلت في الاختصار البلاغة فقال في صحة جسم وله ثلثمائة جارية يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود إليه إلى سنة فقد اختصرت لك خبره.

قال الشافعي رضي الله عنه فاشتبهت أن أراه في حال غناه كما رأيته في حال فقره فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال إنك لتوحشني خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالي فيه لك فقلت له فيم تعيش قال بالجاه ثم نظر إليّ وحكماني في ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيته حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسي شعناً فدعوت المزين فلما بدأ برأسي وأخذ القليل من شعري دخل قوم من أعيان البلد فدعوه إلى خدمتهم فسارع إليهم وتركني فلما قضوا ما أرادوا منه عاد إليّ فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت إليه أكثر ما كان معي من الدنانير وقلت له خذ هذه وإذا وقف بك غريب لا تحتقره فنظر لي متعجباً فاجتمع بعض من كان في الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابي لهم فأنحدر عن البلغة بعد أن استوى عليها وقال لي أنت الشافعي فقلت نعم فمد الركاب مما يليني وقال بحق الله اركب ومضى بي الغلام مطرقاً بين يدي حتى أتيت إلى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت في منزله فأظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمي وحبست يدي فقال مالك يا عبد الله فقلت له طعامك حرام عليّ حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال أنا ممن سمع منك الكتاب الذي وضعته ببغداد وأنت لي أستاذ.

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصله فأكلت بفرحة إذ لم يعرف الله تعالى إلا

بيني وبين أبناء جنسي وأقيمت ضيفه ثلاثاً فلما كان بعد ثلاثاً قال: إن لي حول حرّان أربع ضياع ما بحرّان أحسن منها أشهد الله أن اخترت المقام فإنها هدية مني إليك فقلت فيم تعيش قال بما في صناديقي تلك وأشار إليها وهي أربعون ألف درهم وقال أتجرهما فقلت ليس إلى هذا قصدت ولا خرجت من بلدي لغبر طلب العلم فقال لي فالمال إذا من شأن المسافرين فقبضت الأربعين ألفاً وودعته وخرجت من مدينة حرّان وبين يديّ أحمال ثم تلقاني الرجال وأصحاب الحديث منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعي فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معي إلا عشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل إلى منهل حتى وصلت إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوماً بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيًا من الحديد عليه محدة من قباطي مصر مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشافعي رضي الله عنه وحوله أربعمائة دفتر أو يزدن وبينما أنا كذلك إذ رأيت مالك بن أنس رضي الله عنه قد دخل من باب النبي صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره في المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذبوله منهم أربعة فلما وصل قام إليه من كان قاعداً وجلس على الكرسي فألقى مسئلة في جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعني الصبر فقممت قائماً في سور الحلقة فرأيت إنساناً فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فأضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالقوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل بإصابته فلما ألقى السؤال الثاني أقبل عليّ الجاهل يطلب من الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت إليه مالك فأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالقوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل.

قال الشافعي رضي الله عنه فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فأعرض مالك عنه وأقبل على أصحابه فخالقوا فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل أدخل ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك فراءة قرأت الموطأ قال لا قال فنظرت ابن جريح قال لا قال فلقيت جعفر بن محمد الصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال إلى جانبي غلام شاب يقول لي قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول، قال فالتفت مالك والفت الناس بأعناقهم لالتفات مالك رضي الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك بالدخول إلينا.

قال الشافعي رضي الله عنه فدخلت فإذا أنا من مالك بالموضع الذي كان الجاهل فيه جالساً بين يديه فتأملني ساعة وقال أنت الشافعي فقلت نعم فضممني إلى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذي نحن فيه حتى ننصرف إلى المنزل الذي هو لك، المنسوب إليّ.

قال الشافعي رضي الله عنه فألقيت أربعمائة مسئلة في جراح العمد فما أجابني أحد بجواب واحتجت إلى أن آتي بأربعمائة جواب فقلت الأول كذا وكذا والثاني كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيد إليّ فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال مم بكأوك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعث الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر

والهدايا تحيي من أقاصي الدنيا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويرد الصدقة وإن لي ثلثمائة خلعة من زي خراسان وقباطي مصر وعندي عبيد بمثابة لم تستكمل الحلم فهم هدية مني إليك وفي صناديقي تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك مني نصفها قلت إنك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما وعدتني به إلا تحت خاتمي ليجري ملكي عليه فإن حضرتني أجلي كان لورثتي دون ورثتك وإن حضرك أجلك كان لي دون ورثتك فتبسم في وجهي وقال أبيت إلا العلم فقلت لا يستعمل أحسن منه وما بت إلا وجميع ما وعدني به تحت خاتمي فلما كان في غداة غد صليت الفجر في جماعة وانصرفت إلى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده في يد صاحبه إذ رأيت كراعاً على بابه من جواد خراسان وبغلاً من مصر فقلت له ما رأيت أحسن من هذا فقال هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت له دع لك منها دابة فقال إني أستحي من الله أن أطأ فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة.

قال الشافعي رضي الله عنه فعلت أن ورع الإمام مالك باق على حاله فأقمت عنده ثلاثاً ثم ارتحلت إلى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبري فلما وصلت إلى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتني إلى صلرها وضممتني بعدها عجوز كت آلفها أدعوها خالتي وقالت: ليس أمك اجتاحت المنايا ... كل فؤادٍ عليك أم

قال الشافعي رضي الله عنه وهي أول كلمة سمعتها في الحجاز من امرأة فلما هممت بالدخول قالت لي العجوز إلى أين عزمت فقلت إلى المنزل فقالت هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيراً وتعود إليها مترفاً تفخر على بني عمك بذلك فقلت ما أصنع فقالت ناد بالأبطح في العرب ياشباع الجائع وحمل المنقطع وكسوة العراة فتربح ثناء الدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت به وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل وبلغ ذلك مالكا فبعث إليّ يستحثني على الفعل ويعلني أنه يحمل إليّ في كل عام مثل ما صار إليّ منه وما دخلت إلى مكة وأنا أقدر على شيء مما جاء معي إلى على بغلة واحدة وخمسين ديناراً فوقعت المقرعة فناولتني إياها أمة على كتفها قرية فأخرجت لها خمسة دنائير فقالت له العجوز ما أنت صانع فقلت أجيزها على فعلها لها خمسة دنائير فقالت لي العجوز ما أنت صانع فقلت أجيزها على فعلها فقالت أدفع إليها جميع ما تأخر معك قال فدفعت إليها ودخلت إلى مكة فما بت تلك الليلة إلا مديونا وأقام مالك رضي الله عنه يحمل إليّ في كل عام مثل ما كان دفع إليّ أولاً إحدى عشرة سنة فلما مات ضاق بي الحجاز وخرجت إلى مصر فعوضني الله عبد الله بن عبد الحكيم فقام بالكلفة فهذا جميع ما لقيته في سفري فإفهم ذلك يا ربيع قال الربيع وسألني المزني املاء ذلك بحضرته فما وجدنا للمجلس فرغة فما وقع كتاب السفر إلى أحد غيري.

ومن لطائف المنقول ما نقله القرطبي في كتابه المسمى بالأعلام عن صدق محبة أبي طالب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته فقام عبد الله بن الزبيري فأخذ فرثاً ورماه فلطخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم فانتقل النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته وأتى إلى أبي طالب عمه وقال يا عم ألا ترى ما فعل بي فقال له أبو طالب من فعل بك هذا فقال

النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن الزبيرى فقام أبو طالب فوضع سيفه على عاتقه ومشى حتى أتى القوم فلما رأوه قد أقبل فمضوا له فقال أبو طالب والله إن قام رجل جللته بسيفي هذا ثم قال يا بني من الفاعل بك هذا فقال عبد الله بن الزبيرى فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول فترلت هذه الآية الشريفة وهم ينهون عنه وينأون عنه فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا عم نزلت فيك آية قال وما هي تمنع قريشا أن يأذوني وتأبى أن تؤمني بي فقال أبو طالب

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لأمرك قد زعمتك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت ديناً قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذلك يقينا

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هي تنفع نصرة أبي طالب قال نعم رفع عنه بذلك الفعل إنه لم يقرن مع الشياطين ولم يدخل جب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعين من نار في رجليه يغلي منها دماغه وهو أهو أهل النار عذاباً. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب قل لا إله إلا الله أشهد لك بما يوم القيامة فقال أبو طالب لولا أن يعابروني بما يعني قريشاً يقولون إنما حمله الجزع لأقررت بما عينك فأنزل الله تعالى إنك لا تهدي من أحيت ولكن الله يهدي من يشاء.

وأما عبد الله بن الزبيرى فإنه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه واعتذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقبل عذره وكان شاعراً مجيداً فقال بمدح النبى صلى الله عليه وسلم بأبيات منها في حكاية حاله:
إني لمعتذرٌ إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال مقيم
فاعفر فداؤك والديّ كلاهما ... وأرحم فإنك راحمٌ مرحوم

ومن غريب ما نقله القرطبي في الأعلام أن الأنصار الذين نصرُوا النبى صلى الله عليه وسلم كانوا من أولاد العلماء والحكماء الذين كانوا مع تبع الأول فيما ذكر ابن اسحق وكان تبع من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها وكان كثير الوزراء فاخترُوا واحداً منهم وأخرجوه معه لينظر في ملكه فكان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل ثم الذين اختارهم من البلدان وهذا القدر غير محسوب من الجيش فلما انتهى إلى مكة لم تخضع له أهل مكة كخضوع أهل البلاد ولم تعظمه فغضب لذلك ودعا وزيره وكان اسمه عمارياً فقال له كيف شاهدت هذه البلد فإنهم لم يهابوني ولم يخشوا عسكري فقال إنهم عرب لا يعرفون شيئاً ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به ويسجدون فيه للأصنام قال فنزل الملك بعسكره يطحاه مكة وعزم على هدم البيت وقتل الرجال وسبي النساء فأخذه الله بالصداع وتفجر من عينيه وأذنيه ومنخريه وفمه ماء منقن فلم يصبر عنده أحد طرفه عين من نتن الريح فاستيقظ لذلك وقال لوزيره أجمع العلماء والحكماء والأطباء وتكلم معهم في أمري فاجتمع عنده العلماء والحكماء والأطباء فلم يقدروا على الجلوس عنده ساعة وعجزوا عن مداواته وقالوا نحن نقدر على مداواة

ما يعرض من أمور الأرض وهذا شيء من السماء لا نستطيع له رداً ثم اشتد أمره ونفرت الناس عنه ولم يزل أمره في شدة حتى أقبل الليل فجاء أحد العلماء إلى وزيره فقال له إن بيني وبينك سرّاً وهو إن كان الملك يصدقني في حديثه عاجلته فاستبشر الوزير بذلك وقال له قل ما شئت فقال أريد الخلوة فأخلي له المكان فلما خلا مجلس الملك قال له العالم أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوء قال نعم نويت خرابه وقتل رجاله وسبي نسائه فقال له العالم أيها الملك هذه النية هي التي أحدثت لك هذا الداء ورب هذا البيت قادر يعلم الأسرار فبادر وأخرج من قلبك ما هممت به من أمر هذا البيت وأهله ولك خير الدنيا والآخرة قال الملك قد أخرجت ذلك من قلبي ونويت لهذا البيت المبارك ولأهله كل خير فلم يخرج العالم من عنده حتى برىء من علته وعافاه الله تعالى بقدرته فأمن بالله من ساعته وخلع على الكعبة سبعة أثواب وهو أول من كسار الكعبة وخرج إلى يثرب وهي يومئذ بقعة فيها عين ماء ليس فيها بيت فنزل على رأس العين هو وعسكره وجميع العلماء الذين كانوا معه ومعهم رئيسهم عماريا الذي يرى الملك برأيه ثم إن العلماء والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمئة وهم أعلمهم وبايع كل واحد منهم صاحبه أن لا يخرجوا من ذلك المقام ون قتلهم الملك فلما علم الملك بما عزموا عليه قال للوزير ما شأنهم يمتنعون عن الخروج معي وأنا محتاج إليهم وإي حكمة أقضت نزولهم في هذا المكان واختيارهم إياه على سائر النواحي فسألهم الوزير عن ذلك فقالوا أيها الوزير إن ذلك البيت وهذه البقعة التي نحن فيها يشرفان برجل يبعث في آخر الزمان يقال له محمد ووصفوه له ثم قالوا طوبى لمن أدركه وآمن به ونحن على رجاء أن ندركه أو تدركه أولادنا فلما سمع الوزير مقالتهم هم بالمقام معهم فلما جاء وقت الرحيل أمرهم الملك أن يرتحلوا فقالوا لا نفعل وقد أعلمنا الوزير بحكمة مقامنا فدعا بالوزير فأخبره بما سمع منهم ففكر الملك وهم أن يقيم معهم رجاء أن يدرك محمداً صلى الله عليه وسلم فأقام وأمر الناس أن يبنوا أربعمئة دار على عدة العلماء والحكماء واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوجها برجل منهم وأعطى كل واحد عطاء جزيلاً وأمرهم أن يقيموا في ذلك المكان إلى أن يجيء زمان النبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب الكتاب وختمه بخاتم من ذهب ودفعه إلى عالمهم الكبير وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد صلى الله عليه وسلم إن أدركه وإلا فيوصي به أولاده مثل ما أوصاه به وكذلك الأولاد حتى يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الكتاب، أما بعد فإن آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك وأنا على دينك وستنك وآمنت بربك وبكل ما جاء من ربك من شرائع الإيمان والإسلام فإن أدركتك فيها نعمت وإلا فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة فإن من أمتك الأولين وقد بايعتك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم عليه السلام ثم ختم الكتاب وقش عليه الله الأمر من قبل ومن بعد وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد الله ونبي الله ورسوله وخاتم النبيين

ورسول رب العالمي صلى الله عليه وسلم من تبع الأول الحميري ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذي أبرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تريد ولا تنقص وكانت الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبي أيوب وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تبعاً برأيه ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر خبره قبل أبو ليلى وكان من الأنصار فدفعوا الكتاب إليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلة بني سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبو ليلى قال نعم ومعك كتاب تبع الأول قال نعم فبقي أبو ليلى متفكراً وقال في نفسه إن هذا من العجائب ثم قال له أبو ليلى من أنت فأني لست أعرفك وتوهم أنه ساحر وقال في وجهك أثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى علي كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم. رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم من تبع الأول الحميري ودفع الكتاب إلى الرجل العالم الذي أبرأه من علته وسار تبع من يثرب حتى وصل إلى بلاد الهند فمات بها وكان من اليوم الذي مات فيه تبع إلى اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ألف سنة لا تزيد ولا تنقص وكانت الأنصار الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أولاد أولئك العلماء والحكماء فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سأله أهل القبائل أن ينزل عليهم فكانوا يعلقون بناقته وهو يقول خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى جاءت إلى دار أبي أيوب وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تبعاً برأيه ثم استشار الأنصار عبد الرحمن بن عوف في إيصال الكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولما ظهر خبره قبل أبو ليلى وكان من الأنصار فدفعوا الكتاب إليه وأوصوه بحفظه فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في قبيلة بني سليم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه وقال أنت أبو ليلى قال نعم ومعك كتاب تبع الأول قال نعم فبقي أبو ليلى متفكراً وقال في نفسه إن هذا من العجائب ثم قال له أبو ليلى من أنت فأني لست أعرفك وتوهم أنه ساحر وقال في وجهك أثر السحر فقال له بل أنا محمد رسول الله هات الكتاب فأخرجه ودفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه إلى علي كرم الله وجهه فقرأه عليه فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام تبع قال مرحباً بالأخ الصالح ثلاث مرات ثم أمر أبا ليلى بالرجوع إلى المدينة ليبشرهم بقدومه عليهم. وقال أبو عبد الله من محمد القرطبي نور الله ضريحه ما ذكرت هذا الخبر وإن كان فيه طول إلا لما احتوى عليه من فضل مكة والمدينة والتصديق بنبوته النبي صلى الله عليه وسلم قبل أيجاده بالف عام. ومن لطائف ما نقلته من كتاب الاعلام للقرطبي ما أورده من مسند أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل إذا تداينتهم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلى آخر الآية إن أول من جحد الدين آدم عليه السلام لأنه لما أراه الله تعالى ذريته رأى فيهم رجلاً أزهق ساطع النور فقال يا رب من هذا قال ابنك داود قال يا رب فما عمره قال ستون سنة قال يا رب زد في عمره قال لا إلا أن تزيد من عمرك قال وما عمري قال ألف سنة قال آدم فقد وهبته أربعين سنة قال فكتب الله عليه

كتاباً وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة قال بقي من عمري أربعين سنة فقيل له قد وهبتها لابنك داود قال ما وهبت لأحد شيئاً فأخرج الله ذلك الكتاب وفيه شهادة الملائكة.

وفي رواية إن الله جل جلاله أتم لداود مائة سنة ولآدم ألف سنة أخرجه الترمذي بمعناه وصححه وفيه فقال عليه الصلاة والسلام نسي آدم فنسيت ذريته ووجد آدم فجحدت ذريته والله أعلم. ومن لطائف الغرائب المنقولة من كتاب الأعلام للقرطبي أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات على قافية بديعة أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم منها قوله:

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضأت بنورك الأفق

فحنن في ذلك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نخرق

فقال يا عم لكل شاعر جائزة وجائزتك إن الخلافة في عقبك إلى يوم القيامة.

ومن غرائب التفسير ما نقلته من الأعلام أن في قوله تعالى ووجدك ضالاً فهدى أقوالاً ذكرت في أحكام مخارج القرآن أحسنها ما ذكره بعض المتكلمين إن العرب كانت إذا وجدت شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيهدى بها على الطريق فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالاً فهدى أي وجدتك لا أحد على دينك فهديت بك الخلق إلي.

قلت قد تقدم الكلام في سعادة العباس ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وما نال بالإسلام من العز قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الخلافة في عقبك إلى يوم القيامة وتقدم ذكر شقوة عمه أبي طالب بالشرك مع حمايته ورعايته لجانب النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي تقدم قوله مشيراً إلى قريش في خطابه إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

قال السهيلي نور الله ضريحه في الروض الأنف هذا من باب النظر في حكمة الله.

ونقل في الروض الأنف أيضاً عن هشام بن السائب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع وجوه قريش وقال لهم إنكم صفوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد المطاع وفيكم المتقدم الشجاع والواسع الباع لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ولا شرفاً إلا أدر كنموه فلكم على الناس بذلك الفضيلة ولهم به إليكم والوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم ألب وإني أوصيكم بعظيم هذه البنية فإن فيها في صلة الرحم منسأة في الأجل وزيادة في العدد واتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا الداعي وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام وأنا أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصدیق في العرب وهو جامع لكل ما أوصيكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا ودورها خراباً وضعفاؤها أرباباً وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم من أحظاهم عنده أصغت ودادها وأصغت له فؤادها وأعطته قيادها

دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم كونوا له ولاة ولحزبه حماه ووالله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي ثم هلك.

ومن شهى المجتنى من ثمرات الأوراق ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مر على طائفة بالمدينة أيام خلافته فإذا بجارية تبكي وتقول:

وهويته من قبل قطع تمائي ... متناشياً مثل القضيبي الناعم

فكأن نور البدر سنّة وجهه ... يمشي ويصعد من ذؤابة هاشم

فقرع الباب فخرجت إليه فقال لها أحرّة أنت أم أمة فقالت بل أمة يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هويت فبكرت وقالت بحق صاحب هذا القبر إلا انصرفت عني فقال لست بمنصرف من مكاني حتى تعلميني وتقول لي فقالت:

إن الذي عمل الفراق بقلبيها ... فبكت بحبّ محمد بن القاسم

فسار أبو بكر رضي الله عنه إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه وبعث بها إلى علي ابن القاسم بن جعفر بن أبي طالب عفي عنه.

ومن مناقب الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في فتح بيت المقدس إن المسلمين تكامل لهم فتوح الشام فأقلموا على دمشق شهراً فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين واستشارهم في المسير إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس فقال له معاذ بن جبل أيها الأمير أكتب لأمر المؤمنين عمر فحيث أمرك أمثله قال له أصبت الرأي يا معاذ ثم كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه بذلك وأرسل الكتاب إلى عرفجة بن ناصح النخعي فسار حتى وصل المدينة فسلم الكتاب إلى عمر رضي الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم فقال علي رضي الله تعالى عنه يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس فإذا فتح الله بيت المقدس صرف وجهه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر صدق المصطفى صلى الله عليه وسلم وصدقت يا أبا الحسن ثم دعا بدواة وبياض وكتب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه وقد وصلني كتابك تستشيرني إلى أي ناحية تتوجه وقد أشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسير إلى بيت المقدس فإن الله يفتحها على يدك والسلام فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدمه الجيش إلى بيت المقدس وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح لعدم الخوف فلما كان يوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عن يساره فضج الناس ضجة عظيمة بالتهليل والتكبير فوق الرعب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمامة وهي البيعة المعظمة عندهم فلما وقفوا بين يدي البطرك قال لهم ما هذه الضجة التي أسمع قالوا يا أبانا قد قدم أمير المؤمنين ببقية المسلمين فلما سمع البطرك منهم ذلك انحطف لونه وتغير وجهه وقال أنا وجدنا في علمنا الذي ورثناه إن الذي يفتح الأرض هو الرجل

الأحمر صاحب نبينهم محمد فإن كان قدم عليكم فلا سبيل إلى قتاله ولا بد أن أشرف عليه وأنظر إلى صفته فإن كان هو أجبته إلى ما يريد وإن كان غيره فلا بأس عليكم ثم وثب قائماً والقسس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصليب على رأسه فصعدوا إلى السور إلى أن ورد أبو عبيدة رضي الله عنه فناداهم رجل من الروم ياذن البطرك يا معاشر المسلمين كفوا على القتال حتى نسألكم فأمسك المسلمون عنهم فناداهم الرجل بلسان عربي أعلموا أن الرجل الذي يفتح بلدتنا هذه وجميع الأرض صفته عندنا فإن كانت في أميركم لم نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم تكن هذه صفته فلا نسلم إليكم أبداً فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم فظفر البطرك وحقق صوته فقال ليس هو الرجل فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحرمتكم وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبرج فأقاموا عليها أربعة أشهر في أشد قتال مع الصبر على المطر والثلج فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار في ذلك الفصل الصعب وما نزل بهم من المسلمين وقفوا بين يدي البطرك وقالوا له قد عظم الأمر ونريد منك أن تشرف على القوم وتسأل من الذي يريدون فإن كان أمراً صعباً فتحننا الأبواب وخرجنا إليهما فأما نقتل عن آخرنا أو نهمهم عنا فأجابهم البطرك إلى ذلك وصعد السور واجتمع القسيسون والرهبان حوله ونادى منهم رجل بالعربي وقال يا معشر الفرسان عملة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فقام أبو عبيدة يمشي ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان فلما وقف يازانهم قال ما الذي تريدون هذا أمير العرب فقال البطرك إنكم لو أقمت علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدتنا أبداً وإنما يفتحه رجل موصوف وليست الصفة معكم قال أبو عبيدة وما صفة من يفتح بلدكم قال البطرك لا نخبركم بصفة ولكن قرآنا إن هذا البلد يفتحه صاحب نحمد اسمه عمر بن الخطاب ويعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال فتحننا البلد ورب الكعبة ثم أقبل على البطرك وقال إن رأيت الرجل تعرفه قال نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندنا قال أبو عبيدة هو والله خليفتنا وصاحب نبينا صلى الله عليه وسلم

قال البطرك فإذا كان الأمر على ما ذكرتم فأحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبيننا نعتنا فتحننا له البلد وأعطيناه الجزية فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال وأعلمهم بالخبر فكبروا وكتب أبو عبيدة إلى الإمام عمر رضي الله عنه يعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق فلما وصل الكتاب إلى عمر رضي الله عنه فرح وقرأه على المسلمين وقال ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين الأمة فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم فإن أنت أقيمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يثبتون إلا يسيراً فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً وقال هل عند أحدهم منك رأي غير هذا فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه نعم عندي غير هذا الرأي وأنا أبدية إليك رحمك الله فقال له عمر وما هو أبا الحسن قال إن القوم قد سألك وفي سؤالهم ذل وهو على المسلمين فتح وقد أصابهم جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وإن سرت إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة وكان لك في مسيرك الأجر العظيم ولست آمن منهم إنهم إذا آيسوا منك أن يأتيهم المدد

من طاغيتهم فيحصل للمسلمين بذلك الضرر والصواب أن تسير إليهم ففرح عمر بمشورة علي وقال لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وعلي أحسن النظر للمسلمين جزاهما الله خيراً ولست آخذ إلا بمشورة علي فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الطلعة ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه واستخلف علي المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وهو علي بعير له أحمر عليه غرارتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة وخلفه جفنة الزاد وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس فالتقاه أبو عبيدة فلما رآه أناخ قلوصله وأناخ عمر بعيره وترجلا ومد أبو عبيدة يده وصافح عمر وتعانقا وسلم كل منهما علي صاحبه وأقبل المسلمون يسلمون علي عمر ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم إلى أن حضرت صلاة الظهر أذن بلال في ذلك اليوم فلما قال الله أكبر خشعت جوارحهم واقشعرت أبدانهم فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله أبكى الناس بكاء شديداً عند ذكر رسوله وكاد بلال أن يقطع الأذان فلما فرغ الأذان صلى عمر وجلس ثم أمرهم بالركوب فلما هم بالركوب من بعيره وعليه مرقعة الصوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من آدم قال المسلمون يا أمير المؤمنين لو ركبنا غير بعيرك جواداً ولبست ثياباً لكان ذلك أعظم لهيبك في قلوب أعدائك وأقبلوا يسألونه ويتلطفون به إلى أن أجابهم إلى ذلك ونزع مرقعته ولبس ثياب بيضا قال الزبير أحسبها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشرة درهما وطرح علي كنفه منديلاً من الكتان دفعه إلى أبو عبيدة وقد ذم له بردونا أشهب من براذين الروم فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج به فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً وقال أقبلوا عثري أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر ثم إنه نزع البياض وعاد إلى لبس مرقعته وركوب بعيره ففعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير فقال البطرك للروم أنظروا ما شأن العرب فأشرف رجل من المنتصرة فقال يا معشر العرب ما قضيتكم فقالوا أن عمر بن الخطاب قد قدم علينا من مدينة نبينا صلى الله عليه وسلم فرجع المنتصر وأعلم البطرك فأطرق ولم يتكلم فلما كان من الغد صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم قال لأبي عبيدة تقدم إلى القوم وأعلمهم أي قد أتيت فخرج أبو عبيدة وصاح بهم وقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى فما تصنعون فيما قلتم فاعلم البطرك بذلك فخرج من قمامة وعليه المسوح ومن حوله الرهبان والقسس ثم علا السور وأشرف علي أبي عبيدة وقال ما هذا أيها الشيخ قال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين من بينكم حتى نراه فرجع أبو عبيدة إلى عمر فأخبره بما قال البطرك فهم عمر بالقيام فقال له أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى عليك من الإنفراد بلا علة فقال عمر قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلي الله فليتك كل المؤمنين ثم لبس مرقعته وركب بعيره وأبو عبيدة سائر بين يديه إلى أن أتى يازاء البطرك قريباً من الحصن فقال أبو عبيدة هذا أمير المؤمنين فمد البطرك عنقه ونظر إليه فرعق زعقة قال هذا والله الذي صفته ونعته في كتبنا ثم قال يا أهل بيت المقدس انزلوا إليه وخذوا منه الأمان والذمة فهذا والله صاحب محمد بن عبد الله فنزلوا مسرعين وكان أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار وفتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد فلما رآهم عمر رضي

الله عنه في تلك الحالة تواضع لله سبحانه وتعالى وخر ساجداً على قبه بغيره ثم أقبل عليهم وقال ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد فرجع القوم إلى البلد ولم يغلقوا الباب ورجع عمر فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين دخل إليها وأقام بها إلى يوم الجمعة وخطّ بها محراباً وهو موضع مسجد وتقدم وصلة بالمسلمين صلاة الجمعة وأقام في بيت المقدس عشرة أيام وبها أسلم كعب الأحبار على يده وارتحل معه إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس وأقرهم في بلدهم على عهدهم وأداء الجزية. بن فمد البطرك عنقه ونظر إليه فرعق زعقة قال هذا والله الذي صفته ونعته في كتبنا ثم قال يا أهل بيت المقدس انزلوا إليه وخذوا منه الأمان والذمة فهذا والله صاحب محمد بن عبد الله فنزلوا مسرعين وكان أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار وفتحوا الباب وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد فلما رآهم عمر رضي الله عنه في تلك الحالة تواضع لله سبحانه وتعالى وخر ساجداً على قبه بغيره ثم أقبل عليهم وقال ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد فرجع القوم إلى البلد ولم يغلقوا الباب ورجع عمر فلما كان من الغد وهو يوم الاثنين دخل إليها وأقام بها إلى يوم الجمعة وخطّ بها محراباً وهو موضع مسجد وتقدم وصلة بالمسلمين صلاة الجمعة وأقام في بيت المقدس عشرة أيام وبها أسلم كعب الأحبار على يده وارتحل معه إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن كتب الإمام عمر لأهل بيت المقدس وأقرهم في بلدهم على عهدهم وأداء الجزية.

ومن شهى الجنى من ثرات الأوراق ما نقله أبو الحسن علي بن عبد المحسن التوخي في المستجد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بات على فراش النبي صلى الله عليه وسلم ليفديه أوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أي آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كل منهما الحياة فأوحى الله إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره الحياة أهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل ينادي بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد.

قال أبو الحسن المدائني خرج الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضي الله عنه حجاجا ففاتتهم أبقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقال أحدهم هل من شراب قالت نعم فأنخوا إليها وليس لها إلا شويهة فقالت احلبوها فاشربوا لبها ففعلوا فقالوا هل من طعام قالت لا إلا هذه الشاة فليذبحها أحدهم حتى أهيء لكم ما تأكلون فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون إليك خيراً فارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب وقال ويحك تذبجن شاتي لقوم لا أعرفهم ثم تقولين نفر من قريش ثم بعد ملة ألقاهم الحاجة إلى دخول المدينة فدخلوها وجعلوا يلتقطان البعر ويعيشان بثمرته فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي على باب داره فعرف العجوز وهي منكرة فبعث إليها غلامه فدعا بها فقال لها يا أمة الله أتعرفيني قالت لا قال أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا قالت باي أنت وأمي ثم اشترى لها من شاة الصدقة ألف شاة وأمر لها بألف دينار بعث بها مع غلامه

إلى الحسين رضي الله عنهما فأمر لها بمثل ذلك وبعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال عنه فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفي شاة وألفي دينار فقال لها لو بدأت بي لأتبعتهما في العطاء أعطوها عطيتهما فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف دينار وأربعة آلاف شاة.

ومما يضارع هذه اللطائف أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية رضي الله عنهما كلام فانصرفا متغاضبين فلما وصل محمد إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين بن علي ابن أبي طالب أما بعد فإن لك شرفاً لا أبلغه وفضلاً لا أدركه فإذا قرأت رقعتي هذه فلبس ردائك ونعليك وسر إليّ فترضيني وإيك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الرقعة لبس ردائه ونعليه ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه.

قال أبو الفرج الاصفهاني حدثني أحمد بن محمد الجعدي ومحمد بن يحيى قالوا حدثنا محمد بن زكريا العلائي قال حدثنا ابن عائشة قال حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد ومعه رؤساء أهل الشام فطاف وجهه أن يستلم الحجر فلم يقدر من الازدحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس فأقبل علي بن الحسين رضي الله عنهما وهو أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأطيبهم رائحة فلما طاف بالبيت وبلغ الحجر تنحى الناس كلهم إجلالاً له فاستلم الحجر وحده فغاض ذلك هشاماً وبلغ منه فقال رجل من أهل الشام لهشام من هذا أصلح الله الأمير قال لا أعرفه وكان عارفاً ولكن خاف من رغبة أهل الشام فقال الفرزدق وكان حاضراً أنا أعرفه يا شامي قال من هو قال:

هذا ابنٌ من تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقيُّ الطاهر العلم

إذا رآته قريشٌ قال قائلُهُم ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

هذا ابن فاطمةٍ إن كنت جاهلُهُ ... بمجده أنبياء الله قد ختموا

يكاد يمسه عرفان راحته ... رُكن الحطيم إذا ما جاء يستلم

أي الخلاق ليست في رقابهم ... لأوليّه هذا فأوله نعم

من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمام

وليس قولك من هذا بضائره ... فالعرب تعرف من أنكرت والعجم

فحسبه هشام ثم أطلقه فوجه إليه علي بن الحسين عشرة آلاف درهم وقال أعذرنا يا أبا فراس فلما كان معنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصولناك به فردها الفرزدق وقال ما قلت ما كان إلا الله فقال له علي بن الحسين قد رأى الله مكانك ولكننا أهل بيت إذا أنفدنا شيئاً لم نرجع فيه وأقسم عليه فقبلها.

ومن غالي جواهر العقد لابن عبد ربه قال يزيد حدثني أبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم من المدينة إلى الشام على حمار فتلقيه معاوية في موكب نبيل فأعرض عنه عمر فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف أتعبت الرجل فأقبل عليه وقال يا معاوية أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف

ذوي الحاجات ببابك قال نعم يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك قال لأننا في بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يروعه من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن همتني عنه انتهيت قال إن كان الذي قلت حقاً فإنه رأي أريب وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب فلا آمرك ولا أنهك عنه.

ومن لطائف معاوية أنه كان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرض معاوية فيها عبيد له من الزوج ويعمرونها فدخلوا في أرض عبد الله فكتب إلى معاوية أما بعد فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من أرضي وإلا كان لي ولك شأن فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد فلما قرأه قال له ما ترى قال أرى أن تنفذ إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه قال يا بني عندي خير من ذلك عليّ بدواة وقرطس وكتب، وقفت على كتابك يا ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءني والله ما ساءك والدنيا هينة عندي في جنب رضاك وقد كتبت على نفسي رقماً بالأرض والعبيد وأشهدت عليّ فيه ولتصف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قریش هذا الخل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد فلما قرأه أسفر وجهه فقال يا بني إذا رميت بهذا الداء دواه بهذا الدواء.

نادرة لطيفة قال الأستاذ أبو علي لما سعى غلام خليل بالصوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم فأما الجعيد فإنه استتر بالفقه وأما الشخام والرقام والثوري وجماعة فقبض عليهم وبسط النطع لضرب أعناقهم فتقدم الثوري فقال له السيف أتدري لماذا تتقدم قال نعم قال فما يعجلك قال أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السيف ونما الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضي ليعرف أحوالهم فألقى القاضي على أبي الحسن الثوري مسائل فقهية فأجاب عن الكل ثم أخذ يقول إن لله عبداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا بالله وسرد حتى بكى القاضي فأرسل إلى الخليفة إن كان هؤلاء زنادقة فما هو وجه الأرض مسلم فأكرمهم وأطلقهم.

ومن المروي عن أحمد بن أبي داود القاضي أنه قال ما رأيت رجلاً عرض على الموت فلم يكثر به إلا تميم بن جميل الخارجي كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جيء به أسيراً فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظر المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث به فأطال الفكرة فيه ثم استطلقه لينظر في عقله وبلاغته فقال يا تميم إن كان لك عذر فأت به فقال أما إذا أذن أمير المؤمنين جبر الله به صدع الدين ولم به شعث المسلمين وأحمد شهاب الباطل وأنا سبل الحق فالذنوب يا أمير المؤمنين تحرس الألسن وتصدع الأفئدة وأيم الله لقد عظمت الجريمة واقتطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمنتك الطاهرة ثم أنشد:

ارى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث لا أتلفتُ

وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله فملت

ومن ذا الذي يأتي بعنبرٍ وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مُصلّت

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء موقت

ولكن خلفي صبيّة قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تنفتت
كأنّي أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
وإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن متّ موتوا
وكم قاتل لا يبعد الله داره ... وآخر جذلان يسرّ ويشمت
قال فبكى المعتصم وقال ابن من البيان لسحراً ثم قال كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العدل وقد وهبتك
لله ولصبيتك وأعطاه خمسين ألف درهم.

ومن لطائف المنقول من المستجاد أنه كان بين غسان بن عباد وبين علي بن عيسى القمر عداوة عظيمة
وكان علي بن عيسى ضامناً أعمال الخراج والضياح ببلده فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار فألح
المأمون عليه بطلبها إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب أمهله ثلاثة أيام فإن أحضر المال وإلا فأضربه
بالسياط حتى يؤدي المال أو يتلف فإنصرف علي بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه وهو لا يدري
وجها يتجه إليه فقال له كاتبه لو عرجت على غسان بن عباد وعرفته خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك
فقال له على ما بيني وبينه من العداوة فقال نعم فإن الرجل أريحي كريم فدخل على غسان فقال إليه وتلقاه
بالجمل وأوفاه حقه بالخدمة ثم قال له الحال الذي بيني وبينك على حاله ولكن دخولك إلى داري له حرمة
توجب بلوغ ما رجوته مني فأذكر أن كان لك حاجة فقص عليه القصة فقال أرجو أن يكفيكه الله تعالى ولم
يزده على ذلك شيئاً فنهض علي بن عيسى وخرج آيساً نادماً على قصد غسان وقال لكاتبه ما أفدتني
بالدخول على غسان غير تعجيل الشماتة والهوان فلم يصل علي بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب
غسان ومعه البغال عليها المال فتقدم وسلمه وبكر إلى دار أمير المؤمنين فوجد غسان قد سبقه إليها ودخل
على المأمون وقال يا أمير المؤمنين أن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة وسالف أصل وقد لحقه من
الخسران في ضمانه ما تعارفه الناس وقد توعدته بضرب السياط بما أطار عقله وأذهب لبه فإن رأى أمير
المؤمنين أن يجيزني على حسن كرمه ببعض ما عليه فهي صنعة يجدها على تحرس ما تقدمها من إحسانه ولم
يزل يتلطف إلى أن حط عنه النصف واقتصر على عشرين ألف دينار فقال غسان على أن يجلد عليه أمير
المؤمنين الضمان ويشرفه بخلعة تقوّي نفسه وترهف عزمه ويعرف بها مكان الرضا عنه فأجابه المأمون إلى
ذلك قال فيأذن أمير المؤمنين أم أحمل الداوة إلى حضرته ليوقع ما رآه من هذا الإنعام قال افعل فحمل
الداوة إلى أمير المؤمنين فوقع ذلك وخرج علي بن عيسى بالخلعة والتوقيع بيده فلما حضر في داره حمل من
المال عشرين ألف دينار وأرسلها إلى غسان وشكره على جميل فعله معه فقال غسان لكاتبه والله ما شفعت
عند أمير المؤمنين إلا لتوفر عليه وينتفع بها فأمض بها إليه فلما ردها كاتبه إلى علي بن عيسى علم قدر ما
فعل غسان فلم يزل يخدمه إلى آخر العمر.

ومن غريب ما يقتطف من ثمرات الأوراق أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خلف أحد عشر ابناً فأصاب كل
ابن نصف وربع دينار وقال لهم عند وفاته يا بني ليس لي مال فأوصي فيه، وخلف هشام بن عبد الملك أحد
عشر ابناً فأصاب كل واحد من البنين ألف دينار فأما أولاد عمر بن عبد العزيز فما رؤي أحد منهم إلا

وهو غني ومنهم واحد جهز من ماله مائة ألف فارس على مائة ألف فرس في سبيل الله تعالى وما روي أحد م أولاد هشام بن عبد الملك إلا وهو فقير ولقد شوهدهم أحدهم وهو يوقد في الأتون.

قبل معاوية ابن أبي سفيان إن بالحيرة رجلاً من بني جرهم قد عمّر ورأى أعاجيب فقال معاوية عليّ به فلما حضر قال من الرجل قال عبيد بن شربة قال ثم ممن قال من قوم لم يبق منهم بقية قال فكم مضى من عمرك قال عشرين ومائتا سنة قال أخبرني بأعجب ما رأيت في عمرك قال نعم يا أمير المؤمنين كنت في حي من أحياء العرب فمات عندهم ميت يقال له عشير بن لبيد العذري فمشيت في جنازته وتأسيت بجماعته فلما دفن في قبره وأعول النساء في أثره أدركتني عليه عبرة ولم أستطع ردها وتمثلت بأبيات كنت سمعتها قديماً وعلق الآن على خاطري منها هذه الأبيات:

يا قلب إنك من أسماء مغرور ... فأذكر وهل ينفعك اليوم تذكير
قد بحث بالحبّ ما تخفيه من أحدٍ ... حتى جرت لك اطلاقاً محاذير
فلست تدري ولا تدري أعجلها ... أدنى لرشدك أم ما فيه تأخير
فاستقدر الله خيراً وارضى به ... فينما العسر إذا دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مغتبطٌ ... إذا هو الرّمس تغفوه الأعاصير
يبكي الغريب عليه ليس يعرفه ... وذو قرابته في الحيّ مسرور
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا ... ما المرء ضمّنه اللحد الخناسير

فبينما أنا أردد هذه الأبيات وعيناي ينسكبان إذ قال لي رجل إلى جنبي من عذرة يا عبد الله هل تعرف قائل هذا الشعر قلت لا والله قال قتله هذا الميت الذي دفناه وأنت الغريب الذي تبكي عليه ولا تعرفه ولا تعلم إنه قائل هذه الأبيات وذو قرابته الذي ذكرته مسرور هو ذاك وأشار إلى رجل في الجماعة فرأيت أنه لا يستطيع كتمان ما هو عليه من المسرة فقال معاوية يا أخا جرهم سل ما شئت قال ما مضى من عمري ترده والأجل إذا حضر تدفعه قال ليس ذلك لي سل غيره قال يا أمير المؤمنين ليس إليك رد شباي ولا الآخرة فتكرم ما بي والمال فقد أخذت عنه في عفواني ما كفاني قال لا بد أن تسألني قال أما إذا شئت فأمر لي برغيفين أتغدى بأحدهما وأتعمشى بالآخرة واتق الله وأعلم أنك مفارق ما أنت فيه وقادم على ما قلمت، فأمر له معاوية بأشياء من حنطة وغيرها فردّها وقال إن أعطيت المسلمين كلهم مثلها أعطيتني وإلا فلا حاجة لي في ذلك ثم ودعه وانصرف.

وقيل وفد عبد الله بن جعفر رضي الله عنه على أحد خلفاء بني أمية فقال له الخليفة كم كان أمير المؤمنين يعطيك يعني أباه قال كان رحمه الله يعطيني ألف ألف درهم قال زدناك لترحمك عليه ألف ألف درهم قال بأبي أنت وأمي قال وبهذه ألف ألف لا أقولها لأحد بعدك قال ولهذه ألف ألف قال منعني من الأطناب في وصفك الإشفاق عليك من جودك قال ولهذه ألف ألف فقيل: فرقت يا أمير المؤمنين بيت مال المسلمين على رجل واحد قال إنما فرقته على أهل المدينة أجمعين ثم وكل به من يعلمه بخبره من حيث لا يشعر فلما قدم المدينة فرق جميع ما معه حتى احتاج بعد شهر إلى القرض.

ومن لطائف المنقول أن رجلاً قال لهشام القرطبي كم تعد قال من واحد إلى ألف ألف وأكثر قال لم أرد هذا كم تعد من السن قال اثنتين وثلاثين سناً ستة عشر من أعلى وستة عشر من أسفل قال لم أرد هذا كم لك من السنين قال والله ليس لي منها شيء والسنون كلها لله قال يا هذا ما سنك قال عظم قال ابن لي ابن كم أنت قال اثنين رجل وامرأة قال كم أتى عليك قال لو أتى علي شيء قتلتني قال كيف أقول قال تقول كم مضى من عمرك.

قيل عرض محمد بن الجهم دارة للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص فقالوا له والجوار يباع قال كيف لا يباع جوار من إن سألته أعطاك وإن سكنت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك فبلغ ذلك سعيداً فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك دارك عليك.

قيل عرض محمد بن الجهم دارة للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشترون مني جوار سعيد بن العاص فقالوا له والجوار يباع قال كيف لا يباع جوار من إن سألته أعطاك وإن سكنت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك فبلغ ذلك سعيداً فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك دارك عليك.

قيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخل قوم فيها غلام أسود يقوم عليها فأتى بثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا منه فرمى إليه بالأول والثاني والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت الكلب قال لان أرضنا ما هي بأرض كلاب وأخاله جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده قال فما كنت صانعاً اليوم قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر الأمر مبني على السخاء والله إن هذا لاسخى مني فاشتري النخل والعبد فأعتقه ووهب ذلك له.

ومن لطائف المنقول أنه رفع للرشيدي موت العباس بن الأحنف وإبراهيم الموصللي المعروف بالنديم وعشيمة الخمارة في يوم واحد فخرج للصلاة عليهم فصفوا بين يديه فقال من الأول فقالوا إبراهيم الموصللي فقال آخروه وقدموا العباس بن الأحنف فقدم وصلى عليه فلما فرغ وانصرف، دنا منه هاشم بن عبد الله الخزازي وقال يا أمير المؤمنين كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر فقال بقوله:

وسعى بها قومٌ وقالوا إنّها ... هي التي تشقى بها وتكابد

فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم ... إني ليعجبني الحبُّ الجاحد

ثم قال أتخفظهما قلت نعم قال أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقديم فقلت بلى والله يا أمير المؤمنين.

قلت ويضارع هذا ما حكاه صاحب الأغاني حكى أن رجلاً أدى شهادة عند بعض القضاة فقال القاضي هل يعرفك أحد من ذوي العدالة قال نعم فلان فلما حضر قال له القاضي هل تعرف هذا قال نعم أعرفه عدلاً وما ذاك إلا أي سمعته ينشد لجرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك لا يزال معيناً

فعضضن من أبصارهنّ وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فعلمت أن هذا لا يرسخ إلا في قلب مؤمن.

وقال الشيخ أثير الدين أبو حبان رحمه الله كانت رقائق الشيخ تقي الدين السوجي تسلب العقول وكان

يغنى بها في عصره لأنها في الطريق الغرامي غاية لا تدرك فمن ذلك قوله رحمه الله:

أنعم بوصلك لي فهذا رقتُه ... يكفي من الهجران ما قد ذُقتُه
أنفقت عمري في هواك وليتني ... أعطي وصولاً بالذي أنفقتُه
يا من شُغِلت بحبِّه عن غيره ... وسلوت كلَّ الناس حين عشقته
كم جال في ميدان حسنك فارسٌ ... بالسبق فيك إلى رضاك سبقته
أنت الذي جمع الخاسن وجهه ... لكن عليه تصوُّري فرقتُه
قال الوشاة قد ادَّعى بك نسبةً ... فسررت لما قلت قد صدَّقتُه
بالله إن سألوك عني قل لهم ... عبدي وملك يدي وما أعتقته
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم ... أدري بذا وأنا الذي شوَّقتُه

قلت لو كان الشيخ تقي الدين السورجي رحمه الله في جملة من صلى عليه الرشيد لم يقدم غيره عليه، قال الشهاب محمود وكان الشيخ تقي الدين السروجي مع دينه وورعه وزهده وعفته مغرماً بالجمال وكذلك قال الشيخ أثير الدين وكان يكره مكاناً فيه امرأة ومن دعاه من أصحابه قال شرطي معروف وهو أن لا يحضر بالجلس امرأة. قال الشهاب محمود وكنا يوماً في دعوة فأحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بإدخاله إلى النساء ليجعلنه في الصحون فلما أحضر بعد ذلك تقرَّف منه وقال كيف وقد مسسنه بأيديهن.

قال الشيخ أثير الدين ولما توفي الشيخ تقي الدين بمصر رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة حلف أبو محبوبة أن لا يدفنه إلا في قبر ابنه وقال كان الشيخ يهواه بالحياة وما أفرق بينهما بالممات هذا لما كان يعلمه من دينه وعفافه.

قلت والشيخ مدرك هو أبو هذه العذرة وثمرة هذه الشجرة فإنه ممن هام مع زهده وورعه بالجمال وعف وصبر إلى أن مات وكان الشيخ مدرك المذكور من أكابر علماء المغرب المتفقيين وكان مطبوعاً في نظم الشعر الجيد الرقيق وكان يُقرئ الأدب وله مجلس بمحلة دار الروم وكان لا يُقرئ إلا الأحداث فتن بنصراني اسمه عمرو بن يوحنا كان من أحسن أهل زمانه وأسلمهم طبعاً فهام الشيخ به وكتب رقعة وطرحها في حجره وهي:

بمجالس العلم التي ... بك تمَّ جمعُ جموعها
ألاً رثيت لمقلّة ... غرقت بماء دموعها
بيني وبينك حرمةٌ ... الله في تضييعها

فلما قرأها عمرو استجيا وعلم بها من في المجلس فانقطع عمرو واشتد بالشيخ الوجد فترك المجلس وتظم القصيدة المشهورة قيل أنها اشتملت على سائر عبادات النصارى ومواقيتهم وأسماء المعظمين في دينهم وعده صاحب مصارع العشاق مع الذين ماتوا غراماً.

وقال في كتابه الموسوم بمصارع العشاق أخبرنا القاضي أبو القاسم التوخي سنة ثلاثة وأربعين وأربعمائة قال حدثنا القاضي أبو الفرج المعافى قال أنشدنا أبو القاسم مدرك بن محمد الشيباني لنفسه في عمرو النصراني قال القاضي أبو الفرج وقد رأيت عمراً وقد أبيض رأسه:

من عاشقٍ ناءٍ هواه دان ... ناطقٍ دمعٍ صامت اللسان
موثق قلبٍ مطلق الجثمان ... معذبٍ بالصدِّ والهجران
من غير ذنبٍ كسبت يده ... لكن هوىً نمت به عيناه
شوقاً إلى رؤية من أشقاه ... كأنما عافاه من أبلاه
يا ويحه من عاشقٍ ما يلقي ... من أدمعٍ منهلةٍ ما ترقى
ذاب إلى إن كاد يفنى عشقا ... وعن دقيق الفكر سقماً دقاً
لم يبق منه غير طرفٍ يبكي ... بأدمعٍ مثل نظام السلك

تحمد نيران الهوى وتذكي ... منهلةً قطر السماء تحكي
إلى غزالٍ من بني النصارى ... فُضِّلَ بالحسن على العذارى
وغادر الأسد به حيارى ... في ربة الحب له أسارى
رجم به أي هزبرٍ لم يصد ... يقتل باللحظ ولا يخشى القود
متى تقل ها قالت الألاحظ قد ... كأنه ناسوته حين اتحد
يا ليتني كنت له زناراً ... يديرني في الخصر كيف دارا
حتى إذا الليل طوى النهارا ... صرت له حينئذٍ إزارا
يا عمرو ناشدتك بالمسيح ... إلا سمعت القول من فصيح
يذبُّ عن قلبٍ له جريح ... ليس من الحب بمستريح
يا عمرو بالحق مع اللاهوت ... والروح روح القدس والناسوت
ذاك الذي في مهده المنعوت ... عوض بالنطق عن السكوت
بحق ناسوت يطن مريم ... حلَّ محلَّ الريق منها بالفم
ثم استحال في القنوم الأقدم ... يكلم الناس ولما يفطم
بحق من بعد الممات قمصاً ... يوماً على مقداره ما قصصا
وكان لله تقياً مخلصاً ... يشفي ويرى أكمهاً وأبرصا
بحق محيي صورة الطيور ... وباعث الموتى من القبور
ومن إليه مرجع الأمور ... يعلم ما في البر والبحور
بحق من في شامخ الصوامع ... من ساجدٍ لربه وراكم
يبكي إذا ما نام كلُّ هاجع ... خوفاً من الله بدمعٍ هامع
بحق قوم حلقوا الرؤسا ... وعالجوا طول الحياة بوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا ... مشمعلين يعبدون عيسى
بحق مار مريم وبولس ... بحق شعون الصفا وبطرس
بحق دانييل بحق يونس ... بحق حزقيل وبيت المقدس

وينبؤى إذ قام يدعو ربه ... مطهراً من كل سوء قلبه
ومستقيلاً فأقبل ذنبه ... ونال من مولاه ما أحبه
بحقّ ما في قلة الميرون ... من نافع الأدواء للمجنون
بحقّ ما يؤثّر عن شعون ... من بركات النخل والزيتون
بحقّ أعياد الصليب الزهر ... وعيد شعون وعيد الفطر
وبالشعنين الجليل القدر ... وعيد مرماري الرفيع الذكر
وعيد شعياء بالهياكل ... والدخن اللاتي بكفّ الحامل
يشفي بها من خبل كل خابل ... ومن دخيل السقم في المفاصل
بحقّ سبعين من العباد ... هاموا بدين الله في البلاد
وأرشدوا الناس إلى الرشاد ... حتى أهتدى من لم يكن بهاد
بحقّ ثني عشرة من الأمم ... ساروا إلى الأقطار يتلون الحكم
حتى إذا صُبِح الهدى جلا الظلم ... ساروا إلى الله ففازوا بالنعم
بحقّ ما في محكم الإنجيل ... من منزل التحريم والتحليل
وخير كل نبي جليل ... يرويه جيل قد مضى عن جيل
بحقّ مر عيد النقي الصالح ... بحقّ لوقا بالحكيم الراجح
والشهداء بالفلا الصالح ... من كلّ غادٍ منهم ورائح
بحقّ معمودية الأرواح ... والمذبح المشهور في النواحي
ومن به من لايس الأمساح ... من راهبٍ بكٍّ ومن نواح
بحقّ تقريبك في الأعياد ... وشربك القهوة كالفرصاد
بما بعينيك من السواد ... بطول تقطيعك للأكباد
بحقّ ما قلّس شعيا فيه ... بالحمد لله وبالتنزيه
بحقّ نسطور وما يرويه ... عن كلّ ناموسٍ له فقيه

شيخان كانا من شيوخ العلم ... وبعض أركان التقي والحلم
لم ينطقا قطّ بغير الفهم ... موقّما كان حياة الخصم
بحرمة الأسقف والمطران ... والجائليق العالم الرباني
والقسّ والشماس والديواني ... والبطرق الأكبر والرهبان
بحرمة الحبوس في أعلى الجبل ... ومار قولاً حين صلى وابتهل
وبالكنيسات القديمات الأول ... وبالمسيح المرتضى وما فعل
بحرمة الأسقفيا والبيرم ... وما حوى مغفر رأس مريم
بحرمة الصوم الكبير الأعظم ... بحقّ كلّ بركة ومحرم

بحقّ يوم الذبح في الأشرار ... ليلة الميلاد والتلاقي
والذهب الإبريز لا الأوراق ... بالفصح يا مذهب الأخلاق
بكل قداسٍ على قداس ... قدسه القس مع الشمّس
وقربوا يوم خميس الناس ... وقلموا الكلس لكلّ حلس
إلاّ رغبت في رضا أديب ... باعده الحبُّ عن الحبيب
فذاب من شوقٍ إلى المذيب ... أعلى مناه أيسر التقريب
أنظر أميرٍ في صلاحٍ أمري ... محتسباً في عظيم الأجر
مكتسباً منيّ جميل الشكر ... من نثر الفاظٍ ونظم شعر
قلت والشيء بالشيء يذكر الشيخ مدرك ألقائه الضرورة الغرامية أن يتجشم المشاق ويتقرب إلى محبوبه
بأقسام لها عند أهل دين النصرانية محل عظيم الموقع كما ألقأت الشيخ مذهب الدين بن منير الطرابلسي
الشاعر المشهور أن يترك التشيع وكان من كبار الشيعة ويرجح جانب السنة ويوهي أقوال الرافضة
وموجب ذلك أن مذهب الدين المذكور هاجر إلى بغداد بسبب مدح الشريف الموسوي نقيب الأشراف بها
وكان الشريف أيضاً من كبار الشيعة فلما دخل بغداد جهز إلى الشريف هدية مع مملوكه بل معشوقه تتر
الذي سارت الركبان بغرامه فيه فأخذ الهدية وأعجبه المملوك فأخذه فلما وصل الخبر إلى مذهب الدين بن
منير أشرف على ذهاب روحه وكتب إلى الشريف وإلى تتر:

عذبت طرفي بالسهر ... وأذبت قلبي بالفكر
وجفوت صفو مودتي ... من بعد بعدك بالكدر
ومنحت جثمانني الضنا ... وكحلت جفني بالسهر
وجفوت صباً ماله ... عن حسن وجهك مصطر
يا قلب ويحك كم تخا ... دع بالغرور وكم تغرّ
والإم تكلف بالأغنّ ... من الطباء وبالأغر
ريّم يفوق أن رما ... ك به بسهم ناظره النظر
تركك أعين تركها ... من بأسهنّ على خطر
ورمت فأصمت عن قسيّ ... لا يناط بها وتر
جرحتك جرحاً لا يحيي ... ط بالخيوط ولا الإبر
تلهو وتلعب العقو ... ل عيون أبناء الخزر
فكأنهنّ صواجج ... وكأنهنّ لها أكر
تحفي الهوى وتُسره ... وخفيّ سرّك قد ظهر
أفهل لوجلك من مدى ... يُقضى إليه فيتنظر
نفسى الفداء لشادنٍ ... أنا من هواه على خطر
رشاً تحاوله الخوا ... طر أن تشنّى أو خطر

عذل العذول وما رآ ... ه فحين عاينه عذر
قمرٌ يزين ضوء ص ... بح جبينه ليل الشعر
تدمي اللواحق خده ... فترى لها فيه أثر
هو كالهلال ملثماً ... والبدر حسناً إن سفر
ويلاه ما أحلاه في ... قلبي الشقيّ وما أمر
يومي الحرم بعده ... وربيع لذاتي صفر
بالمشعرين وبالصفاء ... واليت أقسمُ والحجر
وبمن سعى فيه وطا ... ف ولّتي واعتمر
إن الشريف الموسوي ... ابن الشريف أبي مضر

أبدى المحود ولم يردّ ... إليّ ملوكي تتر
واليت آل أمية ال ... طهر الميامين الغرر
وجحدت بيعة حيدر ... وعدلت عنه إلى عمر
وإذا جرى ذكر الصحا ... به بين قومٍ واشتهر
قلت المقدم شيخ تيم ... ثم صاحبه عمر
ما سلّ قطُّ ظباً على ... آل النبيّ ولا شهر
كلاً ولا صدّ البتو ... ل عن التراب ولا زجر
وأثابها الحسنى وما ... شقّ الكتاب والا بقر
وبكيت عثمان الشهي ... د بكاء نسوان والحضر
وشرحت حسن صلاته ... جنح الظلام المعتكر
وقرأت من أوراق مص ... حفة البراءة والزمر
ورثيت طلحة والزب ... ير بكل شعرٍ مبتكر
وأزور قبرهما وأز ... جر من لحاني أو زجر
واقول أمّ المؤمن ... ين عقوقها إحدى الكبر
ركبت على جمل النص ... بح من بنيتها على غرر
فأتى أبو حسنٍ وس ... لّ حسامه وسطاً وكرّ
وأذاق إخوته الردى ... وبغير أمهم عقر
ما ضرّه لو كان كفّ ... وعفّ عنهم إذ قلد
واقول إنّ إمامكم ... ولّي بصفين وفرّ
هذا ولم يغدر معا ... وية فما أخطا القدر
هذا ولم يغدر معا ... وية ولا عمرو مكر

بطلُ بسوأتَه يقا ... تل لا بصارمه الذكر
وجنيت من رطب النوا ... صب مما تتمر واختمر
وأقول ذنب الخارج ... ين على عليّ مغتفر
لا ثائرٌ لقتلهم ... في النهروان ولا أثر
والأشعريّ بما يؤ ... ل إليه أمرهما شعر
قال انصبوا لي منبراً ... فإننا البريء من الخطر
فعلاً وقال خلعت صا ... حبكم وأوجز واختصر
وأقول إنّ يزيد ما ... شرب الخمر ولا فجر
والشمر ما قتل الحسين ... ولا ابن سعدٍ ما غدر
وحلقت في عشر المح ... رم ما استطل من الشعر
ونويت صوم فماره ... وصيام أيام آخر
ولبست فيه أجلّ ثو ... ب للملابس يدخر
وسهرت في طبخ الحبو ... ب من العشاء إلى السحر
وغدوت مكتحلاً أصا ... فح من لقيت من البشر
ووقفت في وسط الطري ... ق أقصّ شارب من عبر
وأكلت جرجير البقو ... ل بلحم جوني الجفر
وجعلتها خير المآ ... كل والفواكه والخضر
وغسلت رجلي كلّها ... ومسحت خفيّ في السفر
وأمين أجهر في الصلاة ... كمن بما قبلي جهر
وأسنّ تسليم القبو ... ر لكلّ قبرٍ يحتر
وإذا جرى ذكر الغدي ... ر أقول ما صحّ الخبر
وسكنت جلقٍ واقتدي ... ت بهم وإن كانوا بقر
وأقول مثل مقالهم ... بالفاشر يا قد فشر
مصطيحي مكسورة ... وفطيرتي فيها قصر
بقرٌ ترى برئيسهم ... طيش الظليم إذا نفر
وخفيهم مستنقلٌ ... وصواب قولهم هنر
وطباعهم كجبالهم ... خيبت وقذت من حجر
ما يدرك التشبيب تغ ... ريد البلال في السحر
وأقول ي يومٍ تحا ... ر له البصائر والبصر
والصحف ينشر طيها ... والنار ترمي بالشر

هذا الشريف أطلني ... بعد الهداية والنظر
مالي مضلّ في الورى ... إلّا الشريف أبو مضر

فيقال خذ بيد الشري ... ف فمستقر كما سقر
لواحة تسطو فما ... تبقي عليه ولا تنذر
والله يغفر للمسي ... ء إذا تنصل واعتذر
فاخش الإله بسوء فع ... لك واحتذر كل الحذر
واليكها بدوية ... رقت لرقبتها الحضر
شامية لو شامها ... قس الفصاحة لافتخر
ودرى وأيقن أنني ... بحرّ والفاظي دُرر
حبرّتها فغدت كزه ... ر الروض باكره المطر
وغلى الشريف بعثتها ... قرأها وانبهر
ردّ الغلام وما استمرّ ... على الجحود ولا أصر
وأثابنيو جريته شكراً وقال لقد صبر

ومن لطائف المنقول ما نقله الشيخ الإمام العالم العلامة الحبر زين الدين أبو حفص عمر بن الوردي رحمه الله تعالى لما دخل دمشق الخروسة في أيام قاضي القضاة نجم الدين بن مصري الشافعي تغمده الله برحمته ورضوانه فأجلسه في صفة الشهود المعروفة بالشباك وكان الشيخ زين الدين يلبس زي أهل المعرفة فاستتراه الشهود فحضر كتاب مشترى فقال بعضهم أعطوا المعري يكتبه فقال الشيخ زين الدين ترسمون أكتبه نظماً أو نثراً فراد استهزأهم فقالوا نظماً فأخذ القوطاس وكتب:

آله الخلق هذا ما اشترى ... محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق ... كلاهما قد عرف من جلق
فباعه قطعة أرض واقعه ... بكورة الغوطة وهي جامعة
لشجر مختلف الأجناس ... والأرض في البيع مع الغراس
وذرع هذي الأرض بالذراع ... عشرون في الطول بلا نزاع
وذرعها في العرض أيضاً عشره ... هي ذراع باليد المعتبرة
وحدها من قبله ملك التقي ... وحائز الرومي حدّ المشرق
ومن شمال ملك أولاد علي ... والغرب ملك عامل بن جهيل
وهذه تعرف من قديم ... بأنها قطعة بيت الرومي
بيعاً صحيحاً لازماً شرعياً ... ثم شراءً قاطعاً مرعياً
بثمان مبلغة من فضّه ... وازنة جيّدة مبيضة
جارية للناس في المعاملة ... ألفان منهما النصف ألف كامله

قبضها البائع منه وافية ... فعادت الذمة منه خالية
وسلم الأرض إلى من اشترى ... فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفريق ... طوعاً فما لأحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور ... فيه على بئعه المذكور
وأشهدا عليهما بذلك في ... رابع عشر رمضان الأشرف
من عام سبعمائة وعشرة ... من بعد خمس تلوها للهجرة
والحمد لله وصلى ربي ... على النبي وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر ... ابن المظفر المعري إذ حضر
فلما فرغ الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله
واعتذروا إليه لما علموا أنه ابن الوردى وأجلسوه في الصلر ولكنهم عجزوا عن رسم الشهادة نظماً وسألوه
ذلك فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول:
قد حضر العقد لذك أحمد ... ابن رسول وبذاك يشهد
تحفة من فوائد كتاب الرشيد كتب إلى يحيى بن خالد، في شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما
تأخر منه جمع من الشكر والاستزادة بأبلغ عبارة وأوجز.
عمرو بن مسعدة كاتب المأمون كتب إليه كتابي هذا وأجناد أمير المؤمنين على أحسن ما تكون عليه طاعة
جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم فقال المأمون لأحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه ألا ترى إلى
ادماجه المسئلة في الأخبار وإعفائه من الإكثار.

إبراهيم الصولي كاتب المعتصم والوائق والمتوكل كان يقول النصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منشئه
وكان يقول الخبر ليومه والطبيخ لساعته والنبذ لسنته.
ومن بديع نثره ما كتبه عن أمير المؤمنين إلى بعض الخارجين يتهددهم ويتوعددهم أما بعد فإن أمير المؤمنين
أناة فإن لم تغن عقب بعدها وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمه والسلام. وهذا الكلام وجازته في غاية الإبداع
وينشأ منه بيت شعر وهو:

أناة فإن لم تغن عقب بعدها ... وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائمه
وكان يقول ما اتكلت في مكاتيبي إلا على ما يتخيله خاطري ولا يجلس في صدري إلا قولي وصار ما
يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهم وقولي من أخرى فانزلوه من معقل إلى عقال وبدلوه آجالا من
آمال فإني ألمته بقولي آجالا من آمال بقول مسلم بن الوليد الإنصاري المعروف بصريع الغواني:
موف على مهج في يوم ذي وهج ... كآته أجل يسعى إلى أمل
وفي المعقل والعقال بقول أبي تمام
فإن باشر الأضحى فبالبيض والقنا ... قراه وأحواض المنايا مناهله
وإن تب حيطاناً عليه فإنما ... أولئك عقالاته لا معاقله

والأفأعلمه سآخط ... عله فآن آوف لا شك قآآله
ومن رقق شعره آن آضر لمنآطرته آهمآ بن المآبر فقآل آرتآلآ:
صآ عني وصدق الآقوال ... وأطآع الوشآة والعآلآ
آآره يكون شهر صآوآ ... وعلى وجهه رأيت آهالآ
فطرب المتوكل وآهتز وآلع عله.
ومن رقق شعره أفضآ قوله :
آنت بآنآس عن تنآ زيارآ ... وشط بليلي عن آنو مزارآ
وآن مقيمآ بمنعرج اللوى ... لآقرب من ليلي وآهآيك آارآ
آآسن بن وهب سئل عن مبيته فقآل شربت البارآة على عقد الشريا ونطآق آوزآ فلما تنبه الصبح نمت
فلم استيقظ إآ بلبسي قميص الصبح.
بآآع الزمان آهمآني آآمآ لله الذي يفض القآر وسمآه الوقآر وعسى آله أن يغسل الفؤآ كآ غسل السوآ.
ومن إنشآته البآآع قآ آوحش اللفظ وكله وآ كره الشئ وليس منه بآ هذه العرب تقول لا آبا لك ولا
يقصدون آآم وويل آمه لآمر آذا هم وسبيل ذوي الآلبآ في آآآول من هآآ الباب أن ينظروآ في آقول
إلى قآآله فآن كآن وليآ فهو للولآ وإن آشن، وإن كآن عآوآ فهو للبلآ وإن آسن.
ومن إنشآه آبي القآسم علي بن آآسن المآروف بالمعربي وصلت الرقعة فآستجفيت النسيم بآإضآفة إلى
لطفآهآ واستثقلت عقوآ اللؤلؤ بآلقيآس إلى آفة موقعهآ.
ومن بآآع إنشآته وغرقت في هوآآس الفكر ووسآوس آآر آآي نسيتكم من شآة آآآر أو لقيتكم من
آآة النصور وآله تعآلى أسأل أن يسقط آنينآ في آشآكي ألم الفراق وإسآآد القلم بمشآفة الفم للقم.
آبو آآسن بن بسآم من إنشآته عآرض آذا همع استوشلت البحآر ونآم آذا طلع تضآلت الشمس والآقمار
وسآبق لا يمسآ وجهه إآ بهيآآب الغيوم وصآرم لا يآلي غمله إآ يآفرآ النآوم.
ضيآآ آآين بن الآآير آجزري وآولته هي الضآآكة وإن كآن نسبهآ إلى العباس وهي آير ءولة آآرجت
للآهر ورعآيآهآ آير أمة آآرجت للنآس ولم يآعل شعارهآ من لون الشبآب إآ تفآؤلآ بآهآ لا آرم وآهآ لا
آرآل مآآوة من آبكار السعآة بآوصل الذي لا يصرم.
وله في القلم فهو الملقب بآآوآ المضممر وآذا آآآت السوآبق في آضآرهآ بلف الغآية ومآ آضر وله لون
آآقق فيه آقول النبوي لو آمعت آآيل في صعيآ لسبقهآ الأشقر.
ومن إنشآه القآضي آآ آآين بن الآآير والمآآنيقآت تفوآ غليهم قسيهآ وآآيل هم آهآ سآعية بآبآهآ إليهم
وعصيهآ وهي للآصون من آآآ آآصوم وآذا أمت آصنآ آكم بآه ليس يآمآم معصوم ومتى آمترى آلق
في آلآ الفتح لم يكن فيها آآآ من المآري وآذا نزلت بسآآة قوم صبآ المنآرين آآعى إلى الوغى فتكلم
ومآ أقيمت صلآة حرب عآآ حصن إآ كآن ذآك آآسن ممن يسآآ ويسلم.

ولقد سهوت عن الصابيء وكان في هذا الفن أمة وهو أبو اسحق إبراهيم بن هلال صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع كان كاتب الإنشاء ببغداد عند الخليفة وعند معز الدولة بن بويه وكان متشددا في دينه واجتهد معز الدولة أن يسلم فلم يفعل وكان يصوم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ واستعمله في رسائله والصابيء عند العرب من خرج عن دين قومه.

قليل للصابيء أن الصاحب بن عباد قال ما بقي من أوطاري وأغراضي إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب الصابيء ويكتب عني وأغير عليه فقال الصابيء ويكتب عني وأغير عليه فقال الصابيء ويغير علي وإن أصبت.

ومن إنشائه ما كتب به إلى أبي الخير عن رقعة وصلت تتضمن أنه أهدى إليه جملا، وصلت رقعتك ففضضتها عن بلاغة يعجز عنها عبد الحميد في بلاغته وسبحان في خطابته وتصرف بين جد أمضى من القدر وهزل ارق من نسيم السحر إلا أن الفعل قصر عن القول لأنك ذكرت جملا جعلته لصفتك جملا وكان المعيدي أن تسمع لا أن تراه صغر عن الكبر وكبر عن القدم يعجب العاقل من حلول الحياة به ومن تأتي الحركة فيه لأنه عظم مجلد قد طال الكالأ ففقدته وبعد بالمرعى عهده لم ير القت إلا نائما ولا عرف الشعر إلا حالما وقد كنت ملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتي للتوفير ورغبتي في التشمير فلم أجد فيه مستبقى لبقاء ولا مدفعا لعناء لأنه ليس بأنثى فتلد ولا بفتى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا بسليم فيبقى فقلت اذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال فأنشدني وقد أضمرت النار وحددت الشفار:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ولست بذلي لحم فاصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ولا بذلي جلد يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ولا بذلي صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصت ووري إلا أن تطالبني بذحل أو يني وبينك دم فوجدته صادقا في مقالته ناصحا في مشورته ولم أعلم من أي أمر به أعجب أمن مطالبته الدهر بالبقاء أم من قدرتك عليه مع عدم مثله أم من هديتك غياه للصديق مع خسارة قدره ويا ليت شعري ما كنت مهدياً لو أني رجل من عرض الكتاب كأبي علي وأبي الخطاب ما كنت مهدياً إلا كلباً أجرب أو قرداً أحذب والسلام.

٥٠ - له من رسالة هو أخفض قدرا ومكانة وأظهر عجزا ومهانة من أن يستقل به قدم في مطاولتنا أو تطمئن له ضلوع في منابدتنا وهو في نشوزه عنا وطلبنا إياه كالمضالة المنشودة والظلامه المردودة وكان له عبد اسمه يمن وكان يهواه وله فيه المعاني البديعة فمن ذلك قوله فيه:

قد قال يمن اسود للذي ... ببياضه استعلى علو الخائن

ما فخر وجهك بالبياض وهل ترى ... أن قد أفدت به مزيد محاسن

ولو أن منه في خالاً زانه ... ولو أن منه في خالاً شاني

الصاحب بن عباد من بلاغته المخترعة إنه قيل له ما هو أحسن السجع، قال ما خف على السمع قيل مثل ماذا، قال مثل هذا. وسئل ابن العميد عن بغداد فقال بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد.

وله جواب كتاب وصل كتاب مولاي فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح وواسطته أنفس من واسطة

العقد وخاتمه أشرف من خاتم الملك. ومن شعره يرثي كثير بن أحمد الوزير:
يقولون قد أودى كثير بن أحمد ... وذلك رزء في الأنام جليل
فقلت دعوني والعلا نبكه معاً ... فمثل كثير في الرجال قليل

القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم علم المتقدمين والمتأخرين وزير السلطان صلاح الدين بن أيوب الملقب بالملك الناصر تمكن منه غاية التمكين وبرز في صناعة الإنشاء على المتقدمين قال ابن خلكان في تاريخه أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها.

وذكر ابن خلكان في تاريخه أيضاً أن العماد الكاتب قال في الخريدة هو كالشريعة الخمدية التي نسخت الشرائع وكانت ولادته خمس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة بمدينة عسقلان وولي أبوه القضاء بيسان فلهذا نسبوه إليها.

وقال الفقيه عمارة اليميني في كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية في ترجمة العادل بن الصالح بن رزيق ومن أيامه الحسنة التي لا توازي بل هي اليد البيضاء التي لا تجازى خروج أمره إلى والي الاسكندرية بإحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان فإنه عروس الدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وتوفي الفاضل في ليلة الأربعاء سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن في تربة بسفح المقطم في القرافة الصغرى.

قال ابن خلكان كان القاضي الفاضل من محاسن الدنيا وهيئات أن يخلف الزمان مثله. فمن إنشائه المرقص المطرب قوله وقد كان يقال أن الذهب البريز لا تدخل عليه آفة وإن يد الدهر البخيلة به كافة وأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال فلو ملكتم الدهر لامتنعتم ليلاليه أداهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شمسوه وأقماره دنابر ودراهم وأيام هذه البشارة بالزيادة الوافرة، وينشق من طيها نشرًا فقد حملت له من دولتكم أعراس ومآثم فيها لا على الأموال مآثم والجود في أيديكم خاتم ونفس حاتم في نقش ذلك الخاتم.

ومن إنشائه في كاحل كأنه غاسل يدخل إلى إنسان العين بحنوط من كحله الملعون لعله المتون، ويدرجه في كفن من الخرقه السوداء التي يلبسها سواد العيون، ينقل العين إلى بياض الثغور ويسلبها سواد اللما وما برحت عصيه مردودة ولديها عصا العماء، قد انتهى إلى فوق ما يضرب به المثل، إذ قيل يسرق الكحل من العين فهذا يسرق العين من الكحل، وهو لص من أكابر اللصوص وسموا كحالين وهم صاغة لما يركبون فوق العين من الفصوص قد أودع كحله حزن يعقوب فمن كحل منه أبيضت عيناه وجد معجزة القميص اليوسفي، فلو مروا به على ناظر انقرحت جفناه وهو من الذين إذا رفعوا أميالهم فإنما هي لشمس العيون مزولة، وإذا ألج أحدهم الميل في المكحلة فهو أولى بالرجم ممن ألج الميل في المكحلة، ومن إنشائه سقى الله ثراه والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور، والحر وصاليه في هذا النحو جار ومجور، والمهامه قد

نشرت فيها ماء السراب، وزخرفها بحر ماء ولد لغير رشدة على غير فراش السحاب، وحر الرمل قد منع
حث الرمل، ونحن في أكثر من جموع صفين إلا أننا نخاف وقعة الجمل، ووردنا ماء هذه العيون وهو كالخابر،
يغترف منه الجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطيء نقرة مقتله، وهو مع هذا قليل كأنه مما جادت به
الآفاق في ساحات النفاق لا في ساعات الفراق فيا لك من ماء لا تتميز أوصافه من التراب ولا يرتفع به
فرض التئيم كما لا يرتفع بالسراب، ولا يعد ما وصف به أهل الجحيم في قوله تعالى وإن يستغيثوا يغاثوا
بماء كالْمُهْل يشوي الوجوه بئس الشراب، فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلا لا يرد الجواب،
بل يندبون ميتا قد حال بينه وبينهم التراب، يجهز للدفن ونعشه المراد ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك
خلاف المعتاد. وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع. على أنه لو كان دمعا لما بلّ الأجفان، ولو كان مالا لما
رفع كفة الميزان.

ومن إنشائه إلى أن يرد كتب العسكر وأعلامها من مدات ألفاته، ورؤوس العدا قطعات همزته.
ومنه فبنت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسته وطارت إليهم عقبان الخيول قوادمها القوائم
ومخالبها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنما تطلب سوادها، وقصدت أنهار السيوف صدورهم
لتروي أكبادها.

ومنه وما أحسب الأقلام جعلت ساجدة إلا لأن طرسه محراب، ولا أنها سميت خرسا إلا قبل أن ينفث سيدنا
في روعها رائح هذا الصواب، ولا أنها اضطجعت إلا ليعننها ما ينفخ فيها من روحه من مرقدتها، ولا سودت
رؤوسها إلا لأنها أعلام عباسية وتناولتها الحضرة بيدها، لا جرم أنها تحامي الحمى وتسفك دما وتحقق دما
وتتشيع بها يده عنانا وترسلها، فتعلم الفرسان أن في الكتاب لفرسانا، وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الألسنة
أن في الأيدي كما في الأفواه لسانا.

قلت ومن مخترعاته قوله وأن ادعى سحر البيان أنه يقضي أيسر حقوقه، ويشمر ما يجب من شكر فروعه
وعروقه، كنت أفصح باطل سحره وأذيقه وبال أمره، وأصب الخواطر السحارة على جذوع الأقلام،
وأعقد ألسنتها كما تعقد السحرة الألسنة عن الكلام.

ومن إنشائه في وفاء النيل المبارك عن الملك الناصر صلاح الدين نور الله ضريحه نعم الله سبحانه وتعالى من
أضوائها بزوغا، وأضفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا، وأسناها منفوعا وأمدتها بحر مواهب وأضمنها حسن
عواقب النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويقبضها مله وجزره ويربي النبات حجره ويحيي مطلقه
الحيوان ويحيي ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان وينشر مطوي حريرها وينشر مواثمها ويوضح معنى قوله
عز وجل وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا فاسفر وجه الأرض وإن كانت
تنقب، وأمن يوم بشره من كان خائفا يترقب، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التي حققت الظنون ووفت
بالرزق المضمون أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقد أعلمناك لتوفي حقه من الإذاعة وتبعده من الإضاعة،
وتتعرف على ما يصرفك في الطاعة، وتشهر ما أورده البشير بأبانتته وتمده بإيصال رسمه مهنا على عادته.
ورسم لي في الأيام المؤيدية وأنا منشىء الديوان الشريف المؤيدي سنة تسع عشرة وثمانمائة أن انشىء رسالة

بوفاء النيل المبارك لم أسبق إليها ممن تقدمني بالديار المصرية حتى أن المقر الأشرف المرحومي
القاضي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي سقى الله ثراه قرأ على المسامع الشريفة هذه الرسالة
المسطرة ورسالة من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان غرضه في ذلك إختبار الألفاظ والمعاني من
الرسالتين فأنشأت بعد المستعان بالله. ونبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي علمنا فيه بالحسنى وزيادة،
وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجهل عادة، وخلق أصابعه ليزول الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة؛ كسر
جسره فأسمى كل قلب بهذا الكسر مجورا؛ وأتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدي مكسورا،
دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف
غصونها إليه، وشب خريره في الصعيد بالقصب؛ ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب، فضرب الناصرية
واتصل بأم دينار، وقلنا أنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار، وأطال الله عمر زيادته فتردد في الآثار،
وعمته البركة فأجرى سواقي مكة إلى أن غدت جنة تجري من تحتها الأنهار، وحضن مشتهى الروضة في
صدره وحنا عليها حنو المرضعات على القطيم:
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألد من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله
إلى جنات النخيل والعناب، فائق النوى والحب فأرضع جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأب،
وصافحته كهوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية، ولبس الورد تشريفه وقال أرجو أن تكون شوكتي في أيامه
قوية، ونسي الزهر بحلاوة لقائه مرارة النوى، وهامت به مخدرات الأشجار فارخت ضفائر فروعها عليه من
شدة الهوى، واستوفى النبات ما كان له في ذمة الري من الديون ومازح الحوامض بحلاوته فهام الناس
بالسكر والليمون، وانجذبت إليه الكبد وامتد ولكن قوي قوسه لما حظي منه بسهم لا يرد، ولبس شربوش
الأترج وترفع إلى أن لبس بعده التاج وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراح فتناول
مقالم الشنبر وعلم بأقلامها ورسم لخبوس كل سد بالإفراج وسرح بطائق السفن فنخفت أجنحتها بمخلق
بشائره وأشار بأصابعه إلى قتل اخل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره وحظي بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه
فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه بعد ما تفقه واتقن باب المياه ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الجسر
وزاد بسرعته فاستحلى المصريون زائده على الفور ونزل في بركة الحبش فدخل التكرور في طاعته وحمل
على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته وأظهر في مسجد الخضر عين الحياة فأقر
الله عينه وصار أهل دمياط في برزخ بين المالح وبينه، وطلب المالح رده بالصدر وطعن في حلاوة شمائله فما
شعر إلا وقد ركب عليه، ونزل في ساحله وأمست واوات دوائه على وجنات الدهر عاطفة، وثقلت أرداف
أمواجه على خصور الجواري فاضطربت كالحائفة، ومال شبق النخيل إليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالقه،
وأمست سود الجواري كالحسنات في حمرة وجناته، وكلما زاد الله في حسناته، فلا فقير سد إلا حصل له من
فيض نعمه فتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح، ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة
وترفع، فقال له المقياس عندي قبالة كل عين أصعب، فنشر أعلام قلوعه وحمل وله على ذلك الخريز زمجره

ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزم المؤيدي وكسره، وقد أثر ذا المقر بهذه البشرى التي عم
فضلها برا وبحرا، وحدثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرنا، ليأخذ حظه من طيبات ذلك
النسيم أنفاسا عاطرة، والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعة الكريم ليصير بها في كل وقت مشنفاً، ولا
برح من نيلها المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين في وفا.

قلت تقدم قلبي أن الشيء بالشيء يذكر وقد ذكرت بوصف النيل المبارك هنا رسالتي البحرية التي كتبت
بها إلى علامة عصرنا الشيخ بدر الدين الدماميني فسح الله في أجله من القاهرة الخروسة إلى ثغر الاسكندرية
الخروسة عند دخولي إليها من ثغر طرابلس الشام وقد عصت عليّ أنياب الحرب بثغرها شائبا من أهوال
برها وبحرها وذلك في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة.

وهي يقبل الأرض التي سقي دوحها بتزول الغيث فأثر القواكه البدرية، وطلع بدر كمالها من المغرب
فسلمنا لمعجزاتها الحمدية، وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسمنا على العقد بنظمه المستجاد، وأنشد وقد
ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد:

لقد حسنت بك الأيام حتى ... كأنك في فم الدهر ابتسام

فأكرم به مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام، ومدينة علم تشرفت بالجناب الحمدي فعلى ساكنها
السلام، ومجلس حكم ما ثبت للباطل به حجة، وعرفات أدب إن وقفت بها وقفة كنت على الحقيقة ابن
حجة، وافق معال بالغ في سمو بدره فلم يقنع بدون النجوم، وعيدان عرشه تجول به فرسان الفصاحة من بين
مخزوم، وتالله ما لفرسان الشقراء والأباق في هذا الميدان مجال، وإذا اعترفوا بما حصل للفراس المخزومي
عندهم من الفتح كفى الله المؤمنين القتال، وينهى بعد أدعية ما برح المملوك منتصباً لرفعها، وثغر ثلاثية ما
لسجع المطوق في الأوراق النباتية حلاوة سجعها، واشواق برحت بالمملوك ولكن تمسك في مصر بالآثار.
وابرح ما يكون الدهر يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

وصول المملوك إلى مصر محتمياً بكنانتها، وهو بسهام البيت مصاب مدعور لما شاهده من المصارع عند
مقابلة الفرسان في منازل الأحباب مكلماً، من ثغر طرابلس الشام بأسنة الرماح محمولاً على جناح غراب،
وقد حكم عليه البين أن لا يبرح من سفره على جناح،

وكان في البين ما كفاني ... فكيف بالبين والغراب

يا مولانا لقد قرعت من هذا الثغر بأصابع السهام، وقلع منه ضرر الأمن ولم يبق له بعد ما شعر به البيت
نظام، وكثرت الحرب في ثناياه عن أنياب، وأقلعنا منه مع أنهم لم يتركوا لنا فيه ثنية ولا ناب، وأمست
شهب الرماح قافية على آثارنا والسابق السابق منا الجواد، ولزمت الروى من دماننا لتلا يظهر لقافيتها عند
نظم الحرب سناد، وفسد انسجام تلك الأبيات المنظومة على ذلك البحر المديد، وبدلت جنتها بنار الحرب
التي كم تقول لها هل امتلأت وتقول هل من مزيد، ونفذ حكم القضاء وكم جرح خصم السيف في ذلك
اليوم شهوداً، واتصل الحكم بقضاء القضاة فلم يسلم منهم إلا من كان مسعوداً، ووقع غالبنا في القبض من
عروض حربهم الطويل، وتبدلت محاسن طرابلس الشام بالوحشة فلم نفارقها على وجه جميل، وتالله لم

يدخلها المملوك في هذه الواقعة إلا مكرها لا بطل، وكم قلت لسارية العزم لما كشف لي عن مضيق سهلها
يا سارية الجبل، ولم يطلق المملوك عروس حماته إلا جبرا أظهروا به كسره، والعلوم الكريمة محيطة كيف
يكون طلاق المكره. يا مولانا:

بوادي حماة الشام من أيمن الشطّ ... وحقّك تطوي شقة الهمّ بالبسط
بلاداً إلى ما ذقت كوثر مائها ... أهيم كأنّي قد ثملت بإسفنط
ومن يجتهد في أنّ بالأرض بقعة ... تشاكلها قل أنت مجتهدٌ مخطي
وصوب حديثي ماؤها وهوؤها ... فإن أحاديث الصحيحين ما تخطي
بمعصمها إن دار ملوي سوارها ... فما الشام بالخلخال أو مصر بالقرط
تنظم بالشطين درّ ثمرها ... عقوداً لها العاصي رأيناه كالسمط
وترخي علينا للغصون ذوائباً ... يسرّحها كفّ النسيم بلا مشط
ومد مدّ ذك النهر ساقاً مدملجاً ... وراح بقش النبت يمشي على بسط
لونا خلاخيل النواير فالتوت ... وأبدت لنا دوراً على ساقط البسط
سقى سفحها إن قلّ دمعي سحابة ... مطّبةً بالدمع منهلةً النقطة
ويا أسطرّ النبت التي قد تسلسلت ... بصفحتها لا زلت واضحة الخط
ولا زال ذك الخط بالطلّ معجماً ... ومن شكل أنواع الأزاهر في ضبط
لويت عناني في حماها عن اللوى ... وهمت بما لا بالخصب والسقط
ولّد عناق الفقر لي بفنائها ... وفي غيرها لم أرض بالملك والرهط
منازل أحبابي ومنبت شعبي ... وأوطان أوطاري بما ورضا سخطي
نعمت بما دهرًا ولكن سلبته ... برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي
وقد جاء شرط البيت أي أغيب عن ... حماها لقد أوفى فوادي بالشرط
وحطّ عليّ الدهر عمداً وشالي ... إلى غيرها صبراً على الشيل والخطّ
وسبحة جمع الشمل كان لنا بها ... منظّمة لكنّ قضى الدهر بالقرط
أمثّل شوقاً شكلها في ضمائري ... فتنبّع عيني ذلك الشكل بالنقط
وقد سار يمشي الهمّ نحوي بسرعة ... فيا ليت له لو كان في مشيه يبطي
وأصبح نظمي راجعاً بي إلى ورا ... كأنّي في الديوان أكتب بالقبطي

يا مولانا وأبشك ما لقيت من أهوال هذا البحر وأحدث عنه ولا حرج، فكم وقع المملوك في أعاريضه في
زحافٍ تقطّع منه القلب لما دخل إلى دوائر اللجّ، وشاهدت منه سلطاناً جائراً يأخذ كل سفينة غصباً،
ونظرت إلى الجوّاري الحسان وقد رمت أزرق قلوبها وهي بين يديه لقلة رجائها تسبي، فتحققت أن رأى من
رجاء يسمى في الفلك جالساً غير صائب، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب، وزاد الظمأ
بالمملوك وقد أخذ بالبحر سبيلاً، وكم قلت من شدة الظمأ يا ترى قبل الحفرة هي أطوي من البحر هذه

الشقة الطويلة.

وهل أبأكر بحر النيل منشراحاً، ... وأشرب الحلو من أكواب ملاح
بحر تالطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف وحملنا على نعش الغراب، وقامت واوات دوائره مقامع
فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب، وقارن العبد فيه سوداء استرقت موالينا وهي جارية، وغشيه
منها ما غشيه فهل أذاك حديث الغاشية، واقعها الحرب فحملت بنا ودخلها الماء فجاءها المخاص، وانشق
قلبيها لفقد رجاها وجرى ما جرى على ذلك القلب وفاض، وتوشحت بالسواد في هذا الماء ثم سارت على
البحر وهي مثل، كم سمع للمغاربة على ذلك التوشيح زجل، برح ما بين ولكن تعرب في رفعها وخفضها
عن النسر والحوت، وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة من تبطنها عد من المتصبرين في تابوت، تأتي
بالطباق ولكن بالقلوب لأن صغيرها كبير وبياضها سواد، وتمشي على الماء وتطير مع الهواء وصالحها عين
الفساد، إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوبها بالعود، ورقص على آلتها الحداة فتقوم قيامتنا من
هذا الرقص الخارج ونحن قعود، نتشامم وهي كما قيل أنف في السماء وإست في الماء، وكم نطيل الشكوى
إلى قامة صاربيها عند الميل وهي الصعدة الصماء، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين، وتتصابي إذا هبت
للصبا وهي بنت أربعمائة وثمانين، وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال، وتدعي براءة
الذمة وكم استغرقت لهم من أموال، هذا وكم ضعف نخل خصرها عن تتاقل أرداف الأمواج، وكم وجلت
القلوب لما صار لأهداب مجاديفها في مقلة البحر احتلاج، وكم أسبلت على وجنته طرة قلعتها فبالغ الريح
في تشويشها، وكم مر على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها، تتعاضم فتتهزل إلى أن ترى
ضلعها من السقم تعد، ولقد رأيناها بعد ذلك قد تبت وهي حمالة الخطب في جيدها جبل من مسد،
وخلص المملوك من كدر المالح إلى النيل المبارك فوجده من أهل الصفا وإخوان الوفا، وتنصل من ذلك
العدو الأزرق ذي الباطن الكدر، وجمع من غدوبة النيل ونضارة شطوطه بين عين الحياة والخصر، وتلا لسان
الحال على المملوك وأصحابه أدخلوا مصر إن شاء الله آمين وقضي الأمر، وقيل بعداً للقوم الظالمين.
وبعد فإن المملوك يسأل الإقالة من عثرات هذه الرسالة فقد علم الله أنها صدرت من فكر تركه البيت
مشتتاً، وأعضاء مع كثرة بردها قد خرجت من البحر عارية في فصل الشتاء، وليستر عوراتها بستائر الحلم
وينظر إليها من الرحمة بعين، وليكن ضربها بسيف النقد صفحا فقد كفى ما جرحت بسيف البين، وتالله لم
يسلك المملوك هذه الجادة إلا ليجد له سبيلا إلى نهار من عذب تلك الموارد، ويعود على الضعيف الذي
قطعت صلاته من صفاء هذا المشرب عائد، ويصير العبد مسعوداً إذا عد للأبواب العالية من جملة الخدام،
ويحصل لكبه الحراء من ذلك النسيم الغربي برد وسلام، والله تعالى بمن بقرب المشول بين يديه، ليحصل
للمملوك بعد التخلص من الين حسن الختام.

القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك وإن الشوق بحر وقلبه والله لغريق بأمواجه وجر صدره المظلم
بسراجه.

ومن انشائه فالإسلام من طلقائه، والكفر مجاهد ولكن باتقائه، وسيوفه تحسن في الأجسام البسط وفي
الأرواح القبض، ورماحه تكاد لطلوها تمسك السماء أن تقع على الأرض.

ومن انشائه وكيف لا يحمد المملوك تلك الأشواق وهي تقربه من المولى بالتخييل إذا أبعده الأيام، وتمثل المقام الكريم فيقابل كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام، ويرفع ناظره فلولا نظره إليه لكانت عينه مطرقة، وستور أهدايه مسبلة، وأبواب جفونه مغلقة، ولولا اشتغالها بمطالعة طلعتة لا لتهب من دموعها بمياه محرقة، فهو منها في نار وجنّه، مغلول بغلّه مطوّق بمنّه.

ومن انشائه ولقد أنساه فراق مولاه حروف المعجم فما يعرف منها حرفاً أو عاقب خاطره الذي كفر بالبلاد فاسقط عليه من سمائها كسفاً، شوق ما خطر مثله على قلب بشر، ودمع ما مر على بصر إلا ومر كلمح بالبصر، ولسان لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعا على ظالمه فقد انتصر.

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر خليفة القاضي الفاضل. انشائه قوله نعلمه بفتوحات استطعم الإيمان حلاوتها من أطراف المران، واستطق الإسلام عبارتها من ألسنة الخرسان، وذلك بفتح حصن الأكراد الذي كان في خلق البلاد الشامية غصة لم تسع بمياه السيوف المجردة، وشجى في صدرها لم تقوّمه أدوية العزائم المفردة.

ومن انشائه بابطال الحشيش بعد الخمر نعلمه أن المنكرات أمرنا أن تملأ الصحائف باجرها وتفرغ الصحاف، وأن لا يخلوا بيت من بيوتها من كسر أو زحاف، وقد بلغنا الآن أنها اختصرت، وإن كلمة الشيطان بالتعريض عنها ما قصرت، وأن أم الخبائث ما عقلت، وإن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكس عن ثديها ما فطمت، وإنها في النشوة ما خيب إبليس مسقاها، وإنها لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاه، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بلدهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار، وإن ذلك فشا في كثير من الناس وعرف في عيونه ما يعرف من الإحمرار، في الكأس، وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى، وإذا مشوا يقدمون لفساد عقولهم رجلاً ويؤخرون أخرى، ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع، ويؤدب مستعملها في المحافل والجامع، حتى تنتبه العيون من هذا الوسن، وحتى لا تشتهي بعدها خضراء ولا خضراء الدمن.

ومن انشائه عن لسان الشريف إلى الفرنج وقد أخذت شواقي السلطان وفرق بين من يتصيد بالصقور من الخيل العراب، وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب، فلئن أخذتم لنا قرية مكسورة، فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وقد قال الملك فقلنا وعلم الله أن قولنا من الصحيح، وأتكل واتكلنا وأين من اتكل على الله ممن اتكل على الريح.

ومن انشاء الصدر عز الدين بن سينا في بشارة بكسر عساكر الفرنج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة فلا روضة إلا درع، ولا جدول إلا حسام ولا غمامة إلا نقع، ولا وبل إلا سهام، ولا مدامة إلا دم، ولا نغم إلا صليل، ولا معربد إلا قاتل ولا سكران إلا قتيل، حتى أنبت كافور الرمال شقيقاً، واستحال بلور الحصاء عقيقاً، وأزدهمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً وضرب النقع في السماء طريقاً:

وضاقت الأرض حتى كادها ربهم ... إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

قلت ذكرت بهذا التلاعب المطرب من انشاء الصدر عز الدين تلاعب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في شفاعه ما نسج على منوالها وهي ادام الله نعمه مولانا ولا زال علّم علمه مرفوعاً أبداً، وبناء مجده منصوباً بخفض العدا، ولا برحت أقلامه لأفعاله الشك جازمة، ولأعدائه متعدية، ولآرائه لازمة.

وأما بعد فإن فلانا حضر وادعى أنه رخم في غير النداء، وجزم والجزم لا يدخل في الأسماء، واستثنى من غير موجب فخفض والخفض من أدوات الاستثناء، وذكر أن العامل الذي يدخل عليه منعه من الصرف ولزمه لزوم البناء، واجتمع معه في الشرط وافرده بالجزاء، والمأثور من مكارم مولانا نصب محله على المدح لا على الإغراء، ورفع اسمه المعري من العوامل على الابتداء، ففيه من التمييز والظرف ما يوجب العطف، ومن المعرفة والعدل ما يمنعه من الصرف، ولا زال مولانا بابا للعطف والصلة، ومآثر مكارمه متصلة لا منفصلة.

قلت قد انتهت الغاية هنا إلى التحلي بالقطر النبائي وقد عني أن أورد هنا حظيرة الأنس إلى حضرة القدس فإنها من بديع إنشائه وهي في رحلته ألى القدس الشريف مع صاحب أمين الدين.

وهي الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه، وحامي حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنيه ودينه، ومن إذا رفعت راية مجده تلقاها وعراة براعته بيمينه وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بشمينه، وإذا نوى في السيادة فعلا أمضى العزم السني قبل دخول سينه، وإذا حمل بنائه القلم رويانا عن ابن بحر كتاب بيانه في الفضل وتبيينه، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أيد بالروح الأمين، وعصده بوزراء آله وصحبه الغر الميامين، وسلم عليه وعليهم سلاماً باقياً إلى يوم الدين.

أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى لما يريد من صلاح عباده، وانتظام هذا العالم الأرضي في سلك سداده، وتقام أمر هذا السواد الأعظم بمديرة تماماً بخط الطرس بسواده، جعل لكل دولة قائمة وزيراً قائماً بتدبيرها، مفرغاً غص القلم بتثمينها، مفنداً أمر سلطانها، ومبلغاً أحكام عدلها وإحسانها، يني ممالكها على الأسل من أقلامه، ويحوط أطرافها إحاطة الزهر بكمامه، ويتحفها بأوصاف وزيرية يعقد عليها العدل خنصره ويتضح بها وجه الاستحقاق من إجمامه.

وكان صاحب هذه الولة التي خضعت لها الدول وفاضل أمرها الدليل وراسخ دوحها الذي ما مال مع الهوى، وقديم صحائفها الذي تلا تسديده ما ضل صاحبكم وما غوى، وضابط أمورها الذي طال ما استشرفت إليه إسماع وأبصار، وانتصرت به تقديم هجرته فلا غرو أن صار من المهاجرين بها والأنصار، المقر الأشرف الصاحبي والوزيري الأميني أعلى الله تعالى أبداً شأنه ورفع فوق الفرقدين مكانه، وزان بأقلامه أقاليم مصر فهذه سهام وهذه كنانه، ممن استدعته رواة الخافل، وتردد في المناصب العلية تردد الأقمار في المنازل، وجمع الأوصاف الوزيرية جمع أبي جاد للحروف، وتنبه قلبه ونامت ملء أجفانها السيوف، وعرف بالسيادة والزهد فعلى كلا الحالين هو السري وقدره معروف، وكنت أود لو نقلت الشهادة بصفاته عن الخبر إلى المعاينة، وجمعت بملازمة مقره الشريف الظاهر الوصف باطنه، ورويت الأخبار عن لسنه، وجيت الورد من غصنه، بل التبر من معدنه هذا وأشغاله بتدبير الدول شاغله، وأيام البعد عند فراغه بيني وبين القصد حائله.

فلما عزم بدمشق الخروسة سنة خمس وثلاثين على زيارة القدس الشريف اطلع رأيهُ الشريف على ما في خاطري، وأمرني بالمسير في ظل ركابه فسر على الحقيقة سائري، وكاشف ولا ينظر التكشف لمن كثرت زواياه في البلاد، ونظر لحالي ولا ينكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد، وكان له في استصحابي مقصد تقبل الله عمله الصالح ومتجره الراح، ذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي، مقيماً بين المقابر إقامة تفتت حبة قلبي على قطعة كبدي، ساقياً روض الحزن بغمام الجفون، باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون، أطلب قلبي في التراب وأنشده وأطرح صوت الصدا فينشدني وأنشده:

يا لهف قلبي على عبد الرحيم يا ... شوقي إليه يا شجوي يا دائي

في شهر كانون وافاه الحمام لقد ... أحرقت بالنار يا كانون أحشائي

وقال أيضاً:

أهاً لعقدٍ قد وهى سلكه ... وكان ذا درّ بعد الرحيم

فليتني لاقيت عنه الردى ... وعاد ذاك الدرّ درّاً يتيماً

فاقتضى تدقيق النظر الصاحبي في اسداء العوارق، وابداء عواطف الفضل وفضل العواطف، أن ينزع عني بصحبة ركابه الكريم لباس الباس، ويشغلني بمشاهدة الأنس القابل ألا هكذا فليصنع الناس، وينهضني الناس وينهضني بالإنعام من حوادث الزمن، ويقرب مثل قربانا لا يفطن لمثله إلا من ومن، فيا لها سفرة قابلها وجه الأقبال بالسفور، وتلا فضلها الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، ومد فيها الأنعام علي ظلاً ظليلاً، وملاً بيتي وعيني دقيقاً وجليلاً، وأمرني أن أصف له المنازل والطرق وصفا كقصده الجميل جميلاً، فسرنا وأيدي السعد قد ذلت الطرق بل طوقها، وقدمت وعود الآمال بل أنجزتها، والأرض قد شرعت في لباس حليها وحللها، ومراعي الربيع قد وعدت حتى الشمس لتسمين حملها، والشتاء قد آن أن يقوض الخيام، والأفق قد شمر للأنصراف ذيل الغمام، ومبدأ الروض أحق بقول أبي الطيب المستبي:

لقد حسنت بك الأيام حتى ... كآئك في فم الدهر إبتسام

فأتينا الكسوة فلبسنا منها للمسرة ثياباً سابغة الذبول، وطفنا منها بكعبة الفضل طوافاً واضح الإقبال والقبول، وقلنا للمقاصد تباشري بالخطوة، ولعيون الإقبال تأملني فما أحسن الكعبة في الكسوة، ومررنا والخيال تجمز جزءاً، وجزنا بالصنمين فهمت أن تفخر بمواطئ خيلنا على اللات والعزى، وصعدنا منزلة رأس الماء فكاد الطرب يهزه هزاً، ورأينا بينها وبين منزلة المغير روضنا قد أخضر جناهما، وطرزت بآثار طرف ثيابها، فأمت بالقول فقلت:

سقى الله أرضاً طرفها مثل طرزها ... وسائرها بردٌ من الوشي أخضر

تذكرت أحبابي بمثوى بريدها ... فعيني رأس الماء وجسمي المغير

ووافينا الحصين وقد راغت الخيل روغان أبيه، وتلقننا بالبشر والبشرى وجوه أهليه، وسألونا أن نريح عندهم الركاب من الأين، وعجلوا بالضيافة على الفتوح ولا ينكر تعجيل الفتوح للحصين، ووجدنا هناك فقيراً مغرباً حسن التلاوة، وقد عجز عن المسير، وأرتد طرف قصده عن القدس خاسئاً وهو حسير، فأمرت

له الصدقات الصحابية بمركوب ونفقة تعينه على السفر والإقامة ولحقه في ذلك فقير عجمي ينشد لسان حاله:

بي مثل ما بك يا حمامة

فلم أر مثلها صدقات تجود من الزاد والراحلة بالغيث والبرق، ولا مثله متصدقاً يجلس لحظة واحدة فيركض نداه في الغرب والشرق، وعجنا بعجلون فحشر الناس لدينا ضحى، وجاء أهل المدينة يستبشرون فرحاً، وارتفعت الأصوات بالأدعية الوافية، وأردنا أن نكتم دخولنا البلد وكيف تكتننا وهي ذات عين صافية، ثم نزلنا بالخيام في مرجتها الخضراء تحت قلعته الغراء وهي في معارج السحب صاعدة شائدة، في الجو كأنها في السحر على عمود الصبح قاعدة، مضيئة بين عقود الأنجم كأنها درتها اليتيمة، جالسة على سرير الخيل تنادم الفرقدين كأنها جذيمة، فنظر في المصالح، وميز بالعدل بين الصالح والطالح، وعجل من عجلون المسير فلم ينظر بالغادي الذي هو رائح، وأشرفنا على بركات القصد المنجية واقتحمنا إلى الفور عقبة سهلها السعد فلا تقل ما أدراك ما العقبة واستفتحنا المزارات التي نوبنا قصدها وطوبى غورها ونجدها، بمشهد صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه فترامينا إليه بالعزم الفاخر، وزار أمين هذه الأمة الأول أمينها الآخر، وأجرى أمر مشهده على سنن الصلاح، ونظر في مرتبه بعين العدل وأعانه بيد السماح، وجعل والي الناحية عبيدة وما جعل لشاهده المعروف بالجراح، وسلطنا جانب الغور المطور فاعجبنا رياً ورواء، وكنا نظن الماء فيه غوراً فوجدنا الغور ماء، وخضنا في حديثه وخاضت الخيل، وتركنا عقباته كالمغلقة ولما إلى السهل كل الميل، وتلقينا كل ذي قصد ببشر والصبح ولم نقل أهلك والليل، وما زلنا كذلك لا نمر بواد إلا أتت مع الإبتها بطول العمر ماله وأرامله، ولا بناد إلا قامت للدعاء رجاله وأطفاله وحامله، ولا بولاية إلا ارتج غدرها، ولا ببلدة إلا زها على التي بين السماكين بدرها، ولا ماش إلا حملة المعروف، ولا عابر سبيل إلا آنسه من النعماء صنوف، ولا جائز إلا شملته جائزة، ولا منقطع بمفازة، إلا وعقباه فائزة، ولا ظبية من ظبيات مشق إلا والمكارم تواليها وتواليها، وتوجدها في القفار كما توجدها أولياء الله فيها، إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام، وسبقنا إليه طرة الصبح تحت أذيال الظلام، وخفّ بنا جناح الشوق والسوق حين دنت الخيام من الخيام، وألقينا باب حرمه عصي السفر، وألقت هناك رحالها ركائب المطر، وزرنا باب الرحمة من الأرض، وزارنا باب الرحمة من السماء، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى فمشينا على الماء وحمدنا الأوطان والأقطار، واستمرت السحب حتى عادت كحجر موسى تنفجر منها الأمطار، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها، ويسبح فيها بالغدو والآصال سكانها، وكان معنا شخص يلقب بالخلد سكن بيتا حسنا، وغمّض عينه على لارفاق تغميضاً بيّنا.

فقال مولانا صاحب ما تقول في بيته قتل ما أقول في جنة الخلد وشكا قوم عشرة هذا الرجل فكتبت على ورقتهم أصبروا على ما يفعلون، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعلمون، ثم دخل الناس على الأبواب الصحابية افواجا، وما ترك أحد منهم منهاجاً ذا ناحية إلا منهاجاً ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من غمامه، وحسر عن وجهه للأبصار فضل ثلامه، وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين

ومشاهدين، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت، ونثرنا على مواطئ القدم دموعاً عزت بلمسها ولا نقول هانت، ونظرنا آثار قديمة تذهل عيون النظارة، وآثاراً متجددة في هذه الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة، ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها، ووقف في الطريق نصف الزيارة فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف نستلم كالحجاج أركانه، ونقلب وجوها في سماء سقف يكاد يمحط علينا لجينه وعقايانه ونشاهد رخاماً بلغ في الحسن والحل الأقصى في الأقصى، وتمت به في بهجه المكان زيادة تخالف قول النجاة: إنَّ في الترخيم نقصا، فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها، وتطوف على مواضع المنافع بنفسها، فتلك نعمة مقيمة يكافئ الله عنها في دار المقامة، وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة، ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره، وأبقاه سيفاً يقف كل ذي قدر عند حله فلا يجاوز مقداره، من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده، ودار حديث يروي فيروي الأسماع الطامنة مورده، وخانقه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل ورباط ومكتب هما كما قيل:

ثمَّالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل
وقلت فيها:

بنيت رباطاً للنساء ومكتباً ... يدير على الأيتام سحب الفواضل
فلله من هذا وذاك كما ترى ... ثمَّالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

فجنينا من تلك الحاسن بساتين دانية القطوف؛ ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك اللجنة تحت ظلال السيوف؛ وشرعت صدقات السر والجهر؛ وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نمر؛ وغص بفقرائهم المكان والطريق؛ وجاءوا رجالاً ونساء وعلى كل ضامر من العصي يأتين من كل فج عميق؛ فوضع في مواضع النوال؛ وقدرت الكساوي حتى على المستورين والأطفال؛ هذا وكم ثياب صوف أعرض أشراقها عن مقال اللاحين؛ واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين؛ وجاءت الدراهم بعد التفاصيل بالجمال؛ وقال جودها لحاتم هذي التي لا ناقة فيها ولا حمل.

ومما قلت في ذلك :

لله حال امرئٍ مقترٍ ... قضيت في القدس بتنفيسه
ودرهمٍ ولَّى ولكنه ... قد أخذ الأجر على كيسه

ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقات الصحابية أجراها، وشرع في بناء الرواق على سطح الزاوية الصحابية باب الحرم الشريف، وأخذ راقم الرخام في التوشيع والتفويف فيها لها ألواحاً كتب فيها من الحسن كل شيء، واطرد ماء رونقها فكأن العين منها في ماء وقيء، ويا له رواقا شاق وصفه وراق، ورفع محله فقال لسان المتصوف حبذا رفاعي الرواق، ثم رتب للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد، وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مُريد، وورزنا في اليوم السابع من الإقامة وقد قدمنا نقصد الخليل صلوات الله عليه بالنية الجليلة، وطربنا لتلك المنازل وكيف لا نطرب لها وهي الخليلية، وزرنا قبر يونس عليه السلام في طريقنا ورفعنا لأنواره الجفون، وتملئ عند الزيارة ذو العين بذي النون، ثم نزلنا من محل الخليل على محل القوي، وحمدنا عند صباح ذلك

الوجه السري، واستقبلنا بمقام إبراهيم أمانا، واستلمنا من ضريح شاند الركن ومن ضرائح أهله أركاناً، وأكلنا من شهى عدسه لونا ووجدنا من الهناء ألوانا، وقلنا لأنفاس الشوق كوني بردا وسلاما على إبراهيم، ووردنا مورد اللقاء تشفى ظمأ إبراهيم، وفرقت الهبات، وتليت الختمات، وجردت المواعيد على عوائدنا المحكمات، فقلت:

قصدا خليل الله في ظل صاحب ... جليّ العلى والمكرمات جليل
فهذا لدينانا وهذا لدينا ... فيا حبذا من صاحب وخليل

وسرنا في ظل صاحب من الخليل وكادت دمشق تمد أيدي إعطائها لجاذبة ركابه، ومصر تتضرع بأصابع نيلها طعماً في اقترابه، وترضع ثدي هرمها داعية إلى الله بعوده إليها وغيابه، وهمّ شباك الوزارة أن يتلقى صاحب فتحه، وصدر الخزان أن يعانق ما اعتاده من رأى عطفه منحه، فإنه ما جلس فيه أبهر وأبهى من الطلعة الامينية بإجماع الآملين والمتأملين، والخزان التي كم قال لها تدبيره إني حفيظ عليم فقال الملك: إنك لدينامكين أمين، ثم عطفنا الأقدار إلى جهة الرملة وجاءت الوفود كالرمل، وخفت أكياس دراهم الصلات الحمل، وأقمنا ثلاثة أيام نكاد ننشد:
خرجنا على أن المقام ثلاثة ... فطاب لنا حتى أقمنا بها عشرا

ورأينا مسجداً يعرف بالركيني قد غير الزمان محاسنه الأنيقة، وهدم الخراب والموت ركنيه على الحقيقة، فأمرنا مولانا صاحب بعمارة ما منه اندثر، ولحظت لآراء حجارته المنقضة فتبين أن السعادة تلحظ الحجر، ولقد صنع في هذه المنزلة من المعروف مالا صنع ذوو الدهر الطويل مثله، وبني من المكرمات ما ثبت ولولا إبداع سعادته ما ثبت البناء فوق الرملة، ورحلنا عن الرملة بنية الزيارة لمشهد زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام، فمررنا في طريقنا بجملة خير معترضة وبينه وفي وجهة القبول مبيضة تحوي على قبر بنيامين أخي يوسف عليهما السلام فألحقناه بالزيارة بأخيه، وتوكلنا على الله في القبول توكل أبيه، وتيممنا ببنيامين، وقرعنا أبواب السماء بأدعية فاتحة فقال النجيج عقيب الفاتحة آمين، وسرنا والصدور منشرحة، والطريق إلى خير الدارين متضحة وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين بهجة الدين والدنيا، وتلا مزارها للقادم إنا نبشرك بيحيى، وبتنا ليلة طيبة نحيتها ونميت النوم، ونعصي بالسهر أمره فما له سلطان على أعين القوم، وأصبحنا وقد امتلأت القلوب سرورا، والأعين نورا، وقوينا على قصد جنى الجنان، واستقبلنا محاسن بيسان، وختمنا الزيارة بمشهد معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه فأنقذت أنواره القلوب من الهم أي إنقاذ، وكدنا فتن بالأنس حتى نقول أفتان أنت يا معاذ، وأمسكنا عنده من الدعاء بعروة لا تنفصم، وآوينا من طوفان الذنوب إلى جبل ينجح من به يعتصم، وأمر بما يحتاج إليه من تجديد عمارة وإنشاء طهارة، والحق بكل مزار وردنا عليه في هذه السيارة، فإنا لا نفارقه إلا عن إقامة صلاة وصلات، وتجديد آثار يزين به وجه القبول كاتب الحسنات، ثم قمضنا على القور فهو ليه الملبد وجزنا مبتسمين فما بكينا بكاء ليبد يوم فراقه أربد، وانتشقنا من تلقاء طيبه الاسم أطيب العرف، وسلكنا بحرف واديها مستبشرين فكانت طيبة الاسم والفعل والحرف، ثم عاودنا المنازل التي قدمنا ذكرها، ورجعنا كما تسترجع منازل الأفق زهرها، وتنسمنا

أرواح دمشق حتى كدنا ننشق من ذيل الكسوة عطرها، واستقبلنا الديار على هذا السعي الجليل، وفاصلنا السفر على كل وجه للفضل جميل، وقطعنا بالكسوة ليلاً طائلاً نداؤه: كل ليلٍ للعاشقين طويل، وفي تلك الليلة كان دخولنا إلى دمشق الحروسة كدخلونا إلى القدس الشريف سائرين سرى النجوم في الليل، سابقين لغرة الصباح بغرر الخيل، موفرين لخواطر المنتقين وهيئات وقد سال منهم السيل، نازلين من دمشق جنة قد تبسمت لقدومنا عن ثغور الأزهار، وأجرت أمام ركبنا الأنهار، ولبست من وشيء البديع حللاً لها من أوائل ما انعقد من الثمار أزرار، فائزين من الشاء والثواب بفوق الأرادة، داعين لمن فضله لنا جامع مترقين لرتبته باب الزيارة، وتمتهذه السفرة على أحسن ما يكون، واشتملت من وجوه المحاسن على عيون، قضيت المهمات بها بالنهار وقضيت في الليل المذاكرة، والتقطت من الفوائد الوزارية ما كنت أرتقب جواهره وأزهاره، وأردت أن أذكرها في هذه الخطبة لأنها جواهر، وأضمنها بعض العلم في هذه الأوراق فإنها أزهر، فكثرت على هذا اللفظ المسجوع، واقتضى الحال أن أجمعها في سفر يقال فيه تلك رحلة وهذا تاريخ ومجموع، وقد علم الله أن هذه النبذة من القول وردت من قريحة مسها فقد الولد بقرح وأي قرح، وقال تفكرها الذي كان حائك الكلام لست اليوم من ذلك الطرح، فلييسط الواقف على هذه الرحلة عندي، ويعلم السبب في كونها ليست عادة نظمي ونثري، وإذا كانت القريحة في بقايا قورحها فليت شعري أينهض سبجي وشعري، والله تعالى المسؤول أن يجعل في البقاء الصاحبي سلوة عن كل فقيد، ويصل أسبابنا أبداً بتحريره الوافر وظله المديد، ويرزقنا في شكر نعمه لساناً لفظه ذهب وذهنا بصره حديد.

قلت ذكرت برحلة الشيخ جمال الدين رحمه الله تعالى إلى القدس الشريف صحبة الركاب الصاحبي الاميني رحلتي صحبة الركاب الشريف السلطاني المؤيدي سقى الله ثراه إلى البلاد الرومية وبروز أمره الشريف بذكر الفتوحات بما وتسمية البلاد واستيعاب الرحلة الشريفة في البشارة المجهزة إلى الديار المصرية وأنا لا يقرأها بالجوامع المطهرة غير مولانا شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي عظم الله شأنه فقراها بالجامع المؤيدي والأزهر في شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وثمانمائة وقد عنّ لي أن أقرنها بالرحلة النباتية فإنهما رحلتان.

وهي ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي ولا زالت طرف أخبارها السارة خاطره وتشنف سمعه، وترنحه بنسمات قربنا وتجاوز كريم سمعه ليأخذها بالشفعة، وإن حصل بينه وبين المسرة لبعدها طلاق فمائلنا الشريف يبشره بالرجعة.

صدرت: هذه المكاتبة تهدي إليه من أوراقها ثمرات الفتح ليتفكه بالقواكه الفتحية، وتعرب عما أبدته عريباتنا من شواهد التسهيل في فتح البلاد الرومية، فإنها رحلة مؤيدة تشد إليها الرحال، وإن كانت دول الإسلام حلة على أعطاف الدهر فهي لها من أظهر الأذيال، ونبيدي لكريم علمه تجلي مخدرات الحصون بكل وجه حسن تحت عصابتها المؤيدية، واستقرار رسيسفي هذه الحلبة على قديم عادتها بين الجنائب الحلبية، وفتح قلعتها وقد حرك بأها مصراعي شفتيها وأعان بسورة الفتح جهراً، وتلت أقفاله بعدما عسرت على الغير فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً، وصعدت أنفاس الأدعية من افواه مراميها فرحاً بنا وسروراً،

وبدلتن صوامعها وتلك البيع بمساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، وأخلصت الطاعة لشيخ ملوك الأرض طائفها الأرمينية، وانقطعوا في زوايا الطاعة مريدين لهذه المشيخة الشريفة الصوفية، ورجب ابن رمضان في طاعتنا الشريفة فجعلنا له في ربيع حلاوة الرغائب، ورفعنا قواعد بيته الإبراهيمي وأدنيه من أرمنة فدنا منها إلى أعلى المراتب، وتلمظت سيوفنا بحلاوة الفتح ورشفت بالسنتها في كل قطر قطرها، ففتحت إيلس من بعيد لهذه الحلاوة ثغرها، وانسجمت أياها لما نظمت على بسيط الطاعة بحرها، ومض حصن مصيصه من رحيق هذه الطاعة فأسمى ثغره بأفواه الشكر يقبل، وبسط جين جسره لمواطىء خيلنا فرحة وتقلل، وجانس الفتح بين إيلس وبانياس، ولم يتظم لبني كندبيت بملطية يقام له وزن ويظهر عنه إقتباس، وإنعكس هذا الأسم بعد الاستحالة ون كان مما لا يستحيل بالانعكاس، ويستجر كافرهم وقد أضرم به النار فخاطبته بلسان جم لا يفجم:

وما هو إلا كافر طال عمره ... فجاءته لما استبطأته جهنم

وفر إلى ملك عثمان فحكمنا بقتله في تلك الأرض علما إن الجهاد في أعداء الدين عند العصاة الحمدية من الفرض وسمع العصاة بطرسوس زئير آسادنا من بعيد، فأدبر مقلهم وتحيل أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد، وأعربت أبوابها بعد كسرة عن الفتح وقال أهلها إدخالها بسلام آمين، وأوى العصاة إلى جبل القلعة لما رأوا بعد هذا الفتح المين، وصفع مقلهم وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع، وحكم عليه القضاء باعتقال ولم يأت عند ذلك الحكم بدافع، وشاهد القرمانيون من سيوفنا شلة القرن فخشي كل منهم أن يصير لحماً على وضم، ورأوا ألسن السهام في أفواه تلك المرامي برأينا الصائب ناطقة، فمزقوا الأصواق من الحق فطوقناهم بالحديد، وأحببنا الفتح المأموني برأينا الرشيد، وما خفي عن كريم علمه وقوع انتقامنا الشريف في الغادر ابن الغادر لما أدبر وقطع الله دابره، وظهور السر الإبراهيمي لما ادعى أنه ثرود تلك الفتنة الغادرة؛ كلمه بسيوفنا فأخرسه وتخطه شيطان الرعب بمسه ورأى فيه تلك الهمة العالية فنجنا من تلك الوقعة بفرسه ونفسه، وأرى من قبل إلى جبل ليعصمه فقال له لا عاصم اليوم من أمر الله، ورماه من شاهقة في بحر عساكرنا بعد ما عض عليه بشناياه، وسمع الرعد من سيف إبراهيم ففر وقد شاهد من أصيب بصواقه من عصاة التركمان وصدقت فيه عزائم أتراكنا وما روي أحد في ذلك اليوم من الترك مان وسقوا أوعار تلك الجبال من دمائهم فكادت أحجارها أن تروق وتخصب بعد الحبل، وجنوا بالعسال على النصر وغنموا من الأنعام مازاد في عدد أجناسه على النحل، ونقرت عنهم أوانس تلك الأطباء والمثيم ينشد:

لهفي لطيفة أنس منكم نفرت

وانفطرت كبده لما رأى كواكب الحي من أفلاك تلك الصدور قد نثرت، وسن المقر الصارمي فيهم عزمه فقطع بهذا الصارم من عواتقهم أوصالاً، وحميت نار حربه فسبكت أوانيهم من الذهب والفضة تحت وحوافر خيله نعالاً، ورخصت أنواع الديباج فكم من معدني صار مع ديني، لأن قبورهم بعثرت، وتلا لسان حال الكسب على السمور وغيره من أصناف الوبر، وإذا الوحوش حشرت، وانقادت ركائبهم إلينا وبدور مواطنها في بروج تلك الجبال قد أشرقت، والناظر يتلوا متعجباً أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت،

وكانت نار حرب القوم على المقر الإبراهيمي برداً وسلاماً، فإنه رفع قواعد بيته في ذلك اليوم وعلمنا إن الله قد جعل لإبراهيم في هذا البيت الشريف مقاماً، ورقاه في عمر الإبدار إلى بروج الكمال فأبدر فيها وسرى وأنشد لسان الحال بهذا المقال:

وقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ ... إلا على أكمه لا يعرف القمر

وإن كان شبلاً فهو في المخبر كأسده، ومصارع ليوث الحرب قد جعلها الله من صغره تحت يده، ورفع له في هذا المبتدأ وسيره في الآفاق خبراً، وعلم الأعداء أن دمعهم يجري عند لقائه دماً وكذا جرى، وهذه المقاتلة تليق بابن الغادر على قبح سريره وغدره، فإنه أخرج أهل تلك البلاد من أرضهم بظلمه لا بسحره، وسألنا قبل ذلك في ولده وقد كره العود إليه، وألف أبوتنا الشريفة وتوطن فرددناه إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن عليه، فخالف نص الكتاب ومشى في ظلم الطغيان، ولم يعمل بقوله تعالى هل جزاء الإحسان إلى الإحسان، فقابلته سطواتنا الشريفة على قوله وفعله، وما حاق المكر السيء إلا بأهله، وحل ركابنا الشريف بالأبليستين في العشرين من ربيع الآخر فجمعنا بحصنها الزاهر بين ربيعين، وتمناها بعشر الإقامة لاستيفاء مالنا في ذمة جيراننا من الدين، فرحبت بنا وبسطت بساطها الأخضر وقالت على الرأي والعين، وألقتنا إلى درندة وما العيان من صنع الله في أخذها كالخبر، وادعت أن صخرها أصم فأسمعناه من آذان المرامي تنقير المدافع وتحريك الوتر، وطلعت فيظهر الجبل كدمل فطار كل جراح من سهامنا بريشة إلى فتحها، وظنت صون من بما لعل ذلك السفع فطالت سيوفنا إلى جماء القوم وسفحها، وقرعنا جبلها بسبابات المدافع وكسرنا منه الثنية، وأمست حلق مراميها كالخواتم في أصابع سهامنا المستوية، وخرَّ بحرنا طائفاً فركبنا عليه سفن سور على الزحف جاسرة، وأقلعنا إلى خشب سفنها المسندة فمزقنا قلوب سائرنا وخرجنا قريبتها العامرة، وهذا مع الملك خطبها لنفسه وأراد أن يعرج إليها فترفعت عليه، ولم ترضه لنقص العرج أن يعلو عليها فرحل عنها ولم يحظ مني ديوان وصلها بمسوح، ولكن ساعة رؤيتها قالت بكارها مرحباً بأبي النصر وأبي الفتوح، وتعلق سكانها بأذيال الأمان فأمناهم، ولكن كانوا في صدرها غلاً فنزعناهم، وجاءت مفاتيح جندروس قبل التخلص منها براعة فأحسنها الختام بدرندة، وألقينا إكسير المدافع على حجرها الذي كان غير مكرم وأحسننا التدبير في الصناعة، وسمعت كرت يرت بذلك فألقت من بما من بئر معطلة، وزهت فرحت بقصرها المشيد، ووصلت مفاتيحها يوم هذا الفتح مهنته بلسانها الحديد، وغارت عروس بهتان من ذلك فخطبتنا لجمالها البارع، وجهزت كتابها يشهد لها بالخلو من الموانع، وهي أيضاً ممن خطبها الملك لنفسه فتمنعت، وأراد السمو إلى أفقها العالي فاستسفلته وترفعت، وعوت كلابه فلقمتهم ما ثقل وزنه من أحجارها الثقال، خلافاً لمن أصبح الصخر عنده بمثقال، ولعم طغرق أن سهامنا في كل عضو من أعضاء العصاراة جارحة، وأفواه مدافعنا في أعراض الصخور من سائر القلاع قاذحة، فثبت يدها عن المنع وجنح إلى الإخلاص فسابقه باب القلعة ورفع صوته في الفاتحة وضحك نهموس ملكنا على من أدعى بكختا وكرك، ولكن أبكتهم سهامنا دماً جرى من محاجر القلعتين ولم يتعثر، وقال حصن كختا إن كانت قلعة نجم عقاباً في عقاب، فالنسر الطائر يخفق تت قامتي بأجنحته أو كان الهلال قلامة لأظفائها التي علاها من الأصيل خضاب،

فكي الخضيب يتيم تربي ويمسح بياض جبهته فأنا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه، وود دينار الشمس أن يكون من تعاويذه، والشجرة التي لولا سمو فرعها تفككت به حبات الثريا وانتظمت في سلك عناقيده، وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامم فارمدنا عيون مراميه بدم القوم وأميال سهامنا على تكحيلها تتراحم، ووصل النقب بتنقيبه عن مقاتلهم إلى الصواب، وأيقنوا أن بعده لم يضرب بيننا برسوله باب، وكان منهل مائهم عذبا فأكثرنا على منبعه الزحام، وتطلقوا على رضاع ثدي دلو فلم ترض أم المنبع بغير الفطام، وأمسى دلوهم كدلو أبي زيد السروجي لا يرجع بيلة ولا يجلب نقع غله، وحكم المدفع الكبير على سور القلعة فقال له السور دائم النفوذ والأحكام، وانقلبوا صاغرين إلى الطاعة وقد قابلنا أنف جبلهم بالإرغام، ورجعوا عن خليلهم الكردي لما قام لهم على جهله الدليل، وقالوا طاعة السلطنة الشريفة ما يراعي فيها من العصاة خيل، وسألونا الصفح عن حديث جهلهم القديم، وسلموا القلعة لرضا خواطرننا الشريفة فاجمعوا بذلك بين الرضا والتسليم، وتنكرت أكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات بين الرضا والتسليم، وتنكرت أكراد الكوكر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألغات السهام، وعطست أنوف

مراميههم بأصوات مادافعنا كأنّ بها زكام وتبرموا من خليلهم الكردي لما شاهدوا الخطب جليلاً، وقال كل منهم يا ليتني لم أتحذ فلانا خليلاً، وأورت عاديّات المدافع ب القلعة قدحا فأمست بالزلزلة مهددة وفرار من سطواتنا إلى البروج فأدر كههم الموت في بروجهم المشيلة وسألنا كرديهم في جزيل ماله ليغدو بنفسه الخبيثة ويروح، فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح، وسجنه في قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع، وجهاز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الإجماع، وأمسى بهم بأصوات مادافعنا كأنّ بها زكام وتبرموا من خليلهم الكردي لما شاهدوا الخطب جليلاً، وقال كل منهم يا ليتني لم أتحذ فلانا خليلاً، وأورت عاديّات المدافع ب القلعة قدحا فأمست بالزلزلة مهددة وفرار من سطواتنا إلى البروج فأدر كههم الموت في بروجهم المشيلة وسألنا كرديهم في جزيل ماله ليغدو بنفسه الخبيثة ويروح، فلم نرض منه على كفره إلا بالمال والروح، وسجنه في قلعته وقد أيقن بالموت وارتفع النزاع، وجهاز المفتاح لتخليص دينه فحصل على سجنه الإجماع، وأمسى بها:

كريشة في ممرّ الريح ساقطة

وتقام البيت معروف عند من له عليه اطلاع وجاءت مفاتيح كل من ديار بكر وقد أزهرت باسمنا الشريف أغصان منابرها، وسألت قلعتها التشريف برسول يدوس بنعله محاجرها، فأحببناها إلى ذلك وأمست بنا بعد التنكر معرفه، وصارت أبراجها بالنسبة المؤيدية مشرفة، وجهاز قرا عثمان مفاتيح الرها وآمد وسأل تشريفه بتشريفيهما بتقليدين يرفعان لهما في الشرف محلا، فحليناه بذلك وكان من العواطل، فحلت المطابقة باعاطل الخلى، والتهب ابن الغادر بحرارة المعصية ففر إلى برد الطاعة من غير فترة، وهز جذع مراحمنا الشريفة واعترف أنه جهل الفرق بين الثمرة والجمرة، وأقر بذنوبه وقال التوبة تجب ما قبلها، ودوحة المراحم الشريفة قد مد الله على الخافقين ظلها، وعلم أنه ما أحسن البيان عن درنة في تخليص ذلك المفتاح، وسأل أن يحظى من بيان غفونا الشريف باستجلاء عروس الأفراح، فاذقناه حلاوة قربنا بعد ما ذاق مرارة بينه،

وألبسناه تشريفة بناية الابليسين فلبس الأرض وهو لا يصدق أنه يرى محاجر تلك العين بعينه، وجهزنا ولده داود بدروع من الأمن ليأمن بها من يداود، ويتفياً بظلال جبرنا ويصير بعد حر المعصية في ظل ممدود، وقد تقدم سؤال قيسارية أن يقام بها سوق الأمان فأجبناها، وسعرت بها نار الخوف بعدما غلت فجهزنا إليها بضائع الأمن وأرخصناها، وأيقن أهلها أنهم مشوا في حدائق عدلنا على غير هذه الطريقة، وصار على سوسنة كل سنان من دمائهم شقيقة، فازلنا عنهم يائناس عدلنا الوحشة وأمست قيساريتهم في أيامنا الزاهرة هشة وسجعت خطباء منابرها باسمنا الشريف والدهر يهتز فرحة ويطرم:

ولم يخل من أسمائنا عود منبر ... ولم يخل ديناراً ولم يخل درهم

وتقارب الاشتقاق بين سيواس وسيس فتجانسا للطاعة، ومات العصيان بتلك البلاد فقالت أرزيكاز الصلاة جامعة وصلت طائعة مع الجماعة، فلا قلعة إلا إفترضنا بكارها بالفتح وابتدلنا من ستائرنا الحجاب، ولا كأس برج أترعوه بالتحصين إلا توجنا رأسه من مدافعنا بالحجاب، حتى فصلت في الروم لعساكرنا التي هي عدد النمل قصص، وعدنا فكان العود أحمد إذ لم يبق بتلك البلاد ما تعده القدرة على الفتح من القرص، وجاءت رسل ملوك الشرق بالإذعان لطاعتنا التي اتخذوها لشرفها قبله، وود كل منهم أن يحظى من جهات أعتابنا بقبله، وتوعوا من الهدايا بأجناس صدقت من كل نوع مقبول، وبالغوا في الرقة واهدوا من الرقيق ما قام له عندنا سوق القبول، وأسفر قرا يوسف من الجمال اليوسفي ونور الطاعة عن بهجتين، وأظهر كتاب الطهارة بتطهير الأرض ممن ندبنا إليه من أعداء الدولتين، ودنت الديار من الديار فكانت سيوفنا في القرب له حصنا وملاداً، ولم يباشر في إخلاص الطاعة مما يقال على إقبالها وجنينا منها ثمار الحبة، وجلل التفاصيل التي وسعها سناء الملك بهجة ولم يترك لابنه في دار الطراز رتبه، والنمورة التي يحجم ابن فهد عن وصفها إذا قابل منها السواد والبياض بالمقتنين، فأما جمعت لنا من ليلها الخالك ونهارها الساطع بين الآيتين، والجواد الذي تميز بأوصاف صاحب مجرى السوابق من الفحول التي تجاريها، فإنه غرة في جباه الخيل التي قال قائد الغر الخجلين: إن الخير معقود بنواصيها، والسروج التي سمت على السروجي بمقاماتها العالية، ورأيناها أهلة تغني عن الفجر فخصبنا كل سرج منها بالغاشية، والجوارح التي خشي النسر الطائر أن يصير منها واقعا وصدق فيما تفرس، وخافت الشمس لما تسمت بالغزالة ولف سرحان الأفق ذنبه على خيشومه ولم يتنفس، والقوس الذي اصاب به أغراض الحبة ونال منها أوفر سهم ونصيب، وجاء عبارة عن رأي مهديه وكل عندنا بحمد الله مصيب، وهو من الأشياء التي وقعت في محلها ونحن نقيم دلائل ذلك وبرهانه فإن القوس إذا عانق سهامه بنصر علم أنه وصل إلى الكنانة، وأبلغ المقر الجمالي في نظم بديع الهداي ونسخ الجفاء بكثرة رقيقة، وأدار من أواني الصيني كؤوسا اترعها الود بسلاف رحيقه، ودخلنا حلب الخروسة وأوصلناها ما استحق لها من ديون الفتح علينا، ورددنا ما اغضب منها فقالت هذه بضاعتنا ردت إلينا، وقد آثرنا الجناح بكرامة هذه البشارة التي استبشر بها وجه الزمان بعد قطوبه وتيسم، فإن ركن هذا البيت الشريف ونسيب مدحه المقدم، فيأخذ منها حظه ويثلج صدر البرايا ففيها لهم برد وسلام، وبرعاهم بعين الرعاية ليضوع فيهم عرف العدل ويصير مسكا لهذا الختام، والله تعالى يمنعه في ليله ونهاره من أخبارنا

السارة بالأعياد والمواسم، ويجعل له من صياغة أعماله إن شاء الله حسن الخواتم..
قلت وذكرت بهذه الرحلة أيضا رحلتي من الديار المصرية إلى دمشق الخروسة الحمية سنة إحدى وتسعين
وسبعمائة والملك الناصر قد خرج من الكرك ونزل عليها وتصدى لحصارها وقد اجتمعت عليه العساكر
المصرية والشامية وحدث بدمشق الخروسة ما حدث من القتال والحصار والحريق فكتبت إلى مقر المرحومي
الفخر القاضي ابن مكانس في شرح ذلك رسالة لم ينسج على منوالها ولم تسمح على غلبة الظن قريجة
بمثالها.

وهي يقبل المملوك أرضا من يَمَّها أو تيمم بثراها حصل له الفخر والمجد، ففلا برح هيام الوفود إلى أبوابها
أكثر من هيام العرب إلى ربانجد، ولا زالت فحول الشعراء تطلق أعنة لفظها فتركض في ذلك المضمار،
وتقيم بواديها الذي يجب أن ترفع فيه على أعمدة المدائح بيوت الأشعار، وينهي بعد اشواق أمست الدموع
بها في محاجر العين معثرة، ولو لم يقر إنسانها بمراسلات الدمع لقلت قتل الإنسان ما أكفره، وصول المملوك
إلى دمشق الخروسة فيا ليتته قبض قبل ما كتب عليه الوصول، ودخوله عليها ولقد والله تمنى خروج الروح
عند الدخول، فظفر المملوك إلى قبة يلغا وقد طار بها طير الحمام وجثت حولها تلك الأسود الضارية،
فتطيرت في ذلك الوقت من القبة والطير وتعوذت بالغاشية، ودخلت بعد ذلك إلى القبيبات التي صغر اسمها
لأجل التحجب، فوجدتها وقد خلا منها كل منزل كان آنسا بحبيبه، فأشد به لسان الحال قفا نيك من ذكرى
حبيب، ونظرت بعد القباب إلى المصلى وما فعلت به سكان تلك الحيام، والنفت إلى بديع بيوته التي حسن
بناء تأسيسها وقد فسد منها النظام:

فسال وقد وقعت عقيق دمعي ... على أرض المصلى والقباب
ونظرت إلى ذلك الوادي الفسيح وقد ضاق من الحريق بسكانه الفضا، فتوهمت أن وادي المصلى قد تبذل
بوادي الفضا:

فسقى الفضا والساكنيه وإن هم ... شبّوه بين جوانح وقلوب
واصطليت النار وقد أرادت سي ذلك النادي فشيت عليه من فوارس لهيها الغارة، ورخصت في ميدان
الحصى فوجدت أركانه كما قال تعالى وقودها الناس والحجارة، ودخلت قصر الحجاج وقد مدت النار به
من غير ضرورة في موضع القصر، وأصبح أهله في خسر وكيف لا وقد صاروا عبدة لأهل العصر، وتأملت
تلك الألسن الجمرية وقد انطلقت في ثغور تلك الربوع تكلم السكان، وتناولت باللسنة الألسنة الأتراك
فانذهل أهل دمشق وقد كلموا بكل لسان، ووصل المملوك بعد الفجر إلى البلد وقد تلا بعد زخرفة في
سورة الدخان، فوجب أن أجري الدموع على وجيب كل ربع وأنشد وقد دخل صبري بعد أن كان في
خبر كان:

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا
ووقفت أندب عرصاتها التي فمحت بالين فخابت من أهلها الظنون، وكم داروا بقمحتها خيفة من طاحون
النار فلم يسلم فصدقت المثل بأن القمح يدور ويحيى إلى الطاحون، وتطرفت بعد ذلك إلى الحدادين وقد

نادقهم النار بلسانها من مكان بعيد، أتوني زبر الحديد، ولقد كان يوم حريقها يوما عبوسا قمطريرا، أصبح المسلمون فيه من الخفية وقد رأوا سلاسل وأغلالا وسعيرا، هذا وكلما اصليت نار الحريق وشبت نار الحرب، ذكرت ما أشار به مولانا على المملوك من الإقامة بمصر فأنشدت من شدة الكرب:

آهاً لمصر وأين مصر وكيف لي ... بديار مصر مرآعاً وملاعبا

والدهر سلم كيفما حاولته ... لا مثل دهري في دمشق محاربا

يا مولانا لقد لبست دمشق في هذا المآثم السواد، وطبخت قلوب أهلها كما تقدم على نارين وسلقوا من الاسنة بالأسنة حداد، ولقد نشفت عيونهم من الحريق واستسقوا فلم ينشقوا رائحة الغادية، وكم رؤي في ذلك اليوم وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلي نارا حامية، وكم رجل تلا عند لهيب بيته تبت يدا أبي لهب، وخرج هاربا وامراته حمالة الحطب، وشك الناس من شدة الوهج وهم في الشتاء وصاروا من هذا الأمر يتعجبون، فقال لهم لسان النار أتعجبون من الوهج والحريق وأنتم في كانون، ولعمري لو عاش ابن نبأته ورأى هذه الحال، وما تم على أهل دمشق في كانون لترك رثاء ولده عبد الرحيم وقال:

يا لهف قلبي على وادي دمشق ويا ... حزني ويا شجوي ويا دائي

في شهر كانون وافاه الحريق لقد ... أحرقت بالنار يا كانون أحشائي

ونظرت بعد ذلك إلى قلعة الخروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزقة؛ وستروا بروجها من الطارق بتلك الستائر وهم يلتون ليس لها من دون الله كاشفة؛ واستجلبت عروس الطارقة عند زفها وقد تجهزت للحرب وما لها غير الأرواح مهر؛ وعقدت على رأسها تلك العصائب وتوشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الأبيض سوار النهر؛ وغازلت بحواجب قسيها فرمت القلوب من عيون مراميها بالنبال؛ وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكحالا كانت السهام لها أميال؛ وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وسمع وهو على فرسه بنفسه الغالية؛ وراموا كشفها وهم في رقعة الأرض كأنهم لم يعلموا بأن الطارقة عليه؛ وتالله ولقد حرست بقوم لم يتدعوا بغير آية الحرس في الأسحار؛ وقد استيقظوا الحمل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الأوتار؛ فأعيز رواسيها التي هي كالجبال الشاخطة بمن أسس رواسي الخجوج؛ وأحصنها القلعة بالسماء ذات البروج؛ وتناولت إلى السور المشرف وقد فضل في علم الحرب وحفظ أبوابه المقفلات؛ فما وقفنا على باب إلا وجدناه لم يترك خلفه لصاحب المفتاح تخليصا لما أبداه من المشكلات؛ وما أحقه بقول القائل:

فضائله سور على الجند حائط ... وبالعلم هذا السور أضحي مشرفا

كم حملوا عليه وظنوا في طريق حملتهم نصرا، ونصبوا دست الحرب ولم يعلموا بأنه قد طبخ لهم على كل باب قدراً، فلا وأبيك لو نظرته يوم الحرب قد تصاعد فيه أنفاس الرجال لقلت ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، وإلى الخاضرين وقد جاؤوا راجلاً وفارسا ليشهدوا القتال لقلت وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، وإلى كواكب الأسنة وقد انتشرت، وإلى قبور الشهداء وهي من تحت أرجل الخيل قد بعثرت، وإلى كرف الفوراس وفرها لقلت علمت نفس ما قدمت وأخرتن وإلى نار النفط وقد نفطت من غيضاها، وإلى

ذكور السيوف وقد وضعت لمنايا السعود وتعذرت من شدة الدماء لكثرة حيضها، ومن العجائب أن ييض سيوفهم تلك المنايا السود وهي الذكور وإلى فارس الغبار وقد ركب صهوات الجو ولحق بعنان السماء، وإلى أهذاب السهام وقد بكت لما تخضبت بالدماء، وإلى كل هارب سلب عقله وكيف لا وخصمه له، وإلى كل مدفع وما له عند حكم القضاء دافع، وإلى قامات أقلام الخط وقد صار لها في طروس الأجسام مشق، فاستصوبت عند ذلك رأي من قال: عرج ركابك عن دمشق، ونظرت بعد ذلك إلى العشير وقد استحل في ذي الحجة الحرم وحمل كل قيسي يمانيا، وتقدم فخرج النساء وقد أنكرن منهم هذا الأمر العسير فقلت: وغير بدع للنسا ... ء إذا تنكرن العشير

وتصفحت بعد ذلك فاتحة باب النصر فعوذته بالإخلاص وزدت لله شكرا وحمدا، وتأملت أهل الباب وهم يتلون لأهل البلد في سورة الفتح وللمحاصرين وجعلنا من بين أيديهم سداً، كم طلبوا فتحه فلم يجدوا لهم طاقة وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونظرت إلى ما تحت القلعة من أسواق التجار فوجدت كلا قد محت النار آثاره وأهله يتلون قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، فمنهم من هم شأنه على صاحبه وبنيه، وآخر قد استغنى بشأن نفسه فهم كما قال الله لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، فوقفت أنشد في تلك الأسواق وقد شعرت:

ألا موتٌ يباع فأشتريه

ونظرت إلى المؤمنين الركع السجود وهم يتلون على من ترك في بيوتهم أخذودا من وقود النار، وقعد لحربهم في ذلك اليوم المشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، هذا وكم مؤمن قد خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار، وكلما دعا قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الإصطبار، ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، ونظرت ضواحي البلد وقد استدت في وجوههم المذاهب وما لهم من الضيق مخرج، وضائق عليهم الأرض بما رحبت لما غلق في وجوههم باب الفرج، فقلت اللهم اجعل لهم من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا، ولعدم أموالهم من كل عسر يسرا، ولا تنتهك محذراتهم من كل فاحشة ستر، ولقطع الماء عنهم إلى كل خير سبيل فإنك حسبنا ونعم الوكيل، هذا وكم نظرت إلى سماء ربيع غربت شمسها بعد الإشراق، فأنشدت وقد ازددت كربا من شلة الإحتراق:

فدنياك من ربيع وإن زدتنا كربا ... فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وانتهيت إلى الطواقيين وقد أسبل عليهم الحريق شدته فكشفوا الرؤوس لعالم السرائر، وكم ذات ستر خرجت بفرق مكشوف ورمت العصائب وبعلها بعينه دائر، هذا وكم ناهدات أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا، ووصلت إلى ظاهر الفردائيس وقد قام كل إلى فردوس بيته فاطلع فرآه في سواء الجحيم، واندعشت لتلك الأنفس التي ماتت من شدة الخوف وهي تستغيث للذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، ونظرت إلى ظاهر باب السلامة وقد أخفت النار أعلامه، ولقد كان أهله من صحة أجسامهم ومن اسمه كما يقال بالصحة والسلامة، وإلى الشلاحة وقد لبست ثياب الحزن وذابت من أهلها

الكبود، وقعدوا بعد تلك الربوع على أديم الأرض ونضجت منهم الجلود، ولقد والله عدمت لذات الحواس الخمس وضائق عليّ الجهات الست فلم ترقأ لي دمة، وأكلت الأنامل من الأسف لما سمعت بحريق أطراف السبعة، فأعيد ما بقي من السبعة بالسبع المثاني والقرآن العظيم، فكم رأينا بها يعقوب حزن رأى سواد بيته فاصفر لونه وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وتغربت إلى ظاهر الباب الشرقي فتشرقت بالدمع من شدة الالتهاب، فلقد كان أهله من دار عينه وكرومه الكريمة في جنتين من نخيل وأعناب، وتوسلت إلى ظاهر باب كيسان فانفقت كيس الصبر لما افتقرت من دنابر تلك الأزهار والدراهم رباها، وسمحت بعد ذلك بالعين واستخدمت فقلت بسم الله مجراها، وكأبرت إلى أطراف الباب الصغير فوجدت فاضل النار لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيا لهفي على عروس دمشق التي لم تذكر محاسنها أسماء ولا الجيذاء، لقد كانت ست الشام فاستعبدها ملك النار حتى صارت جارية سوداء، ولقد وقفت بين ربوعها وقد التهبت أحشاؤها بالاضطرام، وفطم جنين نبتها عن رضاع ثدي الغمام، فاستسقيت لها بقول ابن أسعد حيث قال:

سقى دمشق وأياماً مضت فيها ... مواطر السحب ساريها وغايتها

ولا يزال جنين النبت ترضعه ... حوامل المزن في أحشا أراضيها

فما نضا حبها قلبي لتيرها ... ولا قضى نحبه ودي لواديتها

ولا تسليت عن سلسال ربوتها ... ولا نسيت مييت جار جاريها

هذا وكم خائف قبل النوم أويناه بها إلى ربوة ذات قرار، وكم كان بها مطرب طير خرج بعدما كان يطرب على عود وطار، وبطل الجحك لما انقطعت أوتار أنهاره فلم يبق له مغنى، وكسر الدف لما خرج نهر المغنية عن المغنى، واستسمح الناس من قال:

انفض إلى الربوة مستمتعاً ... تجد من اللذات ما يكفي

فالطير قد غنى على عوده ... في الروض بين الجحك والدف

وأصبحت أوقات الربوة بعد ذلك العيش الخضل واليسر عسيره، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم، وضاع من غير تورية عطره الباسم، ولم ينتظر لزهرة المنشور على ذلك الوشي المرقوم، رسالة من النسيم سحر به، وكيف لا وقد محى سجع المطوق من طروس تلك الأوراق النباتية، هذا وكم عروس روض سور معصمها النقش فلما انقطع نهرها صح أنها كسرت السوار، وكم دولا ب نهر بطل غناؤه على تشيب النسيم بالقصب وعطلت نوبته من تلك الأدوار، فوقفت أندب ذلك العيش الذي كان بذلك التشيب موصولاً، وأنشد ولم أجد بعد تلك النوبة المطربة إلى مغنى الربوة دخولا:

لم لا أشبُّ بالعيش الذي انقضت ... أوقائه وهو باللذات موصول

ونقص يزيد فاحترق ولا ينكر ليزيد الحريق على صنعه، وانقطع ظهر ثور فأهلك الحرث والنسل بقطعه، وبردى هي مزاجه لما شعر بالحريق، ولم يبق في ثغره الأشنب برد حصائبه ما ييل الريق، وانقطع وقد اعتلى من غيظه بانياس، ولم يظهر عند قطعه خلاف ولا بان آس، وجرى الدم من شدة الطعن بالقنوات،

وكسرت قناة المرجة فذاقت مر العيش بعد حلاوة تلك القطف الدانيات، وكسر الخلخال لما قام الحرب على ساقه، وسقط براس كل غصن على الجبهة فهاجت البلابل على أوراقه، وخرّ فمر حمص خاضعا وتكدر بعد ما كان يصفى لنا قلبه، وافتقر أغنياء غصونه من حبات تلك الثمار فصاروا لا يملكون حبة، طالما كان أهله فاكهين، ولكنهم اعترفوا بذنوبهم فقالوا: وكنا نخوض مع الخائضين، وذبلت عوارض تلك الجزيرة التي كانت على وجنات شطوطه مستديرة، فقلنا بعد عروس دمشق وهما لا حاجة لنا بجمص والجزيرة، فيا لهفي على منازل الشرف وذلك الوادي الذي نعق به غراب الين، ويا شوقي إلى رأس تلك المرحلة التي كانت تجلسنا قبل اليوم على الرأس والعين، هذا وقد اسودت الشقراء فأمسست كابية لما حصل على ظهرها من الجولان، وجانسها العكس فأضحت باكية على فراق الأبلق واخضر ذلك الميدان، يا مولانا لقد بكى المملوك من الأسف بدمعة حمراء على ما جرى من أهل الشهباء، هل في الميدان على الشقراء حتى كذب الناس من قال:

قُلْ للذي قايس بين حلب ... وجلّقى بمقتضى عيائها
ما تلحق الشهباء في حلبتها ... تعثر الشقراء في ميدانها

فقال لسان الحال والله ما كذبت ولكنه قد يخبو الزناد، وقد يكبو الجواد، وقد يصاب الفارس بالعين التي تغمر قناته غمزا وأنشد:

ومن ظنّ سيلاقي الحروب ... وإن لا يصاب فقد ظنّ عجزا
ودخلت بعد ذلك إلى البلد فوجدت على أهله من دروع الصبر سكينه، فقلت يا رب مكة والحرم أنظر إلى أحوال أهل المدينة، ولكن ما دخلت بها إلى حمام إلاّ وجدته قد ذاق لقطع الماء عنه حماما، واعلم القوام والقاعدون بأرضه أنّها ساءت مستقرا ومقاما، وتلا على بيت ناره قلنا يا نار كوني برد وسلاما، فحسن أن أنشد قول ابن الجوزي من الكان كان :

الحار عندك بارد ... والنهر أمسى منقطع
والعين لا ماء فيها ... ما حيلة القوام

وأيت بعد ذلك إلى الجامع الأموي فإذا هو لأشتات الحاسن جامع، وأتيته طالبا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع، تمسكت بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات السحرية، وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت إلى تلك الشذور الذهبية، وآنست من جانب طوره نارا فرجع إلى ضياء حسي، واندعشت لذلك الملك السليماني وقد زها بالبساط والكرسي، وقلت هذا ملك سعد من وقف في خدمته خاشعا، وشقي من لم يدس بساطه ويأته طائعا، ولقد صدق من قال:

أرى الحسن مجموعاً بجامع جلّقى ... وفي صدره معنى الملاحه مشروح
فإن يتعالى بالجوامع معشر ... فقل لهم باب الزيادة مفتوح

معبد له قصبات السيق ولكن كسرت عند قطع الماء قناته، ورأيت في القبلة من شدة الظمأ وقد قويت من ضجيج المسلمين أناته، وخفض النسر جناح النل وود بأن يكون النسر الطائر، وطمست مقل تلك المصاييح فاندعش لذلك الناظر، هذا وكم نظرت إلى حجر مكرم ليس له بعد أكسير الماء جابر، واختفت

نجوم تلك الأطباق التي كانت كالقلائد في جيد الغسق، ومرت حلاوة نارها بعدما ركبت طبقاً عن طبق، وأصبح دوحه وهو بعد تلك النضارة والنعيم ذابل، وكادت قناديله وقد سلبت لفقد الماء أن تقطع السلاسل، ولم تشر الناس بأصابعها إلى فصوص تلك الخواتم المذهبة، ولم يبق على ذلك الصحن طلاوة بعد الماء وحلاوة سكه الطيبة، وتذكر المنبر عند قطع الماء أوقاته بالروضة، وتكدرت أفراحه لما ذكر أيامه بتلك الغيضة، وأنشد لسان حاله:

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبرُ

وودت العروس أن تكون مجاورة لحماهما، لتبلى برحيق الأمن إذا نظرت إلى عاصي الحمديّة وقد دخل جناهما، ونظرت إلى فوار أبي نواس وقد انقطع قلبه بعد ما كان يشب ويتجرأ، وكاد أن ينشد من شعره لعدم الماء ألا فاسقني حمرا، ودخلت إلى الكناسة وقد علا بها غبار الحزن فتشهدت من الأسف على كل ناهدة، ورثيت للنساء وقد فقدت بعد تلك النعام المائة، واستطردت إلى باب البريد فوجدت خيول الماء الجارية قد انقطعت عن تلك المراكز، ونظرت إلى السراج الأكبر وقد اعتقدت من ممدوح الماء بعدم تلك الجوائز، ونظرت إلى أهل الصلاة وعليهم في هذه الواقعة من الصبر دروع، وقد استعدوا بساهم من الأدعية أطلقوها عن قسيّ الركوع، مريشة بالهدب من جفن ساهر متصلة اطرافها بدموع، ونظرت إلى الريان من العلم وقد اشتد لفقد الماء ظمأه وتبلّد ذهنه، حتى صار ما يعرف من أين الطريق إلى باب المياه، ومشيت بحكم القضاء إلى الشهود فوجدت كلا منهم قد راجع سهاده وطلق وسنه، وتأملت أهل الساعات وقد صار عليهم كل يوم بسنة، ونزلت في ذلك الوقت الساعات إلى الدرج في دقيقه، فانتهيت إلى مجاز طريق الفوار فوجدته كأن لم يكن له حقيقة، كم وردته وهو كأنه يطعن في صدر الظماء أو شجرة كدناء، وتقول إنها طوبى لما ظهرت واصلها ثابت وفرعها في السماء، أو مغترف بيده الماء وقد أفاض عليه عطايه فيضا فرفع له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء، أو عمود وفاء اشارت الناس إليه بالأصابع، أو ملك طلب السماء بدائع، حتى كان إكليل الجوزاء له من جملة الصنائع، ونسر أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حبات النجوم الثواقب، أو شجاع ذو همة عليّة يحاول تأثراً عند بعض الكواكب، فخفض لفقد الماء منارة وخفى بعد ما كان به أشهر من علم، وجدع أنفه وطالما ظهر وفي عرينه شمم، فقلت:

لست أنسى الفوّار وهو ينادي ... غيض مائي وعطلّ الدهر حالي

فتمنيت من لمبي بآئي ... اشتري غيضة بروحي ومالي

فلا والله ما كانت إلا أيسر مدة حتى رجع الماء إلى مجاريه، وابتسم ثغر دمشق عن شنب الريّ بعدما نشف ريقه في فيه، هذا وقد خمدت نار الحرب وقعدت بعد ما قامت على ساق وقدم، وبطلت آلتها التي كانت لها على تحريك الأوتار وجس العيدان نغم، واعتقل الرمح بسجن السلم وعلى رأسه لواء الحرب معقود، وعمت مقل السيوف في أجفائها لما علمت أن الزيادة في الجدد نقص في الحدود، وفاضت غدران الرحمة على رياض الأمن فظهر لها من نبات حسن، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وبعد فالمعذرة من فهاهة هذه الرسالة التي هي في رياض الأدب بأقلية والصفح عن طولها وقصر بلاغتها بين يدي تلك المواقف السحبانية

وليكون محمولا على متن الحلم كلامها الموضوع، فقد علم الله أنها صدرت من قلب مكسور، وفؤاد مصدوع، وذهن ضعيف وليس لكسير ضعفه عاصم ولا نافع، وراحلة فكر أُمست وهي عند سيرها إلى غايات المعاني ضالع:

فسيروا على سيري فإني ضعيفكم ... وراحلي بين الرواحل ضالعُ
هذا وكم تولد للملوك في طريق الرمل من عقله، وكم ذاق من قطاع الطريق أنكادا حتى ظن أنه لعدم النصره ليس له إلى الاجتماع وصله، وكلما زعق عليه غراب تألم لسهام البيت وفقد مصر التي هي نعم الكنانة، وأنشد وقد تحير في الرمل لفراق ذلك التخت الذي أعز الله سلطانه:

من زعقة الغراب بعد الملتقى ... فارقت مصرًا وبها أحبابي
وفي الطريق الرمل صرت حائراً ... مروّعا من زعقة الغراب
واستقبل المملوك بعد ذلك بلاد الشام فبئس الحال وبئس الاستقبال، فو الرحمن ما وصل بها إلى مكان إلا وجده قد وقعت فيه الواقعة واشتد القتال، وحصدوا سنبل الرشاد فدرست فلا أعيد لمعيد حربهم دروس، وأداروا رحى الحرب بقلوب كالأحجار فطحنت عن ذلك الرؤوس، وأنشد لسان الحال:

من كل عادٍ كعادٍ في تجبُّره ... من فوق ذات عمادٍ شادها إرمُ
لا يجمعون على غير الحرام إذا ... تجمّعوا كحباب الرّاح وانتظموا
وانتهيت الغاية بالملوك إلى أنه شلح بقرب الكسوة في الشتاء وانتظرت ملك الموت وقد أُمسيّت:
لي مهجة في النازعات وعبرة ... في الرسائل وفكرة في أهل أتي

هذا والليل قد أنطفأت مصابيح أنواره وعسعس، حتى أيقنت بموت الصبح وقلت لو كان في قيد الحياة تنفس، فذهب المملوك وقد تزود عند قسم الغنيمة بسهم، فخرج ولم يجد له تعديلا ولكنه صبر على الألم بعد ما كاد يدمى من الوهم، ولم يلق له مجيرا لما قوي ألمه وضعف منه الحيل، إلا أنه دخل تحت ذيل الليل، فوصل إلى البلد وقد ود يومه لو تبدل بالأمس، ولم يسلم له في وقعة الحرب غير الفرس والنفس، ولكنه أنشد:

وتفعل الأعداء في جاهلٍ ... ما يفعل الجاهل في نفسه
فأعاذ الله مولانا وبلاده من تلك القيامة القائمة، وبدأ به في الدنيا ببراعة الأمن وفي الآخرة بحسن الخاتمة.
قلت قد استوعبت هنا تراجم كتّاب الإنشاء ونبذة مما تخيرته من إنشائهم وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشئ الكامل الأدوات من الخاسن اللاتقة به وبالله المستعان.
قلت قد استوعبت هنا تراجم كتّاب الإنشاء ونبذة مما تخيرته من إنشائهم وقد تعين أن أذكر بعد ذلك ما يحتاج إليه المنشئ الكامل الأدوات من الخاسن اللاتقة به وبالله المستعان.
قال أبو حيان التوحيدي يجب على المنشئ أن يكون حافظاً لكتاب الله لينتزع من آياته الشريفة وأن يعرف كثيراً من السنة والأخبار والتواريخ والسير ويحفظ كثيراً من الرسائل والكتب ويكون متناسب الألفاظ متشاكل المعاني عارفاً بما يحتاج إليه ماهراً في نظم الشعر نظيف الثوب لطيف المركب ظريف الكلام ليق

الدواة حاد السكين متودداً إلى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم دمث الأخلاق رقيق الحواشي ترف
الأطراف عذب السجاياء حسن المحاضرة مليح النادرة غير قف ولا متعجرف ولا متكلف الألفاظ الغريبة
ولا متعسف اللغة العويصة.

آداب الكتابة روى الشعبي أنه قال كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة كتب أولها باسمك
اللهم فنزلت سورة هود فيها بسم الله مجراها ومرساها فكتب بسم الله ثم نزلت سورة بني إسرائيل وفيها قل
أدعو الله أو ادعوا الرحمن فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها إنه من سليمان وأنه بسم الله
الرحمن الرحيم فكتبها.

وروي إن فصل الخطاب الذي أعطيه داود عليه السلام أما بعد. روي أن أول من قالها كعب بن لؤي وهو
أول من سمي يوم الجمعة.

وعن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا كتب أحدكم كتاباً فليتربه فإن التراب
مبارك وهو أنجح.

روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه كتب كتابين إلى قريتين فأترب أحدهما ولم يترب الآخر فأسلمت القرية
التي أترب كتابها.

وقال الحسن بن وهب كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك بما تكاتب بها
حبيبك فإن غزل المودة أرق من غزل الصباغة.

ورأيت في تذكرة الوداعي أن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز كان إذا كتب كتاباً بدأ في ترسله بالبسملة
لتعم بركتها سائر الكتاب ورملّه ويحزن ذلك الرمل ويحترز عليه.

وعن عبد الله بن عيسى رضي الله عنهما في قوله تعالى إني ألقى إليّ كتاباً كريم قال مخنوم وفضّ الكتاب إذا
كسر ختمه. والعنوان فيه خمس لغات أفصحها عنوان وجمعه عناوين وعلوان وعلاوين والعنوان الأثر وهو
أثر الكتاب فمن وإلى من هو كما قيل:

ضحوا بأشبط عنوان السجود به

والقلم لا يقال له قلم إلا إذا برى وإلا فهو أنبوبة.

من بديع ما سمعته في وصف القلم من النظم قول الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين علي بن
الآمدي منقول من خط الوداعي:

تمشي البراعة والمداد وراءها ... ظلّ على شمس الطروس ينوع

عوض الغواني لو تلوح لمسلم ... هذي المعاني راح وهو صريع

لو لم تكن ألفاظه خطيّة ... ما راح سرب اللفظ وهو منيع

ألفاظه رقت بوجنة طرسه ... فكأنّهم وقد جرين دموع

قلمٌ مسيحيّ الخطاب لنطقه ... في المهدي من يمنه وهو رضيع

وغدا كليماً وقد ضاهى العصا ... فغدا يروق بفعله ويروع

بالنقط حاكته الشموع وبالضيا ... حاكته في حلك المداد شموع

قد لازم القرطاس وهو منورٌ ... والطلُّ يهوى الروض وهو مريع
نورٌ ونورٌ خطّه وكلامه ... هذا يضيء به وذاك يضوع

وقال فيه وأجاد إلى الغاية:

ليمناه ذو طرفٍ كحيلٍ إذا بكى ... تبسم ثغر الخطّ من دمه عجباً
وقد راح مشقوق اللسان متى جرى ... بثغر الدوى المعسول أبدى اللمى العذبا
قلت من قصيدة رائية:

له يراع سعيدٌ في تقلبه ... إن خطّ خطّاً أطاعته المقادير
محبّرٌ وبتحرير العلوم إذا ... جرى يُرى منه تحريرٌ وتحرير
غصنٌ عليه طيور العلم عاكفةٌ ... وجانس النور من أوراقه النور
وأشقرّ عينه السوداء تلحظنا ... وهذب أجفانها تلك الشعاعير
أو سهمٌ علمٍ بأطراف السطور غدا ... مريشاً وله في الضدّ تأثير
كذا محابره سود العيون فإن ... دانت أياديه فهي الأعين الحور

ويعجبني قول الشيخ شمس الدين ابن المزني في الدواة:

أنا دواةٌ يضحك الجود من ... بكاء يراعي جلّ من قد براه
دلّوا على مثلي من شقّة ... داءٌ من الفقر فينيّ دواه
وقلت فيما يكتب على دواة فولاذ:

كاناة الفضل دواقي ولها ... سهمٌ يراعي نصله نفاذُ
وأسر الخط لديها قاصرٌ ... لأنّها على الحمى فولاذ

قلت ويتعين بعد صف أقلام المنشئين والدواة وصف السكين فإنهم أنشأوا في وصف السيف والقلم وما ألما
بها وهي أحقّ بذلك من غيرها لقربها من القلم وقد تقدم أن أبا طاهر كمال الدين إسماعيل بن عبد الرزاق
الأصفهاني إنفرد برسالة القوس، والشيخ جمال الدين بن نباتة إنفرد برسالة السيف والقلم، وقد انفردت
برسالة السكين.

وهي يقبل الأرض التي قامت حدود مكارمها، وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها، وينهى وصول
السكين التي قطع بها أوصال الجفأ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرء والشفاء، وتالله ما غابت إلا بلغت
الأقلام من تعثرها إلى الحفأ، زرقاء وكم شاهدت منها البيض ألواناً خرساء، ومن العجائب أن لها لساناً لكل
عنوان ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذلل بعد ما خضعت له الرؤوس والرقاب، كم
أيقظت طرف القلم بعدما خط، وعلى الحقيقة ما روي مثلها قط، وكم وجد بها الصاحب في المضائق نفعاً،
وحكم بصدق محبتها قطعاً، ماضية العزم قاطعة السن فيها حدة الشباب من وجهين، لأنها بالناب والنصاب
معلمة من الطرفين، أمثلة صبح تقمصت بسواد الدجى، ولسان برق إمتد في لهوات الليل، فتتكرت أشعة
النجم حتى ما عرفت منها سهيل، هذا وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الخد، ومعلوم أن

السيف والرمح لم يعرفا غير الجزر والمد:
من أجلنا تدخل في مضايق ... ليس لسيفٍ قطُّ فيها مدخل
وكَلِّما تفعله توجزه ... والرمح في تعقيده يطول

إن هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف، وكم لها من خاصة جازت بها الحد إلى السيف، تنسي حلاوة العسال فلا يظهر لطوله طائل، وتعني عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخِل، إن مرت بشكلها اخلى تركت المعادن عاطلة، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادله، شهد الرمح بعدالته إنها أقرب للصواب، وحكم بصحة ذلك قبل أن يتكامل لها النصاب، ما طال في رأس القلم شعرة إلا سرَّحتُها بإحسان، ولا طالعت كتاباً إلا أزال غلظه بالكشط من رأس اللسان، تعقد عليها الخناصر لأنها عدَّة وعده، وتالله ما وقعت في قبضة إلا أطالت لسانها وكلمت بحدِّه، إن أدخلت إلى القراب كانت قد سبقت على الدخول، أو أبرزت من غيمة كان على طلعتها الهلالية قبول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وباقامتها الحد حافظت الاقلام مواظبة الخمس، وكم لها من عجائب تركت جدول السيف وهو في بحر غمده غريق، ولو سمع بها من قبل ضربه ما حمل التطريق، فلو عاصرها الكمال لعرك من قوسه الأذنين، وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين، فإن جذبت إلى مقاومتها كانت لك يد تمتد، وصلت السكين منك العظم وصار عليك قطع وانتهى أمرُك إلى ذا الحد، وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم، إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ولو غُحها الفاضل تحقق قوله إنَّ خاطر سكينه كلٌّ، أو أدركها ابن نباتة ما أقر برسالة السيف وفل، وقال لقلم رسالته أطلق لسانك بشكر مواليك، وأخلص الطاعة لباريك، ولم يقصد المملوك الإيجاز في رسالة السكين ونظمها؛ إلا لتكون مختصرة لحجمها، لا زالت صدقات مهديها تتحلف بما يذبح نحر فقري، وتأتي في كل وقت بما يرى من داء الاحتياج ويرى، قلت وعلى ما وقع من الغريب في رسالة السكين يتعيَّن أن نورد ما وقع من غريب النظم في السيف فإن الشيخ جمال الدين ابن نباتة ذكر من نثره في رسالة السيف بدائع ولكنها مشهورة لتتقرب الناس عنها والاقباس منها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمر بن معد يكرب كيف تقول في الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف قال فاجن قال: هو اجن وعليه تدور الدوائر قال فالنبيل قال منه ما يخطيء وما يصيب قال فما تقول في الدرع قال متقلة للراجل مشغلة للفارس وأما حصن حصين قال فما تقول في السيف قال هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال: لم تقل لا أم لك، قال: الحمى أصرعتني يا أمير المؤمنين: الشريف البياضي:

إنَّا إذا الأرواح ذابت مخافةً ... فتحنا باسطان الرماح ركابها
متى ما أردنا أي ذاق حديدنا ... خلقنا بحدَّ المشرقية فاهها
وقال أبو العلاء المعري:

غراهِه لساناً مشرفيٌّ ... يقول غرائب الموت ارتجالاً
وديث فوقه حمر المنايا ... ولكن بعدما مسخت غملاً

يذيب الرعب منه كلّ غضبٍ ... فلولاً الغمد يملكه لسلاً
وقال النامي:

ذو مدمعٍ من غير ما مستعير ... وتبسّم من ثغره متوالي
يريك من لآلئه متوقّداً ... حنق المنون به على الآجال
وقال الغوي:

كأنّ على إفرنده موجٌ لجّةٍ ... تقاطر في حافاته وتجوّل
حسامٌ غذاء الروح حتى كآئه ... من الله في قبض النفوس رسول
وقال وحيد الدين بن الذروري:

فتقتُ بأجساد الأسود لوحظاً ... رنت للمنايا عن عيون الثعالب
وأنطقت أفواهاً إلى قمم العدا ... بألسنة البيض الرقاق المضارب
بميت الوغي روضٌ تغنى ذبابه ... وسال على نور الطلا كالمداب
وقد رشفت ورد الكلوم صغاره ... وما شربت إلّا دماء الثرائب
وله:

سكران من شربه خمر الدماء فإن ... حيّاه نور الطلا غنى لها هزرجا
لسان الدين بن الخطيب:

وخليج هندٍ راق حسن صفائه ... حتى يكاد يعوم فيه الصيقل
غرقت بصفحته النمال وأوشكت ... تبغي النجاة فأوثقتها الأرجل
فالصرح منه مُمرّد والصفح منه ... مورّد والشطّ منه مهلّل
القاضي الفاضل:

ولربّ هاتفةٍ دعتهم للوغي ... جعلوا صليل المرهفات صداها
هي في بحار يديه أمواجٌ ترى ... ونفوسهم من قتله غرقاها

وقال ابن قلاقس وأجاد:

أسهرتهم وشعرتها فجموعهم ... مذ أحرمت في راحتك حرام
وكلاهما جفنٌ منعت قراره ... لكنّ ذا غضبٍ وذاك سنام
وقال ابن سناء الملك:

له منصل لا ينقضي فرض حجّه ... فبالضرب لبي حين بالنسك أحرمّا
تنسّك بالإسلام لكنّ رأيتّه ... يحلّ له في الشرع أن يشرب الدما
فكم سلّ لما سلّ من بطن غمده ... لسان دمٍ من ضربةٍ خلقت فما
مجير الدين بن تميم:

لما قنيت من الصوارم أعوجاً ... يجري القضاء بنهره المتوجّج

جبت القفار وما حملت أوانياً ... للماء من تقني بنهر الأعوج
وقال الغزي:

وقد سلب الطعن الأسنة لوفاً ... فعصفر في اللبّات ما كان أزرقاً
وأسيافنا في السابغات كأثماً ... جداول تجري بين زهرٍ تفتّقا
ابن خفاجة:

موسدٌ تحت ظل السيف تحسبه ... مستلقياً فوق شاطئٍ جدولٍ ثملاً
جمال الدين بن نباتة:

وصارمٍ كعباب الموج ملتطمٍ ... يكاد يغرق رائيه ويحترقُ
لما غدا جدولاً يُسقى المنون به ... أضحى يشفُّ على حافاته العلق
برهان الدين القيراطي:

قومٌ مناديلهم ييضُ فكم مسحت ... رقاب أعدائهم تلك المناديلُ
وقلت:

وسيفٍ له في الحرب حسن تغزّلٍ ... إذا ما رأيي قد علوت على نهد
فكم خدٌّ فوق صدرٍ مدرّعٍ ... فبان إجمرار الورد في ذلك الخدّ
وكم مال قد في الوغى ميل معجبٍ ... فقابله ذاك المهتد بالقدّ
وكم أعجموا ألفاظهم ساعة اللقاء ... فكلمهمُ ذاك المهتد بالهندي

وقلت وقد وجب أن نذكر هنا ما وقع بع السيف من غريب النظم في الرمح.

ذكر القاضي الرشيدي ابن الزبير في كتابه العجائب والطرف أنه كان في خزانة السلاح أيام السفّاح

خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائتا ألف رمح.

وقال الفضل بن الربيع لما ولي الأمين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرني أن أحضر ما في خزانة السلاح

فكان من السيوف المحلاة بالذهب عشرة آلاف وخمسون ألف سيف للشاكرية والعلمان ومائة وخمسون

ألف رمح ومائة ألف قوس وألف جوشن ومائة ألف وخمسون ألف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة بالذهب

وثلاثون ألف عامة انتهى.

قلت يعجبني قول القاضي في بيت من قصيدة؟

أمتصل الرمح الطويل بكوكبٍ ... من ذا يطاعن والسّمك سنانُ

ومثله في الحسن قول ابن سناء الملك:

ملوكٌ يحوزون الغنائم عنوةً ... بسمر العوالي أو بيض القواضب

رماح بأيديهم طوالٌ كأثماً ... أرادوا بها تنقيب درّ الكواكب

ابن قلاقس وأجاد:

وقد كَحَلْتُ بأميال العوالي ... أساة الحرب أحداق الدروع

وشبّ الباس نيران المواضي ... واسبل غيث أمواه النجيع

فللفرسان من محلٍ ووحلٍ ... حديثٌ عن مصيفٍ أو ربيع
ويعجبني أيضاً قول القاضي الفاضل من قصيدة:
فيا عجباً للملك قرّ قراره ... بمختلفاتٍ من قتال السواحر
طواعن أسرار القلوب نواظرٌ ... كأَنَّك قد نصّلتها بنواظر
ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب وأجاد:
وبكل أزرق إن شكت أحاطه ... مرة العيون فبالعجاجة تكحلُ
متاوِّدٌ أعطافه في نشوةٍ ... مما يعلُّ من الدماء وينهل
عجباً له أنّ النجيع بطرفه ... رمذٌ ولا يخفى عليه مقتل
السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين بن الآمدي:
غصونٌ بما طير النفوس تنافرت ... وعهدي أنّ الطير للغصن يألّفُ
فلا ورقٌ إلّا من التبر حولها ... ولا زهرٌ إلّا من النصر يقطف
ابن نباتة السعدي:
وولّوا عليها يقدمون رماحنا ... وتقدمها أعناقهم والمناكبُ
خلقنا بأطراف القنا لظهورهم ... عيوناً لها وقع السيوف حواجب

قلت رسم كافل المملكة الشريفة الشامية وهو المقر المحرومي العلائي تعمده الله برحمته ورضوانه للفضلاء
بدمشق الخروسة وغيرهم من الفضلاء بالبلاد الشامية أن ينظموا أبياتاً تكتب على أسنة الرماح وتكون عدة
الأبيات أربعة.

فنظم المقر المحرومي الفتحي بن الشهيد قوله:
إذا الغبار علا في الجوّ عاثره ... فأظلم الجوّ ما للشمس أنوارُ
هذا سناني نجمٌ يستضاء به ... كأَنَّهُ علم في رأسه نار
والسيف إن نام ملء الجفن في غلقٍ ... فإني بارزٌ للحرب خطار
إنّ الرماح لأغصانٌ وليس لها ... سوى النجوم على العيدان أزهار
ونظم الرئيس شمس الدين بن المزين:
أنا أسمرٌ والراية البيضاء لي ... لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحلّ بي عيش العداة لأنني ... نوديت يوم الجمع بالمران
وإذا تفاهمت الكمأة بحفلي ... كلّمتهم فيه بكلّ لسان
فتخالمهم غنماً تساق إلى الردى ... قهر المعظم سطوة الجوبان
ونظم المقر المحرومي وهو إذ ذاك كاتب السر بممص الخروسة:
عروسُ سناني حين تجلّى على العدا ... وتظهر تبدي ما لهم من بواطنٍ
وقد صيغ من همّ فين صدورهم ... مجالٌ له رحبٌ فسيح المواطن

سيلقون يوم الجمع غناً لموئهم ... بطعني ويوم الجمع يوم التغابن
وإن شهدوا بالجور في وعدلوا ... فإني قد بينت فيهم مطاعني
ونظم قاضي القضاة صدر الدين ابن الأمدى سامحه الله:
النصر مقرون بضرب أسنة ... لمعناها كوميض برق يشرق
سبكت لتسبك كل خصم مارد ... وتطرقت لمعانيد يتطرق
زرق فوق البيض في الهيجا إذا ... يحمر من دمه العدو الأزرق
ينسخن بوم الحرب كل كتيبة ... تحت الغبار فنسخهن محقق
وقلت:

أنا رمح ورمح الأفق يخشى ... من سموي إليه يوم الطعان
وإذا أنكروا عدالة قدي ... يوم حكم جرحتهم بلساني
وسناني كالبرق بل صار منه ... قلب سيف البروق في خفقان
رمحه للردين ينسب لكن ... صاح لما علاه ذا بالسنان
مجير الدين بن تميم:

لو كنت تشهديني وقد حيي الوغا ... في موقف ما الموت فيه بمعزل
لترى أنايب القناة على يدي ... تجري دماً من تحت جناح القسطل
ابن شرف القيرواني:

وقد وخطت أرماحهم مفرق الدجى ... فبان بأطراف الأسنة شائبا
ذكر الثعالي في لطائف المعارف أن أول من عمل السنان من حديد ديرون الحميري وإليه تنسب الرماح
اليزنية وإنما كانت أسنة العرب من صياصي البقر.
قلت لم يبق بعد السيف والرمح غير اقوس لو أن رسالة القوس مشتملة بكاملها على إصابة الغرض لأثبتها
هنا ولكن جمع في نظم عقدها بين الجوهر والعرض وبراعة استهلاكها غاية لا تدرك.
وهي ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء
سبباً فأتبع سبباً.
ومن غاياتها بعد ذلك قوله منها صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو
ما اختلط بعظم.

ومن أصاب الغرض بالغازه في القوس الشهاب الأعزازي بقوله:
ما عجوز كبيرة بلغت عمراً ... طويلاً وتقيها الرجال
قد علا جسمها صفراً ولم تشك ... سقاماً ولا عراها هزال
ولها في البنين سهم وقسم ... وبنوها كبار قدر نبال
صفي الدين الحلبي ملغزاً فيه:

وما اسم سراه في البروج وإنما ... يحل به المريخ دون الكواكب

إذا قدّر البارى عليه مصيبةٌ ... عدته وحلت في صدور الكتائب

الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

لله مملوكٌ إذا ... ما قام في الشغل اعترضُ

لكنّه في ساعةٍ ... محصّلٌ لك الغرض

ومن الغايات التي لا تدرك لغز قاضي القضاة صدر الدين ابن الآدمي رحمه الله تعالى في الستوران ما رفق:

ما رقيقٌ وصاحبٌ لك تلقاه ... معيناً على بلوغ المرام

هو للعين واضحٌ وجليٌّ ... وتراه في غاية الإبهام

قلت ومن نظمي في القوس:

قوسي إذا جذبته يطربني ... بجسّ عوده وتحريك الوترِ

ونجم ذاك السهم إن فوقته ... يرى له في طارة البدر أثر

الشيخ جمال الدين ابن نباته:

فديتك أيّها الرامي بقوسٍ ... ولحظٍ يا ضنى قلبي عليه

لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ ... وشبه الشيء منجذبٌ إليه

قلت لم يبق بعد وصف آلة الحرب وصف غير الخيل المسوّمة التي لا بد لفحول كتاب الإنشاء من الجولان

في ميدان وصفها ومجرى السوابق الذي جمعته في هذا الباب قد تقدم في الجزء الأول من بلوغ المراد ولكن

إذا كنت منشىء دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة يتعين عليّ أن أورد هنا لكتاب

الإنشاء من فقه هذا الفن ما يحتاجون إلى معرفته.

قلت السجع مأخوذ من سجع الحمام واختلف فيه هل يقال في فواصل القرآن أسجاع أم لا فمنهم من منعه

ومنهم من أجازه والذي منع تمسك بقوله تعالى كتاب فصلت آياته فقال قد سماه فواصل فليس لنا أن

نتجاوز ذلك والسجع ينقسم إلى أربعة أقسام المرصع والمطرف والمتوازي والمشطر.

فالمرصع عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها وهو مأخوذ من

مقابلة العقد في ترصيعه ومن أمثلته الشريفة في الكتاب العزيز إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم

ومثله قوله تعالى إن إلينا إياهم ثم إن علينا حسابهم ومنه قول الحريري في المقامات يطبع الأسجاع بجواهر

لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.

والمطرّف هو أن يأتي المتكلم في آخر كلامه أو في بعضه بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في

عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روى القافية كقوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم

أطواراً.

وكقولهم جنباه محط الرحال ومخيم الآمال.

ومن أمثلته الشعرية قول أبي تمام:

تحلّى به رشدي وأثرت به يدي ... وفاض به ثمدي وأورى به زندي

الثالث المتوازي وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي كقوله تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً.

ومنه قول الحريري في المقامات: وأودى بي الناطق والصامت ورثي لي الحاسد والشامات انتهى.

القسم الرابع السجع المشطر وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الآخر ولكن هذا القسم مخصص بالنظم كقول أبي تمام يمدح أمير المؤمنين المعتصم رحمه الله تعالى:

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب

انتهى باب السجع قلت وقالت علياء هذا الفن إن قصر الفقرات في الإنشاء يدل على قوة المنشاء وأقل ما تكون من كلمتين كقوله تعالى يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب العزيز لكن الزائد على ذلك هو الأكثر.

وكان بديع الزمان يكثر من ذلك كقوله: كميت نهد كأن راكمه في مهد يلطم الأرض بزبر وينزل من السماء بخبر لكن قالوا التذاذ السامع بما زاد على ذلك أكثر لشوقه إلى ما يرد منه متزايداً على سمعه انتهى. وأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى بقدر غير كثير لنلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوي القرينتين الأوليتين وزيادة الثالثة عليهما وإن زادت الثانية على الأولى يسيراً والثالثة على الثانية فلا بأس ولكن لا يكون أكثر من المثل مثاله في القرينتين قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إذا تكاد السموات ينفطرون منه تنشق الأرض وتخر الجبال هذا فالثانية أطول من الأولى.

ومثاله في الثالثة قوله تعالى وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّطاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا.

ومن فوائد الإنشاء أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها في المعنى لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى لم يحسن كقول صاحب بن عباد في وصف منهزمين طاروا واقين يظهرونهم صدورهم وبأصلاهم نحورهم فالظهور بمعنى الأصلاب والصدور بمعنى النحور.

ومنه قول الصابي يسافر رأيه وهو دان لا يبرح ويسير وهو باق لا ينزح فلا يبرح ولا ينزح بمعنى واحد ويسافر ويسير كذلك.

ومن فوائد الإنشاء التي يتسع فيها المجال على المنشاء أن السجع مبني على الوقف وكلمات الإسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز موقوفاً عليها لأن الغرض أن يجانس المنشاء بين القرائن ويزاوج ولا يتم له ذلك إلا بالوقف إذا لو ظهر الأعراب لغات ذلك الغرض وضاق المجال على قاصده فإن قافية السجعة، إذا كانت في محل نصب وأختها في محل رفع ساوى بينهما السكون وصار الإعراب مستتراً فلو أثبتوا الإعراب في قول من قال ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة والثانية مكسورة منوثة فيفوت غرض المنشاء.

ومن ذلك أن السجع مبني على التغير فيجوز أن يغير لفظ القافية الفاصلة لتوافق أختها فيجوز فيها حالة ازدواج ما لا يجوز فيها حالة الإنفراد.

فمن ذلك الإمالة فقد يكون في القواصل ما هو من ذوات الياء وما هو من ذوات الواو فتعال التي هي من ذوات الواو وتكتب الياء حملاً عن ما هو من ذوات الياء لأجل الموافقة كقوله تعالى والصحي فالصحي أميلت وكتبت بالياء حملاً على ما في السورة الشريفة من ذوات الياء لأجل الموافقة. وكذلك سورة والشمس وضحاها أميلت فيها ذوات الواو وكتب بالياء حملاً على ما فيها من ذوات الياء. ومن حذف المفعول نحو قوله تعالى: ما ودعك ربك وما قلى الأصل وما قلاك ولكن حذفت الكاف لتوافق القواصل.

ومن ذلك صرف ما لا ينصرف كقوله تعالى قواريراً وصرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الشريفة ولو تتبع التأمل ذلك في الكتاب العزيز لوجده كثيراً. ومما جاء في ذلك في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم أعيذه من الهامة والسامة ومن كل عين لامة الأصل عين ملمة.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم مأزورات غير مأجورات الأصل موزورات بالواو لأنه من الوزر ولكن همز ليوافق مأجورات.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم الأصل ما وأدعوكم ولكن حذفت الألف لتحصل الموافقة.

قلت وهذا نوع من المشاكلة لأن المشاكلة في اللغة هي المماثلة وهي في المصطلح ذكر الشيء بغير لفظه لموافقة القرائن ومشاكلتها كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة والأصل وجزاء سيئة عقوبة.

ومنه قوله تعالى تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك والأصل تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك لأن الحق تعالى وتقدس لا تستعمل لفظة النفس في حقه إلا أنها استعملت هنا للمماثلة والمشاكلة كما تقدم. ومنه قوله تعالى ومكروا ومكر الله والأصل وأخذهم الله.

وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: فإن الله لا يمل حتى تملوا الأصل فإن الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا من مسئلته فوضع لا يمل موضع لا يقطع لأجل المشاكلة وهو مما وقع فيه لفظه المشاكلة أولاً. ومنه قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لي جبةً وقميصاً

أراد خيطوا لي جبة وقميصاً وذكره بلفظ اطبخوا لوقوعه في صحبة طبخة انتهى.

قلت ومن غايات الإنشاء البلاغة في المقاصد والبلاغة هي أن يبلغ المتكلم بعبارة كنه مراده مع إيجاز بلا أحوال وإطالة من غير امالال.

والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وقيل البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ. يقال معنى بليغ ولفظ فصيح والفصاحة خاصة تقع في المفرد يقال كلمة فصيحة ولا يقال كلمة بليغة ففصاحة المفرد خلوصه من

التعقيد وتنافر الحروف والفصاحة أعم من البلاغة لأن الفصاحة تكون صفة الكلمة والكلام يقال كلمة فصيحة وكلام فصيح والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام فيقال كلام بليغ ولا يقال كلمة بليغة واشتركا في وصف المتكلم بهما فيقال متكلم فصيح بليغ.

فمن الإنشاء البليغ الفصيح قول عبد الحميد عند ظهور الخراسانية بشعار السواد: فاثبتوا ريشما تنجلي هذه الغمرة وتصحوا من هذه السكرة فسينصب السيل وتمحي آية الليل. ومثله قول أبي نصر العتيبي: دبَّ الفشل في تضاعيف أحشائهم وسرى الوهن في تفاريق أعضائهم فجيوب الأقطار عنهم مزرورة مجرورة.

ومثله قول الصابي نزع به شيطانه وامتدت في الغيَّ أشطانه. ومثله قول بدیع الزمان: كتابي إلى البحر وإن لم أره فقد سمعت خبره واليـث وإن لم ألقه فقد تصورت خلقه ومن رأى من السيف أثره فقد رأى أكثره. ومثله قول القاضي الفاضل ووافينا قلعة نجم وهي نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة له الغمام عمامه وأتملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال له قلامه.

قلت ويعجبني في هذا الباب من انشاء الشهاب محمود قوله في وصف مقدم سرية: كَشَفُ الأزار في مقاصده أخف من وطأة ضيف، وفي مطالبه أخفى من زورة طيف، وفي تنقله أسرع من سحابة صيف وأروع للعدا من سلّة سيف.

ومثله في الحسن قوله في صدر مثال شريف سلطاني: أصدرناها والسيوف قد أفتت من الغمود ونفرت من قِرْبَها، والأسنة قد ظمّت إلى موارد القلوب وتشوقت إلى الإرتواء من قلبها، والحماة ما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه والأبطال ليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه. ومثله في الحسن ما كتبت به جواباً عن مولانا السلطان الملك المؤيد سقى الله ثراه إلى قرا يوسف ملك العراق يتضمن خطاب الإيناس نظير ما خطب في مكاتبته.

فمن الجواب قولي: وهذه ألفة حولتنا في نعم الله وزمام الأخوة منقاد إلينا، وقد تعين على المقران يقول أنا يوسف وهذا قد من الله علينا، وقد سرتنا الإشارة الكريمة بالتمكن من أرض العدا ومطابقة الطول بالعرض وهذا الأسم قد شملته العناية قديما بقوله تعالى: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض وأما قرا عثمان فقل سيوفنا ما غمضت عنه في أجفائها، وأنامل أسنتنا ما ذكرت توبته إلا شرعت في جس عيائها، وجوارح سهامنا من برحت تنفض ريش أجنحتها للطيران إليه، وإن كان معنى سافلاً فلا بد لأجل المقرّ أن نخيم عليه، وينزل سلطان قهرنا بأرضه ويغرس فيها عيدان المران، وإن كانت من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يهمل إلا لإشغال الدولتين بالدخول في تطهير الأرض من الخارج وإيقاع الضرب الداخل من جس العيدان في كل خارج، ويدهمه من ابن أبي النصر أبناء حرب شرف في أنساب الوقائع جدّهم، ورد الجموع الصحيحة إلى لتكسير فردهم، وإذا كثرت الحدود وتوردت بالدماء عذرت بورق الحديد الأخضر مردهم، إذا امتدوا إلى آمد تلا هم حصنها في سورة الفتح قبل القتال، فإنهم يريدون ولهم شيخ منحه الله بكثرة

الفتوح والإقبال، وإذا صرفوا الهمم المؤيدية لم تكن حصونهم عند ذلك الصرف مانعة، ولم يسمع لسكانها مجادلة إذا صدموا بالحديد وتلت حصونهم في الواقعة، وما خفي عن كريم علمه ما جمعه الناصر من الجموع التي فرقها الله أيدي سبأ، وكم سئل سائل وقد رآهم في النازعات عن ذلك العصر بالنبا، وقد أشار منشيء دولتنا الشريفة إلى ذلك في قصيد كامل بحره والقصد هنا من أبيات ذلك القصيد قوله:

يا حامي الحرمين والأقصى ومن ... لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر ... هذا وما في العالمين مناظر
زحف على المخون نظم عسكرياً ... وأطاعه في النظم بحرٌ وافر
فانبت منه زحافه في وقعة ... يا من بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم ... دارت عليهم من سطك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة ... فكأن هاتيك السروج مقابر

وما خفي عن علمه الكريم أمر الذين نقضوا بيعتنا واشتروا الضلالة بالهدى، ودعوا سيوفهم الصقيلة لما حاق بهم المكر السيئ فأجابهم الصدى، ولم يكن في حرارة عزمننا الشريف عند عصيانهم البارد فترة، حتى أظهرنا بألوان الشام من دمائهم على تدييح الدروع ألوان البصرة، وأخذوا سريعاً بشأن حرب ما شابت عوارضهم إلا بغبار الوقائع، وحكم برشدتهم ولم يخرجوا من تحت حجر المعامع، وقد اسبغ الله ظلال الملك وخيم به على الدولتين، ولم يظهر لخراب بهجة إلا بهاتين القبلتين، ولو صلت السيوف لغيرهما ما قبلت، أو صرفت العوامل إلى غير نحوهما ما علمت، فقد فهمنا كريم الالتفات إلى أن تدار كؤوس الإنشاء بيننا مزوجة بصافي المودة، وعلمنا أنها أحكام صحيحة في شرع الأخوة ولهذه الأحكام عندنا عمدة، وقد سبق القصد اليوسفي بسهام مراده إلى الغرض، وقضى حاجة في نفس يعقوب الحبة ليس عنها عوض، ولم يبق إلا اتصال شمل الأوصال بكل رسالة سطورها في رقاع الأخوة محققة، وتصديق ما يقصده في كريم جوابه فإن القصة اليوسفية ما برحت مصدقة، والله تعالى يمتع الأبصار والأسماع بمشاهدة أمثلته وطيب أخباره، ويفكهنها من بين أوراقها بشهي ثماره، إن شاء الله تعالى انتهى ما دنت قطوفه من ثمرات الأوراق، وحلا في الأذواق السليمة وراق.

وهذا ذيل ثمرات الأوراق للإمام تقي الدين بن حجة رحمه الله تعالى وهي محاضرات لا يستغني عنها وعلي يعول فلذلك ألحقت بالأصل في الطبع وجعلت تنمة للأول.

بسم الله الرحمن الرحيم

يحكى أن هارون الرشيد حج ماشيا وإن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادي كانت له جارية تسمى غادر وكانت أحظى الناس عنده وكانت من أحسن النساء وجهاً وغناءً فغنت يوماً وهو مع جلسائه على الشراب إذ عرض له سهو وفكر وتغير لونه وقطع الشراب فقال للجلساء ما شأنك يا أمير المؤمنين قال قد وقع في قلبي إن جاري غادر يتزجها أخي هارون بعدي فقالوا يطيل الله بقاء أمير المؤمنين وكلنا فداؤه فقال

ما يزيل هذا ما في نفسي وأمر بإحضار هارون وعرفه ما خطر بباله فاستعطفه وتكلم بما ينبغي أن يتكلم به في تطيب نفسه فلم يقنع بذلك وقال لابد أن تحلف لي قال أفعل وحلف له بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحجٍّ وصدقة وأشياء مؤكدة فسكن ثم قام فدخل على الجارية فأحلفها بمثل ذلك ولم يلبث إلا شهراً ثم مات فلما أفضت الخلافة إلى هارون أرسل إلى الجارية يخطبها فقالت يا سيدي كيف وبما أيمانك فقال أحلف بكل شيء حلفت به من الصدقة والعق وغيرهما إلا تزوجتك فتزوجها وحجاً ماشياً ليمينه وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها في حجره ولا يتحرك حتى تنتبه فبينما هي ذات ليلة نائمة غد انتبهت فرعة فقال لها مالك قالت رأيت أحاك في المنام الساعة وهو يقول:

أخلفت وعدك بعدما ... جاورت سكان المقابر

ونسيتني وحنثت في ... أيمانك الكذب القواجر

فظللت في أهل البلاد ... وعدت في الحور الغرائر

ونكحت غادرة أخي ... صدق الذي سمك غادر

لا يهنك الألف الجديد ... ولا تدر عنك الدوائر

ولحقت بي قبل الصباح ... وصرت حيث غدوت صائر

والله يا أمير المؤمنين فكأنها مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة فقال الرشيد هذه أضغاث أحلام فقالت كلا والله ما أملك نفسي وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة.

وحكى ابن أبي حجلة في كتابه سلوك السنن إلى وصف السكن أخبرني شمس الدين محمد بن فراج الحسيني

أخبرنا شيخنا أثير الدين أبو حيان أنبأنا فتح الدين بن الدمياطية قال رأيت في المنام شيخاً حسن الصورة

والمشية وعليه مزدوجة وكأنا نمشي في طريق وأنا راكب دابة فقلت له راهني فقال ليس الماشي برفيق

الراكب فقلت إركب أنت وأمشي أنا فقال المسئلة بحالها ثم أفضنا في الحديث فسألني ما صنعتك فقلت

كاتب فقال كاتب إحسان أو كاتب إنشاء فقلت شيء من هذا وشيء من هذا فقال ما يدعي دعواك عبد

الرحيم ولا عبد الحميد ثم قال هل تنظم الشعر قلت نعم قال أنشدني وكنت قد عملت قصيداً حجازياً

وكتبت أستجيده فأنشدته إلى أن بلغت قولي:

تركوا بماء النيل ماءً سلسلاً ... وترشقوا ماء الثمار مكدراً

كتاب : ثمرات الأوراق
المؤلف : ابن حجة الحموي

فقال لي لا شيء فقلت لم قلت ذلك وما عيب هذا البيت فقال لو قلت صافياً لكان حسناً وكان طباقاً لأن الكدر يقابله الصافي قلت له هذا حسن فمن أنت يرحمك الله قال أبو مرة قلت لا خير ولا مير قال بك ثم بعد ذلك بشهر رأيته في المنام على الهيئة المتقدمة فسلم عليّ سلام من يعرفني ثم قال هل تعرف من الشعر الميشوم شيئاً قلت نعم قال فأنشدني وكنت قد عملت قطعة شعر حال ضعفي بالنزلة فأنشدته إياها:
لله ما أشكوه من نزلة ... قد ضرَّ منها ضيق أنفاسي
ومن صداعس ضقت ذرعاً به ... باتت يدي منه على راسي
فقال هذا والله الشعر ثم قال: أضف إليهما:
فأعجب إلى دائنٍ قد عزّزا ... بثالثٍ من داء إقلاس
وحكي في مرآة الزمان وغيرها من ترجمة شمس الدين توران شاه بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين قال محمد بن علي الحكيم الأديب رأيت شمس الدولة بعد موته فمدحته بأبيات فلفّ كفنه ورمى به إلي وقال:
لا تستقلنَّ معروفاً سمحت به ... ميتاً فأمسيت منه عاري بذلي
ولا تظننَّ جوداً شأنه بخلٌ ... من بعد بذلي ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي ... من كلِّ ما ملكت كفي سوى الكفن
حكى أنه كان ببغداد شخص يعرف بأبي القاسم الطنبوري صاحب نواذر وحكايات وله مداس له مدة سنين كلما انقطع منه موضع جعل عليه رقعة إلى أن صار في غاية الثقل وصار يضرب به المثل فيقال أثقل من مداس أبي القاسم الطنبوري فاتفق أنه دخل سوق الزجاج فقال له سمسار: يا أبا القاسم قد وصل تاجر من حلب ومعه زجاج مذهب قد كسد فابتعه منه وأنا أبيعك لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين فإبتاعه بستين ديناراً ثم دخل سوق العطارين فقال سمسار آخر قد ورد تاجر نصيين بما ورد في غاية الحسن والرخص ابتعه منه وأنا أبيعك لك بفائدة كثيرة فإبتاعه بستين ديناراً أخرى ثم جعله في الزجاج المذهب ووضعه على رف في صدر البيت ثم دخل الحمام بغلس فقال له بعض أصدقائه يا أبا القاسم: أشتهي أن تغير مداسك فإنه في غاية الوحشة وأنت ذو مال فقال السمع والطاعة ولما خرج من الحمام ولبس ثيابه وجد إلى جانب مداسه مداساً جديداً فلبسه ومضى إلى بيته وكان القاضي دخل الحمام يغتسل ففقد مداسه فقال الذي لبس مداسي ما ترك عوضه شيئاً فوجدوا مداس أبي القاسم فإنه معروف فكبسوا بيته فوجدوا مداس القاضي عنده فأخذ منه وضرب أبو القاسم وحبس وغرم جملة مال حتى خرج من الحبس فأخذ المداس وألقاه في الدجلة فغاص في الماء فرمى بعض الصيادين شبكة فطلع فيها المداس فقال هذا مداس أبي القاسم والظاهر أنه سقط منه فحمله إلى بيت أبي القاسم فلم يجده فرماه من الطاق إلى بيته فسقط على الرف الذي عليه الزجاج فتبدل ماء الورد وأنكسر الزجاج فلما رأى أبو القاسم ذلك لطم على وجهه وصاح وافقره أفقرني هذا المداس ثم قام يحفر له في الليل حفرة فسمع الجيران حسَّ الحفرة فظنوا أنه نقب فشكوه إلى الوالي فأرسل إليه من

اعتقله وقال له تنقب على الناس حائطهم اسجنوه ففعلوا فلم يلحج من السجن إلى أن غرم جملة مال فأخذ المداس ورماه في مستراح الخان فسد قصبة المستراح وفاض فكشف الصنّاع ذلك حتى وقفوا على موضع السد فوجدوا مداس أبي القاسم فحملوه إلى الوالي وحكوا له ما وقع فقال غرموه المصروف جملة فقال ما بقيت أفارق هذا المداس وغسله وجعله على السطح حتى يجف فرآه كلب ظنه رمة فحملة وعبر به إلى سطح آخر فسقط على امرأة حامل فأرتجت وأسقطت ولدا ذكراً فظروا ما السبب فإذا مداس أبي القاسم فرجع إلى الحاكم فقال يجب عليه غرة فابتاع لهم علماً وخرج وقد افتقر ولم يبق معه شيء فأخذ المداس وجاء به إلى القاضي وحكى له جميع ما اتفق له فيه وقال أشتي أن يكتب مونا القاضي بيني وبين هذا المداس مبارأة بأنه ليس مني ولست منه وإني بريء منه ومهما فعله يؤاخذ به ويلزمه فقد أفقرني فضحك القاضي ووصله بشيء ومضى وانتهى.

هذه قصيدة ليزيد بن معاوية وهي عزيزة الوجود:

وسرب كمين الديك ميل إلى الصبا ... رواتع الحادي سود المدامع
سمعن غناءً بعد ما عنّ نومة ... من الليل يمللهن فوق المضامع

أيا دهر هل شرح الشبية راجع ... مع الخفريات البيض أو غير راجع
قنعت بزور من خيال بعثته ... وكنت بوصل منهم غير قانع
إذا رمت من ليلى على البعد نظرة ... لتطفي جوى بين الحشا والأضالع
تقول رجال الحيّ تطمع أن ترى ... لليلي وصلاً من بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهرتها بالمدامع
أجلُّك يا ليلى عن العين إنّما ... أراك بقلب خاضع لك خاشع
وما سرّ ليلى ما حييت بذائع ... وما عهد ليلى أن تناءت بضائع
ومن غريب ما يحكى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والدة يزيد بن عبد الملك بن مروان
حرمّت على اثني عشر من الخلفاء من بني أمية معاوية جدها ويزيد أبوها ومروان أبو زوجها والوليد
وسليمان وهشام بنو عبد الملك أولاد زوجها والوليد بن يزيد بن ابنها ويزيد بن الوليد بن زوجها وإبراهيم
بن مروان بن الوليد بن زوجها أيضاً ويزيد من عبد الملك ابنها ومعاوية بن يزيد بن معاوية أخوها وزوجها
عبد الملك بن مروان ولم يتفق ذلك لامرأة غيرها انتهى. وجد بخط قاضي القضاة. شهاب الدين أحمد بن
حجر حافظ العصر قال وجد بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن أبي حجلة التلمساني قال أنشدني
القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام سنة خمس وخمسين وسبعمائة وأجاد:

أمباني الأهرام كم من واعظ ... صدع القلوب ولم يفقه بلسانه
أذكرني قولاً تقادم عهده ... أين الذي الهرمان من بنيانه
هنّ الجبال الشامخات تكاد أن ... تمتد فوق الأفق عن كيوانه
لو أن كسرى جالس في سفحها ... لأجل مجلسه على إيوانه

ثبتت على حرّ الزمان وبرده ... مدداً ولم تأسف على حدثانه
والشمس في إحراقها والريح عن ... دهبوها والسيل في جريانه
هل عابداً قد خصّها بعبادة ... فمباني الأهرام من أوثانه
أو قائل يقضي برجة نفسه ... من بعد فرقته إلى جثمانه
فاختارها لكنوزه وجسمه ... قبراً ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصداً ... يختار راصدها أعزّ مكانه
أو أنها وضعت بيوت كواكب ... أحكام فرس الدهر أو يونانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها ... علماً يحار الفكر في تبيانها
في قلب رائيتها ليعلم نقشها ... فكر يعضّ عليه طرف بنانه
يحكى أن القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان يمر على الناس ولا يسلم عليهم فلامه بعض
أصحابه في ذلك فقال:

يقولون لي فيك أنقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف النذل أحجما
ارى الناس من وانا هم هان عندهم ... ومن أكرمه عزّة النفس أكرما
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أكن ... أقلّب كفي إثره متندما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما ... بدا مطمّع صيرته لي سلّما
وما كل برق لاح لي ستغزني ... ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهلّ قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحر تحتمل الظما
أهيتها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلّة ... إذا فاتباع الجهل قد كان أزمّا
ولو أنض أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعظّما
ولكن أهانوه فهان ودّسوا ... محيّا بالأطماع حتى تجهّما

قال شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب بن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي الشافعي سقى الله عهده لقد
صدق هذا القائل لو عظّموا العلم عظّمهم قال وأنا أقرأ قوله لعظم بفتح العين فإن العلم إذا عظم تعظم
وهو في نفسه عظيم ولكن أهانوه فهانوا ولكن الرواية فهان وعظم بضم العين والأحسن ما أشرت إليه
انتهى.

قال الشيخ الإمام العالم العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي في أجوبته عن الاعتراضات التي على
جمع الجوامع ومن ظريف ما يستفاد قول أبي نواس:

أباح العراقيّ النبيذ وشربهُ ... وقال حرمان المدامة والسكر
وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ ... فحلّت لنا من بين قوليهما الخمر

سأخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازر الوزر
وقد سألني الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي رحمه الله عن معنى هذه الأبيات ومعناها أ، العراقي
وهو أبو حنيفة رحمه الله أباح النبيذ وحرم المدامة وهي الخمر أسكرت أم لم تسكر وحرم أيضاً المسكر من
كل شيء وأن الحجازي وهو الشافعي رحمه الله قال الشرابان واحد فأخذ أبو نواس بالموجب فكأنه قال
أثما واحد ولكن في الحل لا في الحرمة وإليه الإشارة بقوله: " فحلّ لنا من بين قوليهما الخمر " ثم هذا إنما
ذكره أبو نواس على عادة الشعراء في الكيس والظرافة ولا يقصد حقيقته فإنه لا يقول به أحد ولعله أشار
بقوله " سأخذ من قوليهما طرفيهما " إلى آخره أنه لا يعتقد بل هو شاعر كما يقول ولا يفعل كذلك
لا يعتقد فهو على زعم يشربها وإن لم يعتقد الحل إذ كيف يمكن أن يقال أنه يعتقد الحل وقد قال " لا فارق
الوازر الوزر " فهذا إن شاء الله معنى هذه الأبيات وهي على حال من كلمات الشعراء التي لا يمتنع بها في
دين الله تعالى.

أعتلّ ذو الرياستين الفضل بن سهل بخراسان مدة طويلة ثم أبلّ واستقبل وجلس للناس فدخلوا إليه وهنأوه
بالعافية فانصت لهم حتى انقضى كلامهم ثم أندفع فقال إن في العلل لنعما لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوا منها
تمحيص الذنوب وثواب الصبر وإيقاظ من الغفلة وإذكاء بالنعمة في حال الصحة واستدعاء للتوبة وحض
على الصدقة ورضاء بقضاء الله وقدره فانصرف الناس بكلامه ونسوا ما قاله غيره انتهى.

وحكي عن ابن المبارك أنه قال حججت إلى بيت الله الحرام فبينما أنا في الطواف إذ عييت فجلست أستريح
ووضعت راسي على ركبتي فغلبنى النوم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول يا ابن المبارك إذا أنت
قضيت حجك وحللت عقدك ورجعت إلى أرض العراق ودخلت دار السلام فأقصد الحلة اليت بها بهرام
الجوسي فإذا لقيته فأخبره أن النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يقول لك أبشر فإن
قصرك في الجنة غدا من أقرب القصور إلى قصري قال عبد الله فانتبهت لذلك فرعا مرعوباً وتفكرت ساعة
فغلبنى النوم ثانياً فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أيضاً يقول يا ابن المبارك لا تشك في منامك فهو حق
والشيطان لا يتمثل بصورتي قط فإذا قضيت حجك وحللت عقدك وأنصرفت إلى العراق فاطلب هذا
الجوسي بهرام وبشره بما قلت لك فانتبهت أيضاً مرعوباً واستعذت بالله واستغفرته وتفكرت ساعة فغلبنى
النوم فتمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثالث مرة وهو يقول يا ابن المبارك أنا محمد رسول الله فلا
ترتبك في ذلك وامثل أمري فهو حق فقلت يا رسول الله أريد بذلك علامة ألقاه بها فأخذ رسول كفي
بيمينه ثم قال: يا ابن المبارك هذا الجوسي شيخ زمنٍ قد أتى عليه مائة وأربعون سنة وقد ضعف بصره وتقل
سمعه وأبيض شعره ودق عظمه ويس عصبه وجلده فإذا أتيتته وسلمت عليه وبشرته بما قلت لك وطلب
منك علامة فأمسح بيدك هذه التي أخذتها بيميني على رأسه ومر بها على وجهه وسائر جسده وبدنه فإنه
يعود شاباً ويرجع إليه بصره وسمعه ويسود شعره ويطرى جسده ويقوى عصبه وتعود إليه قوته فانتبهت وأنا
كالولهان فلما أن قضيت حجي وحللت عقدي وأنصرفت إلى العراق ودخلت بغداد سألت عن دار الجوسي
فقلت يا غلام استأذن لي على مولاك فقال الغلام أغريب أنت قلت أجل قال أدخل ليس هنا من يحجبك

قال فدخلت إلى دار لم أرَ مثلها وإذا بكتبة ومجوس وصياريف قعود وهم يقبضون الرهون ويعطون الدنانير والدراهم فقلت يا قوم افيكم بهرام فقيل أدخل الدار الثانية فدخلتها فإذا ليس بينها وبين الدار الأولى نسبة بل تفاوت وإذا بشيخ قاعد على دست ومرتبة على الصفة التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله جماعة من الكتاب والحساب وبين أيديهم الدنانير والدراهم كالبيادر الصغار وهم في الحساب فسلمت كما أمرني النبي صلى الله عليه وسلم فرد علي السلام وكان قد شد حاجبه بعصابة فرفعها عن عينه ثم قال من الرجل قلت عبد الله بن المبارك فقال مرحباً بك لقد شمت بك رائحة زال بها الهم عن قلبي أدن من فجلست إلى جانبه فقال هل لك من حاجة قلت نعم قال وما هي قلت أرى أن أحلوا بك ساعة فقال نعم وأمر من هنك بالخروج فتهيأوا ثم خرجوا فبقيت أنا وهو وثلاثة شبان قلت هؤلاء أصرفهم يا بهرام كم تعد من السنين قال أعد مائة وأربعين سنة قلت فهل تعرف أنك عملت شيئاً استوجبت به من الله الجنة قال لا أدري إلا أني رزقت ثلاثة بنين وثلاث بنات فزوجت بعضهم من بعض وأعطيت مهرهن من عندي وافردت لكل واحد منهم مالاً وداراً وعقارات قلت لا تستوجب الجنة بل تستوجب النار فهل عملت شيئاً صالحاً لاخرتك قال قسمت ليلي ثلاثة أجزاء أما الجزء الأول فإني أقعد للمساهرة وتقرأ عليّ سير الأول فانفرج بذلك والجزء الثاني أعبد فيه النار وأسجد لها من دون الله الواحد القهار والجزء الثالث أفكر فيه في أمر معاشي ومعادي وأمنع نفسي عن النوم في ذلك الجزء فإن النوم فيه جهل وخمول ودماء إلا لضرورة فقلت هل لك فعل غير هذا قال لا قلت يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد فيم استحققت يا بهرام الجنة قال ويحك يا بن المبارك أتقطع لي بالجنة وأنت عالم المسلمين من أخبرك بذلك قلت أخبرني الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم قال فما القصة فحدثته بالمنام الذي رأيته وبما قاله النبي صلى الله عليه وسلم مراراً فقال يا بن المبارك وهل لذلك علامة ظاهرة قلت نعم أدن مني فدنا فمسحت بيدي رأسه ووجهه وصدره وبدنه وأولاده ينظرون فصار شاباً حسناً طرياً سمياً بصيراً وأسود شعره وأبيضت بشرته فلما عاين ذلك قال أمدد يلك يا شيخ أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم قال يا شيخ أخبرك السبب الذي أوجب الله لي به هذه المنزلة قلت نعم قال كتبت من مدة قد أولمت وليمة عامة للمسلمين والنصارى

واليهود والمجوس على خاصة فأكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة فلما كان في بعض الليل طرق طارق الباب وقد هدأ الناس ونام الخدم لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا جالس منتبه فقلت من بالباب فقالت يا بهرام أنا امرأة من جيرانك فاوقد لي هذا السراج قال بهرام والمجوس لا ترى إخراج النار من يوقهم ليلاً فتحيرت في أمري وقمت ولم أنه أحد فأسرجت لها السراج فانصرفت وأطفأت السراج وعادت وقالت يا بهرام قد انطفأ فأسرجه لي فلما أسرجته قالت يا بهرام والله ما جئتك لأجل سراج ولكن جئت من أجل ثلاث بنات شمن روائح طعامك فهن ملقيات على وجوههن يتضاوون كالمرأة الشكلي أو كالحبة في المقلبي فإن كان قد بقي في دارك فضل طعام فأعطني فإنك إن شاء الله تملك بذلك الجنة فقلت حباً وكرامة فأخذت منديلاً كبيراً فجعلت فيه من كل شيء كان في البيت من الحلو والحامض وأخرجت كيساً فيه ألف دينار

وكيسا فيه ستة آلاف درهم وستة أثواب من ديباج وستة أثواب مروزية وشددت الجميع وقلت أحلي هذا إلى عيالك واقسمي عليهم فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها فقالت يا بهرام أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم الشديد فقلت يا هذه كيف أفعل وأنا شيخ كبير وقد مضى عليّ مائة ونيف وثلاثون سنة ثم تفكرت لحظة وطاب لذلك قلبي فقلت لها شيلي على رأسي فشالته واستقل على رأسي فسال لذلك عرقي حتى صرت في منزلها فحططت الطعام ووضعت الرزمة وجعلت ألقم البنات إلى أن شعبن ونشطن ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير ففرحن وتبسمن فلما أردت القيام قلن بأجمعهن يا بهرام أصلح الله لك أمورك وأدام سرورك كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا وختم لك بخير وأترك أقرب قصر من قُصُر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في دار الجنان وأنا أقول آمين وما زلت أرجو استجابة دعائهن قلت يا بهرام أبشر فإن الله حقق لك ذلك ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تحقر من المعروف شيئا ولو أنك تفرغ من دلوك في إناء أخيك ماء قال عبد الله بن المبارك فصدق بهرام في ذلك اليوم بمائة ألف درهم ومائة ألف دينار ومائة ألف ثوب مروزيات وبألفي ثوب ديباج وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته وأسلموا جميعاً وتفرق الأخوة عن الأخوات وزوج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين وأسلم في ذلك اليوم خلق كثير من الجوس ثم انفرج عن أهله ولزم الخراب يعبد الله فلم يلبث إلا قليلاً حتى توفي رحمه الله عليه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والجوس على خاصة فأكلوا وانصرفوا وانقضت الوليمة فلما كان في بعض الليل طرق طارق الباب وقد هدأ الناس ونام الخدم لما أصابهم من التعب بسبب الوليمة وأنا جالس منتبه فقلت من بالباب فقالت يا بهرام أنا امرأة من جيرانك فاوقد لي هذا السراج قال بهرام والجوس لا ترى إخراج النار من بيوتهم ليلاً فتحيرت في أمري وقمت ولم أنهه أحداً فاسرجت لها السراج فانصرفت وأطفأت السراج وعادت وقالت يا بهرام قد انطفأ فاسرجه لي فلما أسرجته قالت يا بهرام والله ما جئتك لأجل سراج ولكن جئتك من أجل ثلاث بنات شمن روائح طعمك فهن ملقيات على وجوههن يتضاوون كالمرأة الشكلي أو كالحبة في القلى فإن كان قد بقي في دارك فضل طعام فأعطني فإنك إن شاء الله تملك بذلك الجنة فقلت حباً وكرامة فأخذت منديلاً

كبيراً فجعلت فيه من كل شيء كان في البيت من الخلو والحامض وأخرجت كيساً فيه ألف دينار وكيساً فيه ستة آلاف درهم وستة أثواب من ديباج وستة أثواب مروزية وشددت الجميع وقلت أحلي هذا إلى عيالك واقسمي عليهم فمدت يدها فلم تطق حمله لضعفها فقالت يا بهرام أعني أعانك الله على الوقوف بين يديه وخفف عليك الحساب في ذلك اليوم الشديد فقلت يا هذه كيف أفعل وأنا شيخ كبير وقد مضى عليّ مائة ونيف وثلاثون سنة ثم تفكرت لحظة وطاب لذلك قلبي فقلت لها شيلي على رأسي فشالته واستقل على رأسي فسال لذلك عرقي حتى صرت في منزلها فحططت الطعام ووضعت الرزمة وجعلت ألقم البنات إلى أن شعبن ونشطن ثم قسمت عليهن الثياب والدراهم والدنانير ففرحن وتبسمن فلما أردت القيام قلن بأجمعهن يا بهرام أصلح الله لك أمورك وأدام سرورك كما أصلحت أمورنا وأدمت سرورنا وفرحك يوم القيامة كما فرحتنا وختم لك بخير وأترك أقرب قصر من قُصُر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في دار الجنان وأنا أقول آمين وما زلت أرجو استجابة دعائهن قلت يا بهرام أبشر فإن الله حقق لك ذلك ولهذا قال

النبي صلى الله عليه وسلم لا تحقر من المعروف شيئاً ولو أنك تفرغ من دلوك في إناء أخيك ماء قال عبد الله بن المبارك فتصدق بهرام في ذلك اليوم بمائة ألف درهم ومائة ألف دينار ومائة ألف ثوب مروزيات وبألفي ثوب ديباج وفرق سائر أمواله على أولاده وبناته وأسلموا جميعاً وتفرق الأخوة عن الأخوات وزوج أولاده بالمسلمات وبناته بالمسلمين وأسلم في ذلك اليوم خلق كثير من الجوس ثم انفرج عن أهله ولزم الخراب يعبد الله فلم يلبث إلا قليلاً حتى توفي رحمة الله عليه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

روي عن سعد بن سعيد أنه قال كان في جوار معروف الكرخي رجل مجوسي من أبناء الأغنياء وجد الخليفة عليه فصادره وأخذ منه ألف ألف دينار فافتقر بعد الغنى وذل بعد العز وكان له أعداء وحساد فقالوا للخليفة أنه قد بقي له مال جسيم فلا تظن أنه عديم فأمر بمصادرته ثانياً فلما علم المجوسي ذلك دخل بيت النار وقصد ما كان يعبد من دون الجبار وقال إن لم تخلصني آمنت برب معروف فلم يجبه أحد ولم ينتفع بسجوده للنار ولا للنور فلما جنَّ عليه الليل اغتسل وأتى مسجد معروف الكرخي فلم يجده في المسجد فرفع رأسه وقال يا إله إبراهيم عيسى ومحمد وإله معروف وبما من لا إله إلا هو تحققت أن ما عبدته من دونك باطل لا يضر ولا ينفع وإني جئتك تائباً مما فعلت متبرئاً مما عبدت منفصلاً عما اعتقدت موقناً بك شاهداً بأن لا إله إلا أنت إله الأولين والآخرين وأنت المعبود الحق تفعل ما تشاء ولا يكون إلا ما تريد إنك على كل شيء قدير فأغفر لي ما تقدم من ذنبي وجهلي وإسرافي ولا تنظر إلى سوء عملي ومعصيتي واصرف شر الخليفة وأعوانه عني فقد وجهت وجهي إليك ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا محمد تشفعت بك إلى الله فأقبلني ثم سجد وأطال سجوده وهو يناجي ربه ويبكي فأتى معروف الخراب فرآه كذلك فبقي متفكراً في أمره لا يتحقق من هو وإذا هو بغلام من خواص الخليفة قد دخل المسجد يسأل عن المجوسي باسمه ونسبه فقال معروف بيته في موضع كذا وكذا فقال من هناك جئت وقيل لي إنه في مسجد معروف فوالله لا بأس عليه فإن الخليفة قد بعثني إليه برسالة لطيفة تسر قلبه وهو منتظره على أن يؤمنه ويرد عليه ما أخذه منه وكفى بالله شهيداً فقال معروف لست أرى في المسجد أحداً يشبه من تذكره إلا هذا الساجد لله المناجي لربيع فاصبر له حتى يرفع رأسه فوقف صاحب الخليفة على رأسه ساعة ثم قال يا هذا ارفع رأسك ولا تبك أمير المؤمنين قد قضى حاجتك وبعثني برسالة لطيفة لتسير إليه حتى يرد عليك ما أخذه منك فرفع رأسه وإذا معروف واقف فقال يا معروف ما أكرم هذا الباب وما أحلم صاحبه وما أقربه إلى من دعاه ثم قال يا معروف أمد يدك إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وإني رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وأن القرآن كلام الله جاء به محمد بن عبد الله وأنا مؤمن بذلك كله ثم تبع الرسول وذهب معروف الكرخي معه فلما وصلوا إلى دار الخليفة وإذا به واقف على الباب فاستقبلهما وسلم عليهما وصافح كلا منهما ومشى معهما إلى مجلسه وأقعدهما إلى جانبه وأقبل يعتذر إليهما مما وقع منه وأمر بالأموال التي أخذت من الجوسي فأحضرت بين يديه عن آخرها ثم قال له تأمل هذه الأموال أليست هي التي أخذت منك قال نعم قال فخذها بارك الله فيها واجعلني في حل ما وقع مني واستغفر الله لي فقال يعفر الله لك ثم قال يا أمير المؤمنين أما الأموال فهي لك حلال بعد أن

هداني الله إلى دين الإسلام ولكن أعلمني ما الذي دعاك إلى طلبي في هذا الوقت قال نعم كنت نائماً وإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل عليّ ومعه صف من الملائكة وصف من الصحابة فسلم علي وقال إن الله تبارك وتعالى يقرئك السلام ويقول لك إن عبدنا فلاناً الجوسي كنا قد دعوانه في الذرا فأجابنا وكان في الجوسية مستتراً ولنا معه عناية وقد جاء الآن إليّ تائباً وهو في مسجد معروف الكرخي مستجيراً بجانبنا منك فابعث في طلبه ورد عليه ما أخذ منه ولا تقطع المعاملة بيننا فانتهت مرعوباً فأرسلت في طلبك وها هو مالك قد رددناه عليك ودفعناه إليك فخر الرجل ساجداً لله تعالى ثم رفع رأسه وبكى وقال واندماه وأسفاه والهفاه كيف تركت عبادة الرحمن الرحيم واشتغلت بعبادة النيران وضيعت العمر والزمان ثم قال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في هذا المال خذ فهو حلال لك فقال أمير المؤمنين لا أرجع بشيء أمرني ربي بإخراجه فقال يا أمير المؤمنين لا حاجة لي في المال أشهد أنني قد جعلته صدقة في فقراء المسلمين لا حظ لي فيه ولا لأحد من أهلي فقال الخليفة لمعروف بقي الأمر إليك فاحمل المال وتصدق به على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام والأرامل فدعا له معروف وأخذ بد الرجل وحمل المال على البغال وصافحهما أمير المؤمنين وسأل الرجل أن يحالله

عما وقع منه ولازم الرجل معروفاً الكرخي إلى أن مات تغمدته الله برحمته. وقع منه ولازم الرجل معروفاً الكرخي إلى أن مات تغمدته الله برحمته.

وحكي عن معن بن زائدة الشيباني إن شاعراً قصده فأقام مدة يريد الدخول إليه فلم يتهيأ له ذلك فلما أعياه ذلك قال لبعض خدمه إذا دخل الأمير البستان فعرفني فلما دخل معن البستان عرفه الخادم عنه فكتب الشاعر بيتاً من الشعر على خشبة وألقاها في الماء الداخِل إلى البستان فاتفق أن معن كان جالساً في ذلك الوقت على رأس الماء فمرت به فأخذها فإذا فيها كتابة فقرأها وهي:

أيا جود معنٍ ناجٍ معنٌ بحاجتي ... فمالي إلى معنٍ سواك شفيعٌ

فقال من صاحب هذه فدعي بالرجل فقال له كيف قلت فأنشد البيت فأمر له بمائة ألف درهم فأخذها وأخذ الأمير الخشبة فوضعها تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني قرأها ودعا بالرجل فدفع له مائة ألف درهم على العادة ثم دعاه ثالث مرة فقرأ البيت ودفع له مائة ألف درهم فلما أخذ الجائزة الثالثة خشي الشاعر أن يندم فيأخذ منه ما دفع إليه فسافر فلما كان في اليوم الرابع طلبه معن فلم يجده فقال معن حق عليّ لو مكث لأعطينه حتى لا يبقى في بيتي درهم ولا دينار.

وحكي عنه أيضاً أنه أتى بجملة من الأسرى فعرضهم على السيف فقال له بعضهم أصلح الله الأمير نحن أسراك وبنّا جوع وعطش فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم فلما فرغوا قال الرجل أصلح الله الأمير كنا أسراك ونحن الآن أضيافك فأنظر ما تصنع بأضيافك قال قد عفوت عنكم فقال الرجل أيها الأمير ما ندرى أي يوم أشرف يوم ظفرك بنا أو يوم عفوك عنا فأمر لهم بمال وكسوة.

وحكي أن المنصور أهدر دم رجل كان يسعى في فساد دولته من الخوارج من أهل الكوفة وجعل لمن دل

عليه وجاء به مائة ألف درهم ثم ظهر في بغداد فينما هو يمشي مخفياً في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة عرفه فأخذ بمجامع ثيابه وقال هذا بغية أمير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحالة إذ سمع وقع حوافر الخيل فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال يا أبا الوليد أجري أجراك الله فوقف وقال للرجل المتعلق به ما شأنك قال بغية أمير المؤمنين الذي أهمل دمه وجعل لمن دل عليه وأتى به مائة ألف درهم فقال دعه يا غلام أنزل عن دابتك وأحمل الرجل عليها فصاح الرجل بالناس وقال أبحال بني وبين من طلبه أمير المؤمنين فقال له معن أذهب إليه وأخبره أنه عندي فانطلق إلى باب المنصور فأخبره فأمر المنصور بإحضار معن فلما أتى الرسول إلى معن دعا أهل بيته ومواليه وقال أعزم عليكم لا يصل إلى هذا الرجل مكروه وفيكم عين تطرف ثم سار إلى المنصور فدخل عليه وسلم عليه فلم يرد عليه السلام وقال يا معن أنتجرأ عليّ قال نعم يا أمير المؤمنين قال ونعم أيضاً وأشدت غضبه فقال يا أمير المؤمنين مضت أيام كثيرة قد عرفتم فيها حسن بلائي في خدمتكم فما رأيتموني أهلاً أن يوهب إليّ رجل واحد استجار بي بين الناس وتوسّم أي عند أمير المؤمنين من بعض عبيده وكذلك أنا فمر بما شئت ها أنا بين يديك فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقد سكن ما به من الغضب وقال قد أجرتنا من أجرت يا معن قال فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بين الأجرين فيأمر له بصدقة فيكون قد أحياه وأغناه قال قد أمرنا له بخمسين ألف درهم قال يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له الصلة قال قد أمرنا له بمائة ألف درهم قال فعملها يا أمير المؤمنين فإن خير البر تعجيله فإنصرف معن بالمال للرجل وقال له خذ صلتك والحق بأهلك وإياك ومخالفة خلفاء الله في أمورهم.

وحكى الجاحظ قال أخبرني فتى من أصحاب الحديث قال دخلت ديراً في بعض المنازل لما ذكر لي أن به راهباً حسن المعرفة بإخبار الناس وأيامهم فسرت له لأسمع كلامه فوجدته في حجرة معتزلة بالدير وهو على أحسن هيئة في زي المسلمين فكلمته فوجدت عنده من المعرفة أكثر مما وصفوا فسألت عن سبب إسلامه فحدثني أن جارية من بنات الروم كانت في هذا الدير نصرانية كثيرة المال بارعة الجمال عديمة الشكل والمثال فأحببت غلاماً مسلماً خياطاً وكانت تبذل له مالها ونفسها والغلام يعرض عن ذلك ولا يلتفت إليها وامتنع عن المرور بالدير فلما أعيتها الحيلة فيه طلبت رجلاً ماهراً في التصوير وأعطته مائة دينار على أن يصور لها صورة الغلام في دائرة على شكله وهيئته ففعل المصور فلم تخطيء الصورة شيئاً منه غير النطق وأتى بها إلى الجارية فلما أبصرتها أغمي عليها فلما أفاقت أعطت المصور مائة دينار أخرى وأخرج الراهب لي الصورة فرأيتها فكاد أن ينزل عقلي فلما خلت الجارية بالصورة رفعتها إلى حائط حجرتها وما زالت كل يوم تأتي الصورة وتقبلها وتلثم ما تحب منها ثم تجلس بين يديها وتبكي فإذا أمست فما زالت على تلك الحال شهراً فمرض الغلام ومات فعملت الجارية مأتماً وعزاء سار ذكره في الآفاق وصارت مثلاً بين الناس ثم رجعت إلى الصورة وصارت تلثمها وتقبلها إلى أن أمست فماتت إلى جانبها فلما أصبحنا دخلنا عليها لناخذ من خاطرها فوجدناها ميتة ويدها ممدودة إلى الحائط نحو الصورة وقد كتب عليه هذه الأبيات:

يا موتُ حسبك نفسي بعد سيّدها ... خذها إليك فقد أودت بما فيها

أسلمت وجهي إلى الرحمن مسلمةً ... ومثُّ حبيب كان يعصيتها
لعلها في جنان الخلد يجمعها ... بمن تحبُّ غداً في البعث باريها
مات الحبيب وماتت بعده كمداً ... محبةً لم تزل تُشقي محبيها
قال الراهب فشاع الخبر وحملها المسلمون ودفنت إلى جانب قبر الغلام فلما أصبحنا دخلنا حجرتها فرأينا
تحت شعرها مكتوباً:

أصبحت في راحةٍ لما جنته يدي ... وصرت جارة ربٍّ واحدٍ صمد
محا الإله ذنوبي كلّها وغدا ... قلبي خلياً من الأحران والكمد
لما قدمت إلى الرحمن مسلمةً ... وقلت: إنك لم تولد ولم تلد
أثابني رحمةً منه ومغفرةً ... وأنعماً باقياتٍ آخر الأبد
قيل اجتمع الصوفية إلى أبي القاسم الجنيد، وقالوا يا أستاذ أخرج ونسعى في طلب الرزق قال لهم إن علمتم
أين هو فاطلبوه فنسأل الله أن يرزقنا قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه قالوا فنجلس إذاً وننوكل قال
التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة.

قيل اجتمع أربعة من الأئمة الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور ومحمد بن الحكم رضي الله عنهم عند أحمد بن
حنبل يتذاكرون فصلوا صلاة المغرب وقدموا الشافعي ثم ما زالوا يصلون في المسجد إلى أن صلوا العتمة ثم
دخلوا بيت أحمد بن حنبل ودخل أحمد على امرأته ثم خرج على أصحابه وهو يضحك فقال الشافعي مم
تضحك يا أبا عبد الله قال خرجت إلى الصلاة ولم يكن في البيت لقمة من طعام والآن فقد وسع الله علينا
قال الشافعي فما سببه قال أحمد قالت لي أم عبد الله أنكم لما خرجتم إلى الصلاة جاء رجل عليه ثياب بيض
حسن الوجه عظيم الهيئة ذكي الرائحة فقال يا أحمد بن حنبل فقلنا ليك فقال هاكم خذوا هذا فسلم إلينا
زنبيلاً أبيض وعليه منديل طيب الرائحة وطبق مغطى منديل آخر وقال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له
فقال الشافعي يا أبا عبد الله فما في الزنبيل والطبق فقال عشرون رغيفاً قد عجبت باللبن واللوز المقشور
أبيض من الثلج وأذكي من المسك ما رأى الرءءون مثله وخروف مشوي مزعفر حار وملح في سكرجة
وخل في قارورة على الطبق وبقل وحلواء متخذة من سكر طبرزد ثم أخرج الكل ووضع بين أيديهم
فتعجبوا من شأنه وأكلوا ما شاء الله قال فلم تذهب حلاوة ذلك الطعام والحلواء مدة طويلة وكل من أكل
من ذلك الطعام ما احتاج إلى طعام غيره مدة شهر فلما أن فرغوا من الأكل حمل أحمد ما بقي منه وأدخله
إلى أهله فأكلوا وشبعوا وبقي منه شيء فأجمع رأيهم على أن الطعام كان من غيب الله وأن الرسول كان
ملكاً من الملائكة قال صالح بن حنبل ما أصابتنا مجاعة قط ما دام ذلك الزنبيل في بيتنا وكان يأتي الرزق من
حيث لا تحتسب رضي الله عنهم وأعداء علينا من بركاهم.

قيل أن عبد الله بن معمر القيسي كان أميراً من أمراء العرب وكان بطلاً شجاعاً جواداً ذا مروءة وافرة قال
حججت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام وصحبت مالا كثيراً ومتجراً عزيزاً، فلما قضيت حجي عدت
لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا ذات ليلة بين القبر والمنبر في الروضة إذا سمعت أنيناً عالياً

وحسناً بادياً فانصت إليه فإذا هو يقول:

أشجاك نوحُ حمامٍ الدرّ ... فأهجن منك بلابلَ الصدر

أم ذاد نومك ذكر غانيةٍ ... أهدت إليك وساوس الفكر

في ليلةٍ نام الخليلُ بها ... وخلفت بالأحزان والذكر

يا ليلةً طالت على دنفٍ ... يشكو الغرام وقلة الصبر

أسلمت من يهوى لحرّ جوى ... متوقّداً كتوقّد الجمر

فالبدر يشهد أنّي دنفٌ ... بجمال حبّ مشبه البدر

قال ثم أنقطع الصوت ولم أر من أين جاء فبهت حائراً وإذا به قد أعاد البكاء والنحيب وهو يقول:

أشجاك من ربّيا خيالُ زائرٍ ... والليل مسودّ الذوائب عاكراً

وأعتاد مهجتك الهوى فأبادها ... وأهتاج مقلتك المنام البائر

ناديت ليلى والظلام كأنّه ... يَمّ تلاطم فيه موجٌ زاخر

والبدر يسري في السماء كأنّه ... ملكٌ تبدّى والنجوم عساكر

وإذا تعرضت الثريا خلعتها ... كأساً بها حبّ السلافة دائر

وترى يد الجوزاء ترقص في الدجا ... رقص الحبيب علاه سكرٌ ظاهر

يا ليل طلت على حبيبٍ مالهلاً الصباح مؤازر ومسامر فأجاني متّ حنف أنفك وأعلمنأنّ الهوى لهو الهوان
الحاضر قال عبد الله فنهضت عند ابتدائه بالأبيات أؤم الصوت فما انتهى إلى آخرها إلا وأنا عنده فرأيت
غلاماً جليلاً قد نزل عذاره لكن قد علا محاسنه الإصفرار والدموع تجري على خده كالأمطار فقال نعمت
ظلاماً من الرجل قلت عبد الله بن معمر القيسي فقال ألك حاجة يا فتى قلت إني كنت جالساً في الروضة
فما راعني في هذه الليلة إلا صوتك فبنفسي أقيك وبروحي أفديك وبمالي أواسيك ما الذي تجد قال إن كان
ولابد فاجلس فجلست فقال أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري غدوت إلى مسجد
الأحزاب ولم أزل فيه راكعاً ساجداً ثم اعتزلت غير بعيد فإذا نسوة يتهادين كأنهن القطا وفي وسطهن جارية
بديعة الجمال في نشرها بارعة الكمال في عصرها نورها ساطع يتشعشع وطيبها عاطر يتضوّع فوقفت عليّ
وقالت يا عتبة: ما تقول في وصل من طلب وصلك ثم تركني وذهبت فلم أسمع لها خبراً ولا قهوت لها أثراً
فأنا حيران أنتقل من مكان إلى مكان ثم صرخ صرخة عظيمة وأكبّ على الأرض مغشياً عليه ثم أفاق بعد
ساعة وكأنا صبغت ديباجة خده بورس وأنشد يقول:

أراك بقلبي من بلادٍ بعيدةٍ ... تُراكمُ تروني بالقلوب على بعد

فؤادي وطرفي يأسفان عليكمُ ... وعندكمُ روحي وذكركم عندي

ولست ألدّ العيش حتى أراكمُ ... ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلد

قال فقلت يا أخي تب إلى ربك واستقل من ذنبك واتق هول المطلع وسوء المضجع فقال هيهات هيهات ما
أنا مبال حتى يكون ما يكون ولم أزل به إلى طلوع الصباح فقلت له قم بنا إلى مسجد الأحزاب فلعل الله أن

يكشف عنك ما بك قال أرجو ذلك ببركة طلعتهك إن شاء الله فنزلنا إلى أن وردنا مسجد الأحزاب
فسمعته يقول:

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ... ينفك يحدث لي بعد النهي طربا
ما إن يزال غزالٌ فيه يظلمني ... يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
يخمنُ الناس أن الأجر همته ... وما أنا طالباً للأجر مكتسبا
لو كان يبغي ثواباً ما أتى ظهراً ... مضمخاً بفتيت المسك محتضبا
فجلسنا ثم حتى صلينا به الظهر فإذا النسوة أقبلن وما الجارية بينهن فلما بصرن به قلن يا عتبة وما ظنك
بطالبة وصالك وكاسفة بالك قال وما لها قلن قد أخذها أبوها وأرتحل بها إلى السماوة فسالتهن عن الجارية
فقلن هي ريا ابنة الغطريف السلمي فرفع الشاب رأسه إليهن وأنشد يقول:
خليلي رياً قد أجد بكورها ... وسار إلى أرض السماوة عبرها
خليلي ما تقضي بها أم مالك ... عليّ فما يعدو عليّ أميرها
خليلي إني قد خشيت من البكا ... فهل عند غيري مقلٌ أستعيرها

فقلت يا عتبة طب قلبا وقر عينا فقد وردت الحجاز بمال جزيل وطرف وتحف وقماش ومتاع أريد به أهل
السفر ووالله لأبذلنه أمامك وبين يديك وفيك وعليك حتى أوصلك إلى المنى وأعطيك الرضا وفوق الرضا
فقم بنا إلى مجلس الأنصار فقمنا حتى أشرفنا على ناديمهم فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت أيها الملأ الكرام ما
تقولون في عتبة وأبيه قالوا خيراً إته من سادات العرب قلت فإنه قد رمى بفؤاده الجوى وما أريد منكم إلا
المعونة فركبنا وركب القوم حتى أشرفنا على منازل بني سليم من السماوة فقلنا أين منزل الغطريف فخرج
بنفسه مبادراً فاستقبلنا استقبال الكرام وقال حبيتم بالأكرام والرحب والأنعام قلنا وأنت حبيت ثم حبيت
أتيناك أضيافاً قال نزلتم أفضل معقل ثم نادى يا معشر العبيد أنزلوا القوم وسارعوا إلى الأكرام ففرشت في
الحال الأنطاع والنمارق والزراي فنزلنا وأرحنا ثم دجحت الذبائح ونحرت النخائر وقدمت الموائد فقلنا يا
سيد القوم لسنا بذائقين لك طعاماً حتى تقضي حاجتنا وتردنا بمسرتنا قال وما حاجتكم أيها السادة قلنا
نخطب عقيلتك الكريمة لعتبة بن الحباب ابن المنذر الطيب العنصر العالي المفخر فأطرق وقال يا أخوتاه إن
التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وها أنا داخل إليها أخبرها ثم نهض مغضباً فدخل على رياً وكانت كاسمها
فقال يا أبتاه إني أرى الغضب بيناً عليك فما الخبر قال لها ورد الأنصار يخطبونك مني قالت سادات كرام
وأبطال عظام استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم فلمن الخطبة منهم قال لفتى يعرف بعتبة بن الحباب
قالت بالله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد ويدرك إذا قصد ويأكل ما وجد ولا يأسف على ما فقد
قال الغطريف أقسم بالله لا أزوجك به أبداً فقد نما إلي بعض حديثك معه فقالت ما كان ذلك ولكن إذ
أقسمت فإن الأنصار لا يردون مرداً قبيحاً فأحسن لهم الرد وأدفع بالتي هي أحسن قال يا رياً فأني شيء
أقول قالت أغلظ لهم المهر ما استطعت فإنهم يرجعون ولا يجيئون وقد أبررت قسمك وبلغت مأربك
وراعيت أضيافك قال ما أحسن ما قلت ثم خرج مبادراً فقال يا إخوتاه إن فتاة الحي قد أجابت ولكن أريد

لها مهراً مثلها فمن القائم به قال عبد الله فقلت أنا القائم بما تريد فقال أريد ألف مثقال من الذهب الأحمر قلت لك ذلك قال وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر قلت لك ذلك قال ومائة ثوب من الأبراد والحبر قلت لك ذلك قال وعشرين ثوباً من الوشي المطرز قلت لك ذلك قال وأريد خمسة أكرشة من العنبر قلت لك ذلك قال وأريد مائة نافجة من المسك الأذفر قلت لك ذلك قال فهل أجبت قلت أجل ثم أجل قال عبد الله فأنفذت نقرأ من الأنصار أتوا بجميع ما ضمنته وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام فأقمنا هناك نحو أربعين يوماً على هذا الحال ثم قال الغطريف يا قوم خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين السلامة ثم حملها في هودج وجهاز معها ثلاثين راحلة عليها التحف والطرف ثم دعنا ورجع فسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بني سليم فحمل عليها عتبة بن الحباب فقتل منها عدة من رجالها وردّها وانحرف راجعاً وبه طعنة تفور دماً حتى سقط إلى الأرض فلم يلبث عتبة أن قضى نحبه فقلنا يا عتبة فسمعت الجارية قالقت نفسها عليه وجعلت تقبله وتصيح بحرقه وتقول:

تصبرت لا إني صبرت وإنما ... أعلل نفسي إنيها بك لاحقه
ولا أنصفت نفسي لكأنت إلى الردى ... أمامك من دون البرية سابقه
فما واحدٌ بعدي وبعذك منصفٌ ... خليلاً ولا نفسٌ لنفسٍ مصادقه
ثم شهقت شهقة واحدة قصت فيها نحبها فاخترنا لهما مكاناً وجدنا وواريناهما فيه ورجعت إلى ديار قومي وأقامت سبع سنين بعدها ثم عدت إلى الحجاز ووردت إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقلت والله لأعودن إلى قبر عتبة فأزوره فأتيت إلى قبر فإذا عليه أوراق شجرة نابتة عليها أوراق حمراء وصفراء وخضراء ويضئ فقلت لأرباب الجهة ما يقال لهذه الشجرة فقالوا شجرة العروسين فأقامت عند القبر يوماً وليلة وانصرفت.

وحكي أن شخصاً جاء إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي رحمه الله تعالى سلطان العلماء فقال رأيتك في المنام تنشد:

وكت كذي رجلين رجلٍ صحيحةٍ ... ورجلٍ رمى فيها الزمان فشلت
فسكت، ثم قال أعيش ثلاثاً وثمانين سنة فإن هذا الشعر لكثير عزة وقد نظرت فلم أجد يني وبينه نسبة فإني سني وهو شيعي وأنا طويل وهو قصير وهو شاعر ولست بشاعر وأنا سلمى وهو خزاعي وأنا شامي وهو حجازي فلم يبق إلا السن فأعيش مثله فكان كذلك انتهى.

ومن ظرف ما يحكى أن الجاحظ قال عبرت يوماً على معلم كتاب فوجدته في هيئة حسنة وقماش مليح فقام إليّ وأجلسني معه ففأخبرني في القرآن فإذا هو ماهر ففأخبرني في شيء من النحو فوجدته ماهراً ثم أشعار العرب واللغة فإذا به كامل في جميع ما يرد منه فقلت قد وجب عليّ تقطيع دفتر المعلمين فكنت كل قليل أتفقده وأزوره قال فأتيت بعض الأيام إلى زيارته فوجدت الكتاب مغلقاً فسألت جيرانه فقالوا مات عنده ميت فقلت أروح أعزبه فجئت إلى بابه فطرقت فخرجت إليّ جارية وقالت ما تريد قلت مولاك فقالت مولاي

جالس وحده في العزاء ما يعطي لأحد الطريق قلت قولي له صديقك فلان يطلب يعزيك فدخلت وخرجت وقالت بسم الله فعبرت إليه فإذا هو جالس وحده فقلت أعظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وهذا سبيل لا بد منه فعليك بالصبر ثم قلت أهذا الذي توفي ولدك قال لا قلت فوالدك قال لا قلت فأخوك قال لا قلت فمن قال حببيتي فقلت في نفسي هذا أول المناحس وقلت له سبحانه الله تجد غيرها وتقع عينك على أحسن منها فقال وكأني بك وقد ظننت أني رأيته فقلت في نفسي هذه منحسة ثانية ثم قلت وكيف عشقت من لا رأيته فقال أعلم أني كنت جالسا وإذا رجل عابر يغني وهو يقول:
يا أم عمرو جزاك الله مكرمة... ردي علي فؤادي أينما كانا
فقلت في نفسي لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ما كان الشعراء يتغزلون فيها فلما كان بعد يومين عبر علي ذلك الرجل وهو يغني ويقول:
إذا ذهب الحمار بأم عمرو... فلا رجعت ولا رجع الحمار
فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها وقعدت في العزاء منذ ثلاثة أيام فقال الجاحظ فعاتت عزمي وقويت على كتابة الدفتر لحكاية أم عمرو.

ومن غريب ما يحكى ما حكاه القاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة: أن منارة صاحب الخلفاء قال رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه مطاع له في البلدان جماعة وأولاد وممالك وموال يركبون الخيول ويحملون اليلاح ويغزون الروم وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة وأنه لا يؤمن من فتق يبعد رتقه فعظم ذلك على الرشيد قال الرشيد قال منارة وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حججه في سنة ١٨٦ وقد عاد من الموسم وبايع للأمين والمأمون والمؤمنين أولاده فدعاني وهو خال وقال أني دعوتك لأمر يهمني وقد معني اليوم فانظر كيف تعمل ثم قص علي خبر الأموي وقال أخرج الساعة فقد أعدت لك الجائزة والنفقة والآلة ويضم إليك مائة غلام واسلك البرية وهذا كتبي إلى أمير دمشق وهذه قيود فادخل فأبدأ بالرجل فإن سمع وأطاع فقيده وجئني به وإن عصى فحوكل به أنت ومن معك وأنفذ هذا الكتاب إلى نائب الشام ليركب في جيشه ويقبضوا عليه وجئني به وقد أجلتك لذهابك ستا ولجئتك ستا وهذا محمل تجعله في شقة إذا قيده وتبعد أنت في الشق الآخر ولا تكل حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها وأهله وولده وحشمه وعلمانه وقدر النعمة والحال والخل واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف من ألفاظه من حين وقوع طرفك عليه إلى أن تأتيني به وإياك أن يشذ عنك شيء من أمره انطلق، قال منارة، فودعته وخرجت وركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة فكرهت الدخول ليلاً فنمت بظاهر البلد إلى أن فتح الباب فدخلت على هيئتي حتى أتيت دار الرجل وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستأذن ودخلت بغير إذن فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض غلماني فقالوا هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم فلما صرت في صحن الدار أنزلت ودخلت مجلساً

رأيت فيه قوما جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا رحبوا بي فقلت افيكم فلان قالوا لا نحن أولاده وهو في الحمام فقلت استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً شديداً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال واستربت به واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شيخاً يزي الحمام يمشي في الصحن وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان وهم أولاده وغلمانه فعلمت أنه الرجل فجاء حتى جلس فسلم عليّ سلاماً خفياً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته فأخبرته كما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال تقدم يا منارة فكلُ معنا فقلت مالي إلى ذلك من حاجة فلم يعاودني وأقبل يأكل هو ومن عنده ثم غسل يديه ودعا بالطعام فجاءوا بمائدة عظيمة لم أرَ مثلها إلا للخليفة فقال تقدم يا منارة فساعدنا على الأكل لا يزيدني على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة فامتنعت عليه فما عاودني وأكل هو ومن عنده وكانوا تسعة من أولاده فتأملت أكله في نفسه فوجدته أكل الملوك ووجدت جأشه رابضاً وذلك الأضطراب الذي في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون من بين يديه شيئاً قد وضع على المائدة إلا نهباً وقد كان غلمانهم أخذوا المال لما نزلت الدار وجمالي وجميع غلماني بالمنع من الدخول فما أطافوا ممانعتهم وبقيت وحدي ليس بين يدي إلا خمسة أو ستة غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي هذا جبار عنيد وإن امتنع عليّ من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا أطيع حفظه إلى أن يلحقني أمير البلد فجذعت جزعاً شديداً ورأيت منه استخفافه بي في الأكل ولا يسألني عما جئت به ويأكل مطمئناً وأنا مفكر في ذلك فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا ببخور فتبخر وقام إلى الصلاة فصلى الظهر وأكثر من الدعاء والابتهاال فرأيت صلاته حسنة فلما انتقل من الخراب أقبل عليّ وقال ما أقدمك يا منارة فقلت أمر لك من أمير المؤمنين وأخرجت الكتاب ودفعته إليه فقراه فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أني وقع بي فلما تكاملوا ابتدأ فحلف إيماناً غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولا يجتمع منهم إثنان في مكان واحد

ولا يظهروا إلى أن يظهر لهم أمر يعملون عليه وقال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالتوجه إليه ولست أقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة فاستوصوا بمن ورائي من الحرم خيراً وما بي حاجة من أن يصحبني غلام هات قيودك يا منارة فدعوت بها وكانت في سبط فأحضر حداداً فمد ساقيه فقيده وأمرت غلماني بحمله في الحمل وركبت في الشق الآخر وسرت من وقتي ولم ألق أمير البلد ولا غيره فسرت بالرجل ليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة فقال لي ترى هذا قلت نعم قال أنه لي وقال إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ثم انتهى إلى آخر فقال مثل ذلك ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى سنية وقال هذه لي فاشتد غيظي منه فقلت له أعلم أني شديد التعجب منك قال ولم تعجب قلت أليس تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدتك وأخرجك عن جميع ما لك فريداً وحيداً مقيداً ما تلري إلى ما يصير إليه أمرك ولا كيف يكون وأنت فارغ القلب من هذا تصف ضياعك وبساتينك هذا وقد رأيتك وقد جئت وأنت لا تعلم فيم

جئت وأنت ساكن القلب قليل الفكر لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً فقال لي مجيباً إنا لله وإنا إليه راجعون
أخطأت فراستي فيك ظننتك رجلاً كاملاً العقل وأنتك ما حللت من الخلفاء هذا الخلل إلا بعد أن عرفك
بذلك فإننا والله رأيت عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم والله المستعان أما قولك في أمير المؤمنين
وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصيتي ولا
يملك أمير المؤمنين لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ومشيتته ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه
وبعد فإذا عرف أمري وعلم سلامتي وصلاحي وبعد ناحيتي وإن الحسدة والاعداء رموني عنده بما ليس في
وتقوّلوا عليّ الأباطيل الكاذبة لم يستحل دمي وتحلل من أذاي وإزعاجي وردني مكرما وأقامني ببابه معظماً
وإن كان سبق في علم الله عز وجل أنه يبدر إليّ منه بادرة سوء وقد حضر أجلي وكان سفك دمي على يده
فلو اجتمعت الأنس والجن والملائكة وأهل الأرض وأهل السماء على صرف ذلك عني ما استطاعوه فلم
أتعجل الغم وأتسلف الفكر فيما قد فرغ الله منه وإني حسن الظن بالله عز وجل الذي خلق ورزق وأحيا
وأ مات وأحسن وأجمل وإن الصبر والرضا والفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى وقد كنت
أحسب أنك تعرف هذا فإذا قد عرفت مبلغ فهمك فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى تفرق حضرة أمير
المؤمنين بيننا إن شاء الله تعالى قال ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو حاجة أو ما
يجري مجراها حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر والنجب قد استقبلني على فراسخ من
الكوفة يتجسسون خبري فحين رأوني رجعوا عني بالخبر إلى أمير المؤمنين فأنتهينا إلى الباب في آخر النهار
فحططت ودخلت على الرشيد فقبلت الأرض بين يديه ووقفت فقال هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل
منه لفظة واحدة فسقت والحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل
والبخور والصلاة وما حدثت به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجه الرشيد ويتزايد حتى انتهيت إلى
فراغ الأموي من الصلاة والتفاته ومسلته عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده
وأهله وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد منهم وصرفه إياهم ومد رجليه حتى قيده فما زال وجه الرشيد يسفر
حتى أنتهيت إلى ما خاطبني به عند توينخه إياي لما ركبنا الحمل قال صدق والله ما هذا إلا رجل محسود على
النعمة مكذوب عليه لعمرى لقد أزعجناه وآذينا وروعنا أهله فبادر ينزع قيوده عنه وائتني به قال
فخرجت فترعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد
فسأله عن حاله ثم قال بلغنا عنك فضل هيئة وأمر أحبنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك
فأذكر حاجتك فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا فقال ما لي إلا حاجة واحدة قال مقضية ما هي قال
يا أمير المؤمنين تردني إلى بلدي وأهلي وولدي قال نحن نفعل ذلك إن شاء الله تعالى ولكن سل ما تحتاج إليه
في مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخلوا أن يحتاج إلى شيء من هذا فقال عمال أمير المؤمنين منصفون
وقد استغيت بعدله عن مسئلته

فأموري منتظمة وأحوالي مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين فقال الرشيد
انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك فودعه فلما ولى خارجاً قال الرشيد يا منارة أحمله

من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به حتى إذا أوصلته إلى محله الذي أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم. موري منتظمة وأحوالي مستقيمة وكذلك أمور أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين فقال الرشيد انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك فودعه فلما ولى خارجاً قال الرشيد يا منارة أحمله من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله كما جئت به حتى إذا أوصلته إلى محله الذي أخذته منه فدعه فيه وانصرف ففعلت والله أعلم.

وحكي في الكتاب المذكور قال حدثني أبو الربيع سليمان بن داود قال كان في جوار القاضي قديماً رجل انتشرت عنه حكاية وظهر في يده مال جليل بعد فقر طويل وكنت أسمع أن أبا عمر حمه من السلطان فسألته عن الحكاية فأطرق طويلاً ثم حدثني قال ورثت مالا جزيلاً فأسرعت في اتلافه وأتلفته حتى أنهيت بيع أبواب داري وسقوفها ولم يبق لي حيلة وبقيت مدة لا قوت لي إلى والدي لما تغزله وتطمعني وتأكل منه فتمنيت الموت فرأيت ليلة في منامي كأن قائلاً يقول لي غناك بمصر فأخرج إليها فبكرت إلى دار أبي عمر القاضي وتوسلت بالجوار وبالخدمة وكان أبي قد خدمه أياماً وسألته أن يرودني كتاباً إلى مصر لاتصرف فيها ففعل وخرجت فلما حصلت بمصر أوصلت الكتاب وسألت التصرف فسد الله عليّ باب الرزق حتى لم أظفر بتصرف ولا لاح لي شغل ونفدت نفقتي فبقيت متفكراً في أن أسأل الناس فلم أستبح المسئلة ولم يحملني الجوع عليها وأنا ممتنع إلى أن مضى من الليل صدر صالح فلقيني الطائف فقبض علي ووجدني غريباً فأنكر حالي فسألني فقلت رجل ضيف فلم يصدقني وبطحنني وضربني مقارع فصحت وقلت أنا أصدق فقال هات فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها وحديث المنام فقال ما رأيت أحق منك والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة في النوم كأن رجلاً يقول لي ببغداد في الشارع الفلاني في الحلة الفلانية قال فذكر شارعي ومحلي وأصغيت فتم الشرطي الحديث فقال دار يقال لها دار فلان فذكر داري وأسمي وفيها بستان وفيه سدرة تحتها مدفون ثلاثون ألف دينار فامض وخذها فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت إليه وأنت يا أحق فارتك وطنك وجئت إلى مصر بسبب منام قال فقوي قلبي وأطلقني الطائف فبت في المسجد وخرجت من الغد من مصر وقدمت ببغداد فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدت جراباً فيه ثلاثون ألف دينار فأخذتها وأمسكت يدي ودبرت أمري وأنا أعيش من تلك الدنانير ومن فضل ما ابتعته منها من ضياع وعقار إلى الآن.

وحكى القاضي أبو علي الحسن بن علي التوخي في كتابه في أخبار المذاكرة ونشوان المخاضة قال حدثني أبو محمد يحيى بن محمد بن فهمة قال حدثني بعض الكتاب قال سافرت أنا وجماعة من أصدقائي نريد مصر للتصرف فلما حصلنا بدمشق وكان معنا عدة بغال عليها ثقل وغلمان لنا ونحن على دوابنا أقبلنا نخترق الطرق لا ندري أين ننزل فاجترينا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح وغلمان بين يديه فقام إلينا وقال أظنكم سفراً ورددتم الآن فقلنا نحن كذلك قال فتنزلون علينا ألح علينا فاستحيينا من محله وحسن ظاهره وهيئته فحططنا على بابه ودخلنا وأقبل أولئك الغلمان يحملون ثقلنا ويدخلونه الدار ولا يدخلون أحداً من غلماننا يخدمنا حتى حملوه بأسره في أسرع وقت وجاءونا بالطسوت

والأبارق فغسلنا وجوهنا واجلسونا في مجلس حسن مفروش بأنواع الفرش التي لم نر مثلها وإذا الدار في
نهایة الحسن والفخر والكبر وفيها دور وبستان عظیم وصاحب الدار یخدمنا بنفسه وعرض علينا الحمام
فقلنا نحن إلیه محتاجون فأدخلنا إلی الحمام فی الدار فی غایة السرور ودخل إلینا غلامان أمردان وصبيان فی
نهایة الحسن فخدمونا بدلا من القین وأخرجنا من الحمام إلی غیر ذلك المجلس فقدم إلینا مائدة حسنة جليلة
علیها من حیوان وفاخر الطعام والألوان ونادر الخبز وغریب البوادر من کل شیء وإذا بغلامین أمردین فی
ناهیة الحسن والزی قد دخلوا إلینا فغمزوا أرجلنا فلحقنا من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت
فأمرناهم بالانصراف وفینا من لم یستحل التعرض لهم وتعففنا عن ذلك لتزولنا علی صاحبهم ثم انتهینا إلی
مجلس فی بستان حسن وأخرج إلینا من آلات النبید کل طریف وأحضر من الأنبذة کل شیء طیب حسن
وشربنا أقداحا یسیرة ثم ضرب بیده علی ستارة ممدودة وإذا جوار خلفها فقال غنین فغنت الجواری اللواتی
کن خلفها أحسن غناء وأطیبه فلما توسطنا الشرب قال ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله أخرجن
وهتک الستارة قال فخرج علینا جوار لم یر قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن ما بین عوادة وطبورية
وزامرة وصناجة ورقاصة ودفاقة بفاجر الثیاب والحلی فغنینا واحتطن بنا فی المجلس فاشتدت محبتنا ولكن
ضبطنا أنفسنا فلما کدنا أنا نسکر ومضى قطعة من اللیل أقبل صاحب الدار علینا وقال یا سادة إن تمام
الضيافة وحققها الوفاء بشرطها وأن یقوم المضيف بحق الضیف فی جمیع ما یمتد إلیه من طعام وشراب وجماع
وقد أنفذت إلیکم نصف النهار الغلمان فأخبرونی بعفافکم عنهم فقلت هم أصحاب نساء فأخرجت هؤلاء
فرایت من انقباضکم عن مآزحتهن ما لو خلوتن بمن كانت الصور واحدة فما هذا فقلنا یا سیدی أجللناک
عن تبذل ما فی دارک وفینا من لم یستحل الحرام فقال هؤلاء ممالیک وهن أحرار لوجه الله تعالی إن کان بد
من أن یأخذ کل واحد منکم بید واحدة یمتنع بها لیلۃ فمن شاء زوجته بها ومن شاء غیر ذلك فهو أبصر
لأكون قد قضیت حق الضیافة فلما سمعنا بهذا وقد انتشینا طربا أخذ کل واحد منا بید واحدة فأجلسها إلی
جانبه وأقبل یقبلها ویقرصها یمآزحها فتزوجت أنا بواحدة وغیری من رغب فی ذلك وبعضنا لم یفعل
وجلس معنا بعد ذلك ساعة ثم نهض فإذا یخدم قد جاءوا فأدخلوا کل واحد وصاحبه إلی بیت فی نهایة
الحسن والطیب مفروش بفاجر الفرش الوطنية فبخرونا علیها ونمنا والجواری إلی جنوبنا وتركوا معنا شمعة
فی البیت وما نحتاج إلیه من آلة البیت وأغلقوا علینا وانصرفوا فبتنا فی أرغد عیش لیلتنا فلما کان السحر
بادر الخدم فقالوا ما رأيکم فی الحمام فقد أصلح فقمنا ودخلنا ودخل المردان معنا فمنا من أطلق نفسه معهم
فیما کان امتنع منه بالأمس وخرجنا فبخرنا بالند الفتیق وأعطينا المآورد والمسک والکافور وقدمت إلینا
المرأة المجلاة وأخبرنا غلماننا أن صورتهم فی لیلتهم کصورتنا وأنهم أتوا بجواری الخدمة الرومیات فوطؤهن
فأقبل بعضنا علی بعض یعجب من قضیتنا وبعضنا یقول هذا فی النوم نراه ونحن فی الحدیث إذ أقبل صاحب
الدار فقمنا إلیه وعظمناه فأکبر بذلك وأخذ یسألنا عن لیلتنا فوصفناها له وسألنا عن خدمة الجواری لنا
فأجبناه بحسنها فقال ایما أحب إلیکم الركوب إلی بعض البساتین للنفرج إلی أن یدرک الطعام أو اللعب
بالشطرنج والنرد أو النظر فی الدفاتر فقلنا أما الركوب فلا نؤثره ولكن الشطرنج والنرد والدفاتر فأحضر

ذلك وتشاغل كل منا بما اختاره ولم يكن إلا ساعتان أو ثلاث من النهار حتى أحضر لنا مائدة كالمائدة
الأمسية فأكلنا وقمنا إلى الفرش وجاء المردان فغمزونا وغمزهم منا من كان يدخل في ذلك وزالت المراقبة
فلما انتهينا حملنا إلى الحمام وخرجنا فتبخرنا وجلسنا في مجالسنا بالأمس وجاء أولئك الجوارى ومعهن
غيرهن ممن هو أحسن منهن وتصدت كل واحدة صاحبها بالامس بغير احتشام وشربنا إلى نصف الليل
وحملوا معنا إلى الفراش وكانت هذه حالنا مدة الأسبوع فقلت لأصحابي ويحكم أرى الأمر متصلا ومن
احال أن يقول لنا الرجل ارتحلوا عني وقد استطبت أنت مواضعكم وانقطعتم عن سفركم في هذا فقالوا ما
ترى فقلت أرى أن نستأنس الرجل فننظر أي شيء هو فإن كان ممن يقبل هدية أو ير عملنا على تكرمه
وارتحلنا عنه وإن كان بخلاف ذلك كنا معتقدين له المكافأة في وقت ثان وسألناه أن يحضر لنا من نكرى منه
ورحلنا فتقرر رأينا على ذلك فلما جلسنا تلك الليلة على الشرب قلنا له قد طال مقامنا عندك وما أضاف
أحد أحدا أحسن مما ضفتنا ونريد الرحيل إلى مصر لما أردناه من طلب التصرف وأنا فلان بن فلان فعرفته
نفسى والجماعة وقد حملتنا من أياديك ومنتك ما لا يسعنا معه أن نجعلك ونحب أن تعرفنا بنفسك لنأتي
بشكرك ونقضي حقك ونعمل على الرحيل فقال أنا فلان بن فلان أحد أهل دمشق فلم نعرفه فقلنا إن
رأيت تزيدنا في الشرح فقال جعلت فداءكم إن لقيادتي خيرا أظرف مما شاهدتموه فقلت إن رأيت أن تخبرنا
فقال نعم أنا رجل كان أبي تاجرا عظيما النعمة والأموال وكان ممسكا مكثرا ونشأت له فكنت متخرفا
مبذرا محبا للفساد والنساء والمغنيات والشرار فأتلقت مالا عظيما من مال أبي إلا أنه لم يؤثر في ماله لعظمه
ثم اعتل وایس من نفسه فدعاني فقال يا بني غني قد خلّفت لك النعمة وقميتها مائة ألف دينار بعد أن أتلّفت
علي خمسة آلاف دينار وأن الإنفاق لا آخر له إذا لم يكن يازائه داخل ولو أردت أن أتلّف هذا المال عليك
في حياتي أو الآن حتى لا تصل إلى شيء منه لفعلت ولكن هو ذا أتركه عليك فاقض حقي بحاجة تقضيها إليّ
لا ضرر عليك فيها فقلت افعل فقال أنا أعلم أنك ستلّف المال في مدة يسيرة فعرّفتني إذا افتقرت ولم يبق
معك شيء أقتل نفسك ولا تعيش في الدنيا فقلت لا قال فعرّفتني من أين تعيش قال ففكرت ساعة فلم يقع
لي إلا أن قلت أصير قوادا قال فبكى ساعة ثم مسح عينيه وقال لست بصارف عنك هذه الصناعة فإنها ما
جرت على لسانك إلا وقد دارت في فكرك ولا دارت في فكرك إلا وأنت لا تنصرف عنها أبدا بعدي
ولكن أخبرني كيف يتم لك المعاش منها فقلت قد تدبرت بكثرة دعواتي القحبات والمغنيات ومعاشرتي
لشراب النيذ فأجمعهم على الرسم فيقيمون في بيتي ويعملون ما يريدون وأخذ أنا منهم الدراهم وأعيش بها
فقال إذا يبلغ السلطان خبرك في جمعة فيلحقون رأسك ولحيتك وينادى عليك ويفرق جمعك ويطل معاشك
ويقول أهل بلدك انظروا إلى فلان كيف ينادى عليه وقد صار بعد موت أبيه قوادا ولكن إذا أردت هذه
الصناعة فأنا أعلمك وإن كنت لا أحسنها فلا تسغني فيها ولا تفتقر ولا يتطرق عليك السلطان بشيء
فقلت افعل قال إذا أنا متُّ فاعمل على أنك قد أنفقت جميع مالك وافتقرت تكون قوادا ولك ضياع
وعقار وأثاث ودور وجوار وآلة وقماش وخدم وجاه وتجارات واعمل على ما كان في نفسك أن تعمله إذا
افتقرت فاعمله وأنت مستظهر على زمانك بما معك وهبه عند إخوانك واعمل أنك قد أنفقت واجعل
معيشتك ما تريد أن تجعله إذا افتقرت فإنك تستفيد بذلك أمورا منها أنك تبتدىء أمرك بهذا فلا ينكر

عليك في آخره ومنها أنك تفعل ذلك بجاه وعقار وضياح وأحوال قوية فلا يطمع فيك سلطان وإن طمع فيك سلطان بذلت أو أعطيت من ناوأك فتخلصت فقلت كيف أفعل قال تجلس إذا أنا متُّ ثلاثة أيام للعزاء إلى أن تنقضي المصيبة فإذا انقضت نفذت وصيتي وتجملت بذلك عند الناس وقضيت حقي ثم تظهر أنك قد تركت اللعب وأنك تريد حفظ مالك مع ضرب من اللذة ثم تبتدىء فتشتري من الجواري المغنيات والسراري كل لون ومن الغلمان المردان والخدم السود والبيض ما تحتاج إليه وتشتهيه ودارك كما تحب في السرور وتنوف على سرور من تريد أن تعاشره ولا تخل إلا الأمير والعاقل وادعهما مرة في شهر أو شهرين وهادهما أيام الأعياد بالأطاف الحسنة والقهما في كل أسبوع مرة واجتهد أن

تعاشرهما على النيذ في دورهما والقهما بالسلام وقضاء الحاجة واتخذ في كل يوم مائدة حسنة وادع القوم ومن يتفق معهم وليكن ذلك بعقل وترتيب فإن ذلك أولا لا يظهر مدة فإذا ظهر صدق به أعداؤك وكذب به إخوانك وقالوا هذه على سبيل الجون والشهوة على طرق التخالع أو مسامحة الإخوان وإلا فأني لذة له في ذلك وليس هو مجنون ولا مخنث ولا فقيرا ولا محتاجا إلى هذه فيبقى الخلاف فيك مدة أخرى وقد اتصلت مع سلطانك ولعل العشرة بينكما قد وقعت فيستدعي مغنياتك ويسمعهن في منزله فيصير لك بمناذمتهم رسم وجاهك باق بملاقاتك لهم فهم يحتاجون إليك وسيحافظ عليك الأمير فتصير في مراتب ندمائه وفي جملة وتصير قيادتك نفعا عليك بغير ضرر وتخرج عن حد القواد الخض الذين يؤذون وتكبس منازلهم قال فاعتقدت في الحال أن الصواب ما قاله ومات في علته فجلست ثلاثة أيام ثم أنفذت وصيته وما فيها كما أمرني ثم بيضت الدور وهي هذه وزدت فيها ما اشتبهت واستردت في الآلات والفرش والأبنية كما أردت وابتعت هذه الجواري والغلمان والخدم من بغداد ودبرت أمري على ما قاله لي من غير مخالفة لشيء منه وأنا أفعل هذه منذ سنين كثيرة ما لحقني منه ضرر ولا خسران ولا فيه أكثر من إسقاط المروءة وقلة الاكتراث بالعب وانا أعيش أطيب عيش وأهنأ وأمر معاشي عليهم ودخلي بهم أكثر من خرجي ونعمتي الموروثة باقية بأسرها ما بعث منها شيئا بحجة قط فما فوقها وقد اشتريت من هذه الصناعة عقارا جليلا وضفته إلى ما خلف علي وأمرني يمشي كما ترون فقلنا يا هذا فرجت والله عنا واريننا طريقاً إلى قضاء حقل وأخذنا نمازحه وقول فضلك في هذه الصناعة غير مدفوع لأنك قواد ابن قواد وما كان الشيخ ليدبر لك هذه الأمر وهو بالقيادة أحذق منك فضحك وضحكنا وكان الفتى أديباً خفيف الروح وبتنا ليلتنا على تلك الحال فلما كان من الغد جمعنا له من بيننا ثلثمائة دينار وحملناها إليه ورحلنا عنه. ما على النيذ في دورهما والقهما بالسلام وقضاء الحاجة واتخذ في كل يوم مائدة حسنة وادع القوم ومن يتفق معهم وليكن ذلك بعقل وترتيب فإن ذلك أولا لا يظهر مدة فإذا ظهر صدق به أعداؤك وكذب به إخوانك وقالوا هذه على سبيل الجون والشهوة على طرق التخالع أو مسامحة الإخوان وإلا فأني لذة له في ذلك وليس هو مجنون ولا مخنث ولا فقيرا ولا محتاجا إلى هذه فيبقى الخلاف فيك مدة أخرى وقد اتصلت مع سلطانك ولعل العشرة بينكما قد وقعت فيستدعي مغنياتك ويسمعهن في منزله فيصير لك بمناذمتهم رسم وجاهك باق بملاقاتك لهم فهم يحتاجون إليك وسيحافظ عليك الأمير فتصير في مراتب ندمائه وفي جملة وتصير قيادتك

نفعنا عليك بغير ضرر وتخرج عن حد القواد الخض الذين يؤذون وتكبس منازلهم قال فاعتقدت في الحال أن الصواب ما قاله ومات في علته فجلست ثلاثة أيام ثم أنفذت وصيته وما فيها كما أمرني ثم بيضت الدور وهي هذه وزدت فيها ما اشتبهت واستزدت في الآلات والفرش والأبنية كما أردت وابتعت هذه الجواري والغلمان والخدم من بغداد وديرت أمري على ما قاله لي من غير مخالفة لشيء منه وأنا أفعل هذه منذ سنين كثيرة ما لحقني منه ضرر ولا خسران ولا فيه أكثر من إسقاط المروعة وقلة الاكتراث بالعيب وأنا أعيش أطيب عيش وأهنأ وأمر معاشي عليهم ودخلي بهم أكثر من خرجي ونعمتي الموروثة باقية بأسرها ما بعث منها شيئاً بحجة قط فما فوقها وقد اشتريت من هذه الصناعة عقاراً جليلاً وضفته إلى ما خلف علي وأمري يمشي كما ترون قتلنا يا هذا فرجت والله عنا واريثنا طريقاً إلى قضاء حقك وأخذنا نمازحه وقول فضلك في هذه الصناعة غير مدفوع لأنك قواد ابن قواد وما كان الشيخ ليدير لك هذه الأمر وهو بالقيادة أحق منك فضحك وضحكنا وكان الفتى أديباً خفيف الروح وبتنا ليلتنا على تلك الحال فلما كان من الغد جمعنا له من بيننا ثلثمائة دينار و حملناها إليه ورحلنا عنه.

وحكى أحمد بن فضل العمري في كتابه المسمى مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في ترجمة صفى الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الموصيقي قال ذكر العم حسن الاربلي في تاريخه قال جلست مع صفى الدين عبد المؤمن بالمدرسة المستنصرية جرى ذكر واقعة بغداد فأخبرني أن هلاكوا طلب رؤساء البلد وعرفاءها وطلب منهم أن يقسموا دروب بغداد ومحالها ويوت دوي يسارها على أمراء دولته فقسموها وجعلوا كل محلة أو محلاتين أو سوقين باسم أمير كبير فوقع الدرب الذي كنت أسكنه في حصة أمير مقدم على عشرة آلاف فارس اسمه نانو نوين وكان هلاكوا قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدة ثلاثة أيام ولبعضهم يومين ولبعضهم يوماً واحداً على حسب طبقاتهم فلما دخل الأمراء إلى بغداد كان أول درب جاء إليه الأمير الدرب الذي أنا ساكنه وقد اجتمع فيه خلق كثير من ذوي اليسار واجتمع عندي نحو خمسين جارية من أرباب المغاني وذوات الحسن والجمال فوقف نانو نوين على باب الدرب وهو منتبس بالأخشاب والتراب وطرقوا الباب وقالوا افتحوا لنا وادخلوا في الطاعة ولكم الأمان وإلا أحرقنا الباب وقتلناكم ومعه النجارون وخلافهم وأصحابه بالسلاح قال صفى الدين عبد المؤمن فقلت السمع والطاعة أنا أخرج إليه ففتحت الباب وخرجت وحدي على أثواب وسخة وأنا أنتظر الموت فقبلت الأرض بين يديه فقال للترجمان قل له أنت كبير هذا الدرب فقلت نعم فقال إن أردتم السلامة من الموت فأحملوا لنا كذا وكذا وطلب شيئاً كثيراً فقبلت الأرض مرة ثانية وقلت كل ما طلبه الأمير يحضر وصار كل ما في هذا الدرب بحكمك ومن تريد من خواصك فإنزل لأجمع لك كل ما طلبت فشارو أصحابه ونزل في نحو ثلاثين رجلاً من خواصه فأتيت به دارى وفرشت له الفرش الخلفية الفاخرة والسرر المطرزة بالزركش وأحضرت له في الحال أطعمة فاخرة وشواء وحلواء وجعلتها بين يديه فلما فرغ من الأكل عملت له مجلساً ملوكياً وأحضرت الأواني المذهبة من الزجاج الحلبي وأواني فضة فيها شراب مروق فلما دارت الأقداح وسكر قليلاً أحضرت عشر مغنيات كل واحدة تغني بملهاة غير ملهاة الأخرى فغنين كلهن فارتج المجلس وطرب وانبسطت نفسه فضم

واحدة من المغنيات أعجبته فواقعها في المجلس ونحن نشاهده وأتم يومه في غاية الطيبة فلما كان وقت العصر وحضر أصحابه بالنهب والسبايا قلمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفاً جليلاً من أواني الذهب والفضة ومن النقد ومن الأقمشة الفاخرة شيئاً كثيراً سوى العليق ووهبت له الغواني التي كان بين يديه واعتذرت من التقصير وقلت جاء الأمير على غفلة لكن غدا إن شاء الله تعالى أعمل للأهمل دعوة أحسن من هذه فركب وقلت ركابه ورجعت فجمعت أهل الدرب من ذوي النعمة واليسار وقلت لهم أنظروا لأنفسكم هذا الرجل غدا عندي وكذا بعد غد وكل يوم أزيد اضعاف اليوم المتقدم فجمعوا إلي من بينهم ما يساوي خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح فما طلعت الشمس إلا وقد وافاني فرأى ما أذهله وجاء في هذا اليوم ومعه نساؤه فقدمت له ولنسائه من الذخائر والذهب النقد ما قيمته عشرون ألف دينار وقدمت له في اليوم الثالث لآلىء نفيسة وجواهر ثمينة وبغلة جلييلة بآلات خليفية وقلت هذه من مراكب الخليفة وقدمت لجميع من معه وقلت هذا الدرب صار بحكمك وإن تصدقت على أهله بأرواحهم فيكون لك وجه أبيض عند الله وعند الناس فما بقي عندهم سوى أرواحهم فقال قد عرفت ذلك من أول يوم وهبتهم أرواحهم وما حدثني نفسي بقتلهم ولا سلبهم لكن أنت تجهز معي إلى حضرة الأمير فقد ذكرت لك وقدمت له شيئاً من المستطرفات التي قدمتها إلي فأعجبته ورسم بحضورك فخفت على نفسي وعلى أهل الدرب وقلت هذا يخرجني إلى خارج بغداد ويقتلني وينهب الدرب فظهر عليّ الخوف وقلت يا خوند هلاكو ملك كبير وأنا رجل حقير مغن أخشى منه ومن هيئته فقال لا تخف ما يصيبك إلا الخير فإنه رجل يحب أهل الفضائل فقلت في ضمانك أنه لا يصيبني مكروه قال نعم فقلت لأهل الدرب ما عندكم من النفائس فانتوني بكل ما تقدرون عليه فأخذت معي من المغنيات الجلييلة ومن النقد الكثير من الذهب والفضة وهيات ما أكل كثيرة طيبة وشراباً كثيراً عتيقاً فائقاً وأواني فاخرة كلها من الفضة المنقوشة بالذهب وأخذت معي ثلاث جوار مغنيات من أجل من كان عندي وأنفسهن للضرب وليست بدلة من القماش

الخليفة وركبت بغلة جلييلة كنت أركبها إذا رحت إلى الخليفة فلما رأي نانو نوبين بهذه الحالة قال لي أنت وزير قلت لا أنا مغني الخليفة ونديمه ولكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما صرت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة فما ينبغي أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار. ي وركبت بغلة جلييلة كنت أركبها إذا رحت إلى الخليفة فلما رأي نانو نوبين بهذه الحالة قال لي أنت وزير قلت لا أنا مغني الخليفة ونديمه ولكن لما خفت منك لبست القماش الوسخ ولما صرت من رعيتك أظهرت نعمتي وأمنت وهذا الملك هلاكو ملك عظيم وهو أعظم من الخليفة فما ينبغي أن أدخل عليه إلا بالحشمة والوقار.

فأعجبه مني هذا وخرجت معه إلى مخيم هلاكو فدخل عليه وأدخلني معه وقال هلاكو هذا الرجل الذي ذكرت لك وأشار إليّ فلما وقعت عين هلاكو عليّ قبلت الأرض وجلست على ركبي كما هو من عادة التتار فقال نانو نوبين هذا كان مغني الخليفة وقد فعل معي كذا وكذا وقد أتاك بهدية فقال قد قبلتها فقبلت الأرض مرة ثانية ودعوت له وقلمت له ولخواصه الهدايا التي كانت معي فكلما قدمت شيئاً منها يفرقه ثم

فعل بالماكول كذلك ثم قال لي أنت مغني الخليفة فقلت نعم فقال أي شيء أجود ما تعرف قلت أحسن أن أغني غناء إذا سمعه الإنسان ينام فقال غن لي الساعة حتى أنام فندمت وقلت إن غنيت له ولم ينم قال هذا كذاب وربما قلني ولا بد من الخلاص منها بحيلة فقلت يا خوند الطرب بأوتار العود لا يطيب إلا بشرب الخمر ولا بأس بأن يشرب الأمير قدحين أو ثلاثة حتى يقع الطرب في موقعه فقال أنا ما لي في الخمر رغبة لأنه يشغلني عن مصالح ملكي ولقد أعجبني من نبيكم تحريمه ثم شرب ثلاثة أقداح كبار فلما أهر وجهه أخذت عوداً وغنيته وكان معي مغنية اسمها ضياء لم يكن في بغداد أحسن منها صورة ولا أطيّب منها صوتاً فأصلحت أنغام العود وضربت ضرباً جالبة للنوم مع زمر رخييم الصوت وغنيت فلم أتم النوبة حتى رأيته قد نكس فقطعت الغناء بغتة وقويت ضرب الأوتار فانتبه فقبلت الأرض وقلت نام الملك فقال صدقت تمت تمنّ علي فقلت أتمنى على الملك أن يطلق لي على السمكية قال وأي شيء هي السمكية قلت بستان للخليفة فبسم وقال لأصحابه هذا مسكين مغن قصير الهمة وقال للترجمان قل له لم لا تمنيت قلعة أو ومدينة أي شيء هذا البستان فقبلت الأرض وقلت يا ملك العالم هذا البستان يكفيني وأنا ما يجيء مني صاحب قلعة ولا صاحب مدينة فرسم لي بالبستان وبجميع ما كان لي من الراتب في أيام الخليفة وزادني علوفة تشتمل على خبز ولحم وعليق دواب تساوي دينارين وكتب بذلك فرماناً مكمل العلائم وخرجت من بين يديه وأخذ لي نانو نوين أميراً بخمسين فارساً ومعهم علم أسود هو كان علم هلاكو الخاص به برسم حماية داري فجلس الأمير على باب الدرب ونصب العلم الأسود على أعلى باب الدرب فبقي الأمر كذلك إلى أن رحل هلاكو عن بغداد قال الأربلي فقلت له كم نابلك من المغارم في الثانية قال أكثر من ستين ألف دينار وذهب أكثرها لما كان انزوى إلى دري من ذوي اليسار والباقي من نعم موفرة كانت عندي من صدقات الخليفة فسألته عن المرتب والبستان فقال البستان أخذه مني أولاد الخليفة وقالوا هذا إرث من أبينا والعلوفة قطعها عني صاحب شمس الدين الجويني وعوضني عنها وعن البستان في السنة مائة ألف درهم.

وقال كان بمدينة السلام مغن يعرف بالغيور وكان عنده من الجوّاري عدد كثير ذوات حسن وكان خبره فاشياً يقصده المصنون وغيره فبلغ رجلاً من الكتاب المشهورين خبره فتشوقت نفسه إلى قصده ثم تجنبته لما شهر به فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حالاً بأن دعاه وبرّه ووصله وكان قصد الناس منزله أثر عندهم من دعاء من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه قال الكاتب يسألني المصير إليه وأقشعر لشناعة لقبه إلى أن لقيني بالقرب من منزله فحلف على أن لا أفارقه فكان ذلك أن صادف مني موافقة فمضيت معه فرأيت أحسن موافقة وآلة فلما استقر بنا الجلوس قال لعلّمني إذا كان في غد بكروا فجئوا بالدواب فاستوحشت وقلت بلى يقيم بعضهم عندي ويعود الباقيون ليلاً للأنصراف إلى منزلي فأبى وحلف فاتبع ما أراد فأحضر أحسن طعام وألطفه وأكلنا وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين وأخذنا في أمرنا وخرجت وجوه كالشمس وكنت عند دخولي إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلاً معلقاً فظننته لبعض الجوّاري فلم أسأل عنه فلما صرنا على حالنا وأخذ النبيذ منا أحضر عموداً فجعله بين يديه فأوحشني جداً وقلت رجل غيور كما لقب وجوار حسن ونبيذ شديد ولست آمن أن أعبث بهن فيضربني بالعمود قال

أخبرك يا أخي أي رجل غيور كما قد بلغك ويحضر منزل قوم معهم سوء أدب فما هو إلا أن تغنى الجارية حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها وضحك في وجهها وضحكت في وجهه فأقول أقوم بهذا العمود فإنما هي ضربة له وضربة لها فأقتلها وأستريح إلا أي على ما ترى رجل معي تأن شديد فأقول شرب الرجل فسر وضحك ولعله بعد يعرفها وتعرفه فضحكت إليه وضحك إليها قال فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي وأصغيت إلى حديثه فقلت ثم ماذا قال ثم إن الأمر يزيد حتى أراه قد دنا فسارها وسارته فتقوم عليّ القيامة وأقول ضحك إليها وضحكت إليه للمعرفة فما وضع السر ثم أهم بالعمود والثاني الذي في يقول لعله طالبها بصوت تغنيه فأمسك فلا يطول الأمر بينهما حتى أراه قد أدخل يده في ثوبها فقرصها وعبث ببنديها فتدخلني الغيرة وأقول ما بعد هذا شيء وأهم بضرهما بالعمود لكن على ما ترى عندي تأن فأقول بعد لم يبلغ الأمر بهما إلى القتل وهي أوائل وسيكون لها أواخر فإن أتى بما يوجب القتل قتلتهما فاسترحت فأمسك فيطول الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل في أثرها فيدخلان ذلك البيت وبابه وثيق جداً فأسعى خلفهما بهذا العمود لأقتلها البتة فيسبقاني فيغلقان الباب وأبقى أنا خارجه وأنا غيور كما قد علمت فأقول متى علمت حركتهما مت أو قتلت نفسي فلا يكون والله يا أخي لي اعتصام إلا بذلك الطبل المعلق فأتناوله وأضعه في عنقي فلا أزال أضرب أبداً حتى يخرجوا قال فما قمت والله وأنا أرى أوفى منه قولاً وفعلاً.

قال صلاح الدين الصفدي في الجزء الخامس والثلاثين من التذكرة ومن خطه نقلت حجت جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان أخت أبي ثعلب سنة ست وثمانين وثلثمائة فسقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج واستصحبت البقول المزروعة في المواكب وعلى الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار لم تستصح عندها وفيها إلا بشموع العنبر واعتقت ثلثمائة عبد ومائتي جارية وأغنت الفقراء والجوارين. وحج عبد الله بن جعفر ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه بثلاثين ألفاً وقال أعنتهم الله تعالى لعل الله أن يعتقني من النار.

وكان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت ويقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

عمر بن زر الهمداني لما قضى مناسكه أنسد ظهره إلى الكعبة الشريفة ثم قالت مودعاً للبيت ما زلنا نحل لك عروة ونشد أخرى ونصعد أكمة ونهبط وادياً وتخفصنا أرض وترفعنا أخرى حتى أتيناك غير محجوبين فليت شعري بم يكون منصرفنا أبذنب مغفور فأعظم بها من نعمة أم بعمل مردود فأعظم بها من مصيبة فيا من إليه خرجنا وإليه قصدنا وبجرمه أنحنأ أرحم إملاق الوفد لغناك فقد أتيناك بعيسنا معراة جلودها ذابلة أستنتها نقبة أخفافها وإن أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتفينا الغيبة اللهم وإن للزائرين حقاً فأجعل حقنا غفران ذنوبنا فإنك جواد ماجد لا ينقصك نائل ولا يخصبك سائل.

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدي من الجزء الثامن والثلاثين من تذكروته ما صورته نقلت من خط شيخنا الشيخ الإمام الحافظ علم الدين البرزلي رحمه الله تعالى ما صورته قرأت في بعض الكتب الواردة

من القاهرة الخروسة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادي الآخرة في سنة اثنين وسبعمئة ظهرت دابة عجيبة من بحر النيل إلى ارض المنوفية صفة لونها لون الجاموس بلا شعر و آذانها كأذان الجمال وعيناها وفرجها مثل الناقة يغطي فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمكة ورقبتها مثل غلظ التيس الخشو تيناً وفمها وشفتاها مثل الكربال ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل طوله من دون الشبر وعرضهن أصبعين وفي فمها ثمانية واربعون ضرساً وسناً مثل بيادق الشطرنج وطول يدها من باطنها الى الارض شبران ونصف ومن ركبها الى حافرها مثل بطن الثعبان أصغر مجعد ودور حافرها مثل السكرجة بأربعة أظافر مثل أظافر الحمل وعرض ظاهرها مقدار ذراعين ونصف وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدماً وفي بطنها ثلاث كروش ولحمها أحمر زفرته مثل السمك وطعمه كطعم الحمل وغلظ جلدها أربعة أصابع ما تعمل فيه السيوف وحمل جلدها على خمسة جمال في مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل وأحضروه إلى القلعة المعمورة بحضرة السلطان وحشوه تيناً وأقاموه بين يديه.

ونقلت منه أيضاً كُتب إلى زين الدين الرحبي أنه وجد بالقاهرة بالقرب من المشهد كلبة ميتة ولها جروان يرضعان مقدار عشرين يوماً بعد موتها ويلعبان حولها واللبن يخرج من أبرزها من الجانب الأعلى وأما الجانب الأسفل فإنه ييس وكان الناس يمرون بها ويتعجبون فسبحان من لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

وذكر الشيخ في حوادث سنة ٧٢٦ قال قال شيخنا علم الدين رحمه الله تعالى نقلت من خط الصدر بدر الدين الفزازي قال في السابع من ذي الحجة سنة ٧٢١ أخبرني شخص أن كلبة ولدت بالقاهرة ثلاثين جرواً وأنها أحضرت بين يدي السلطان فلما رآها عجب من أمرها وسأل المنجمين عن ذلك فأعترفوا أنهم ليس لهم علم بذلك.

يحكى أن المهدي خرج يتصيد فلقيه الحسين بن مطير الأسدي فأنشده:

أضحت يمينك من جودٍ مصورةً ... لا بل يمينك منها صورة الجود

من حسن وجهك تضحي الأرض مشرقةً ... ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي كذبت يا فاسق وهل تركت في شعرك موضعاً لأحد مع قولك في معن بن زائدة:

الما بمعنٍ ثم قولاً لقبره ... سقتك الغواصي مريعاً ثم مربعا

فيا قبرٍ معنٍ كنت أول حُفرةٍ ... من الأرض خطت للمكارم مضجعا

ويا قبرٍ معنٍ كيف وارت جوده ... وقد كان منه البرُّ والبحر مترعا

ولكن حويت الجود والجود ميتٌ ... ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا

وما كان إلا الجود صورة وجهه ... فعاش ربيعاً ثم ولّى فودعا

فلما مضى معنٌ مضى الجود والندى ... وأصبح عرنين المكارم أجدها

فأطرق الحسين وقال يا أمير المؤمنين وهل معن إلا حسنة من حسناتك فرضي عنه وأمر له بألفي دينار.

قال سعيد بن مسلم لما ولّى المنصور معن بن زائدة أذريجان قصده قوم من أهل الكوفة فلما صاروا ببابه

استأذنوا عليه فدخل الآذن فقال أصلح الله الأمير وفد من أهل العراق قال من أي أهل العراق قال من

الكوفة قال انذن لهم فدخلوا عليه فظفر إليهم معن في هيئة مزربة ووثب على أريكته وأنشد يقول:
إذا نوبةً نابت صديقك فاغتنم ... ترقيها فالدهر بالنس قلبُ

فأحسنُ ثوبيك الذي هو لابسٌ ... وأفره مهريك الذي هو راكب
وبادرٌ بمعروفٍ إذا كنت قادراً ... زوال اقتدارٍ فهو عنك يعاقب
قال فوثب إليه رجل من القوم فقال أصلح الله الأمير ألا أنشدك أحسن من هذا قال لمن قال لابن عمك
هرمة قال هات فأنشد يقول:

والفس تاراتٍ تحلّ بها العرى ... وتسخر عن المال النفوس الشحائحُ
إذا المرء لم ينفك حياً فنفعه ... أقلّ إذا ضمت عليه الصفائح
لأية حال يمنع المرء ماله ... غداً فغداً والموت غادٍ ورائح
فقال معن أحسنت والله وإن كان الشعر لغيرك يا غلام اعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم إلى
أن يتهيا لنا فيهم ما نريد الغلام اجعلها دنائير أم دراهم فقال معن والله لا تكون همتك أرفع من همتي.
مدح مطيع بن أياس معن بن زائدة فقال له معن إن شئت مدحتك وإن شئت أثنتك فاستحي من اختيار
الثواب وكره اختيار المدح فقال:

ثناءً من أميرٍ خيرٌ كسب ... لصاحب مغنمٍ وأخي ثراء
ولكنّ الزمان برى عظامي ... وما مثل الدراهم من داوء
فأمر له بألف دينار.

ولما قدم معن بن زائدة أتاه النلس فأتاه ابن جحفة فإذا المجلس غاص بأهله فدق بعصاه الباب ثم قال:
وما أحجم الأعداء عنك تقيّةً ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
له راحتان الجود والحنف فيهما ... أبا الله إلا أن يضرّ وينفعا
فقال معن تحكم يا أبا السمط فقال عشرة الاف فقال معن ونزید له ايضاً.
أتى أعرابي إلى معن بن زائدة ومعه نطع فيه صبي حين ولد فاستأذن عليه فلما دخل جعل الصبي بين يديه
وقال:

سمّيت معنًا بمعنٍ ثم قلت له ... هذا سميّ فتى في الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود نعرفه ... ومثل جودك فينا غير معهود
أمسيت يمينك من جودٍ مصوَّرةً ... لا بل يمينك منها صورة الجود
قال كم الأبيات: قال ثلاثة قال أعطوه ثلثمائة دينار ولو كنت زدتنا لزدناك قال حسبك ما سمعت وحسبي
ما أخذت.

أخبرنا الشيخ الجليل العدل الأصيل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن غانم بن وافد المهدي قال
أخبرنا المشايخ الثلاثة الإمام فخر الدين أبو الحسن علي ابن أحمد بن عبد الواحد البخاري وأبو العباس أحمد
بن شيبان بن ثعلب الشيباني وأم حميد زينب بنت مكّي بن علي بن كامل الحراني قال أخبرنا أبو حفص عمر

بن عمر ابن محمد بن أبي نصر الحميدي قال أنشدني أبو غالب محمد بن سهل النحوي الواسطي المعروف بابن شبران بواسط قال أنشدني الأمير أبو الهيجاء محمد بن عمران بن زريق الكاتب البغدادي لنفسه هذه القصيدة إلى آخرها وقد أنشدنيها جماعة بالمغرب وقال لي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد وغيره يقال من تختم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف وهي:

لا تعذليه فإنّ العذل يوجعهُ ... قد قلت حقاً ولكنّ ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدّاً أضرب به ... من حيثُ قدّرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً ... من عنفه فهو مُضنى القلب موجههُ
قد كان مضطلعاً بالبين يحمله ... فضلّعت بخطوب البيت أضله
يكفيه من لوعة التفتيد أنّ له ... من التوى كلّ يوم ما يروّعه
ما آب من سفر إلّا وأزعجه ... رأيّ إلى سفر بالرغم يتبعهُ
كأنّما هو في حلٍّ ومُرتحلٍ ... موكلّ بفضاء الأرض ينزعه
إذا الزماع أراه بالرحيل غنيّ ... ولو إلى السدّ أضحي وهو يزعه
تأبى المطامع إلّا أن تجشّمه ... للرزق كدّاً وكم من يودعه
وما مجاهدة الإنسان واصله ... رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسم بين الناس رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيّعه
مسترزقاً وسوى الغايات تقنعه
لكنّهم ملؤوا حرصاً فلست ترى ... بغيّ إلا إنّ بغيّ المرء يصرعه

والحرص في المء والارزاق قد قسمت ... بغيّ إلا ان بغيّ المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبهُ ... حقّاً ويطعمهُ من حيث يمنعه
أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزارار مطلعهُ
ودّعته وبودّي لو يودّعني ... طيبُ الحياة وأني لا أودعه
كم قد تشفّع بي أن لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفّعه
وكم تشبّث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدعني مستهلات وأدععه
لا أكذبُ الله ثوب العذر منخرق ... عني برفقته لكن أرقّعه
إني أوسّع عندي في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسّعه
أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلّعه
ومن غدا لا بساً ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فإنّ الله ينزعه
اعتضت من وجه خلّي بعد فرقته ... كأساً تجرع منها ما أجرعه
كم قاتل لي ذنبُ البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
إلّا أقمت مكان الرشد أتبعه ... لو أنني يوم بان الرشد أجمعه

أن لا أقطع أياماً وأنفذهـا ... بحسرة منه في قلبي تقطعه
 بمن إذا هجع التوام بتُّ به ... بلوعة منه ليلى لست أهجعه
 لا يطمئن بجبي مضجعٌ وكذا ... لا يطمئن له مذُ بنت مضجعه
 ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني ... به ولا أظنُّ بي الأيام تفجعه
 حتى جرى الين فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمعه
 وكنت من ريب دهري جازعاً فرقا ... فلم أوقّ الذي قد كنت أجزعه
 بالله يا منزل الأنس الذي درست ... آثاره وعفت مذ بنت أربُعه
 هل الزمان معيدٌ فيك لدنّا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه
 في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه
 من عنده لي عهدٌ لا يضيع كما ... عندي له عهدٌ ودٌّ لا أضيعه
 ومن يصدّع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدّعه
 لأصبرن لدهرٍ لا يمتّعني ... به ولا بي في حال يمتّعه
 علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً ... فأضيق الأمر إن فكّرتُ أوسعه
 عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
 وإن تل أحدًا منّا منيته ... فما الذي بقضاء الله يصنعه

يحكى أنه وقع في ليلة الجمعة خامس عشر المحرم سنة ٨٣١ أن حضرت صلاة العشاء بالجامع النووي بحماة
 فقدم إمامه للصلاة بعد الإقامة وكبر تكبيرة الافتتاح وقرأ دعاء الافتتاح والفاحة ثم قرأ ألم السجدة ولما أتى
 على آية السجدة سجد ثم أتمها إلى آخرها وركع وسجد السجدين ثم قام إلى الركعة الثانية وقرأ الفاتحة ثم
 قرأ سورة النحل وبنى إسرائيل والكهف ومريم وجانباً من طه فأرتجّ عليه فركع ثم اعتدل واقفاً ثم سجد
 السجدين وتشهد وسلم على رأس الركعتين.

حكى الدينوري في المجالسة في ترجمة أبي عبد الله سعيد بن يزيد البناجي قال سمعت أبي يقول قال: قال خالي
 أحمد بن محمد بن يوسف سمعت محمد بن يوسف يقول كان أبو عبد الله البناجي مجاب الدعوة وله آيات
 وكرامات، بينما هو في بعض أسفاره إما حاجاً وإما غازياً على ناقه وكان في الطريق رجل عائن قلماً ينظر
 إلى شيء إلا أتلّفه وأسقطه وكان ناقه أبي عبد الله ناقه فارهة فقبل له إحفظها من العائن فقال أبو عبد الله
 ليس له إلى ناقتي سبيل فأخبر العائن بقوله فتخيّر غيبة أبي عبد الله فجاء إلى رحله وعان ناقته فاضطربت
 وسقطت تضطرب فأتى عبد الله فقبل قد عان ناقته وهي كما تراها تضطرب قال دلوني على العائن فدل
 عليه فقال بسم الله حبس حابس وحجر يابس وشهاب قابس رددت عين العائن عليه وعلى أحب الناس
 إليه في كليتيه رشيق وفي ماله يليق فأرجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك
 البصر خاسئاً وهو حسير فخرجت حدقة العائن وقامت الناقه لا بأس بها.

وله في أسماء الولايم:

وليمة أعراسٍ وخرسٍ ولادة ... عقيقة مولودٍ نقيمة قادم
وخيمة حزنٍ والبناء وكيرة ... عذيرة ختنٍ مآدبات المكارم
وله أيضاً في أسماء أيام العجوز على الترتيب:
بصنٌ وصنبرٌ ووبرٌ معللٌ ... بمطفئٍ جمرٍ آمرٌ نعم مؤتمر
تولّت عجوزٌ ثم أعقب بعدها ... شبابٌ ربيعٍ زهره يانعٌ نضر
ولغيره في أسماء خيل الحلبة:
سبق المجلي والمصلي والمسلّي ... بعد تاليه ترى المرتاحا
وبعاطفٍ وبفسكلٍ وحطيّة ... حَلْبُ اللطيم على الكميّت صباحا
لأبي العلاء المعري:

سألن فقلتُ مقصّداً سعيدٌ ... فكان اسم الأمير لهنّ فلا
إذا ما الغيمُ لم يمطرُ بلاداً ... فإنّ له على يلك اتكالا
ولو أنّ الرياحُ قهّبُ غرباً ... وقلتَ لها هلا هبتَ شمالا
وأقسم لو غضبت على ثبيرٍ ... لأزعم عن محلّته ارتحالا
نبذة لغوية يفتقر كل متأذب إليها: البلج هو أن يقطع الحاجبان فلا يكون بينهما تضام للشعر وكان العرب
تمدج البلج ويقال رجل أبلج وامرأة بلجاء.

ثم العين فجملة العين المقلّة وهي الشحمة التي تجمع البياض والحدقة والناظر هو موضع البصر وفيه الإنسان
والإنسان ليس بخلق له حجم والحجم ما وجدت مسه والعين كالمرآة إذا استقبلتها بشيء رأيت شخصه فيها
وفيها الناظران وهما عرقان على حرف الأنف يسيلان من الموقين إلى الوجه وفيها الأجفان وهي غطاء المقلّة
من أعلى وأسفل وفيها الأشفار وهي حروف الأجفان التي تلتقي عند الغمض الواحد شفر والشفر الذي
ينبت فيه الهدب الواحد هذب فإذا طالت الأهداب قيل رجل أهدب وامرأة هذباء ورجل أوطف وامرأة
وطفاء وكذلك أذن هذباء إذا كانت كثيرة الشعر ووطفاء دليل على الطول والمخجر ما خرج من النقاب
من الرجل والمرأة من الجفن الأسفل وفي العين الحماليق والواحد حملاق والحماليق النواحي وفيها اللحاظ
وهي في مؤخرها الذي يلي الصدغ والموق طرفها الذي يلي الأنف وهو مخرج الدموع وفي العين الخوص
وهو ضيق في مؤخرها يقال رجل أحوص امرأة حوصاء وفيها النجل وهو سعة العين وعظم المقلّة وكثرة
البياض وفيها الخنس وهو ضعف في النظر وفيها الكحل وهو سواد العين بين الحمرة والسواد والشهل أن
يشوب سوادها زرقة يقال رجل أشهل وامرأة شهلاء ويقال نظر إليّ شزراً وذلك إذا نظر عن يمينه أو عن
شماله ولم يستقبله بنظره في النظر والإغضاء وهو أن يطبق جفنه على حدقته فيقال رايته مغضياً.

ثم الفم وفي الفم الشنايا والرباعيات والضواحك والأرحاء والنواجذ فالضواحك أربعة أضراس تلي الأنياب
إلى جنب كل باب من أسفل الفم وأعلاه ضاحك وأما الأرحاء فهي ثمانية أضراس من أسفل الفم وأعلاه
وفي الظلم ساكن وهو ماء الأسنان وفي الأسنان الشنب وهو برد وعدوية في المذاق والفالج تباعد ما بين
الأسنان.

ثم اللثة هو اللحم تنبت فيه الأسنان وفي اللثة اللمي وهو سمرة تضرب إلى سواد وكذلك الحوة واللهاة
واللحمة الحمراء المعلقة على الحنك

نقلت من الجزء الثالث والعشرين من التذكرة للصفدي أن شهاب الدين أحمد الحموي النقاش ورد إلى
القاهرة سنة ٧٣٢ وكتب الختمة الشريفة على خوصة من أولها إلى آخرها مفصلة الأجزاء والسور أخبرني
بذلك الموالي السادة الموقعون بالباب الشريف وقدمها لمولانا السلطان الملك الصالح وسأله عن مولده فقال
في سنة ٦٩٩ وله نظم رائع. وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: عشر تورث النسيان كثرة الهم
والحجامة في النقرة والبول في الماء الراكد وأكل التفاح الحامض وأكل الكسفرة وأكل سؤر الفأرة وقراءة
ألواح القبور والنظر إلى المصلوب والمشي بين القطارين والقاء القملة حية والله أعلم هذا آخر التذييل.
وهذا تذييل آخر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله على نعمائه والصلاة والسلام على خير أنبيائه. يقول العبد الفقير إلى عفور مولاه الكريم
إبراهيم بن الحاج علي الأحذب قد رأيت أن أذيل الثمرات بما جنيته من الثمار الدانية والقوائد العالية وبالله
التوفيق.

فمن ذلك ما يحكى أن صاحب بدر الدين وزير اليمن كان له أخ بديع الجمال وكان شديد الحرص عليه
فأتى له بشيخ ذي دين وعفة وهيبة وعقل ليعلمه فأسكنه في منزل قريب منه فأقام على ذلك مدة ثم إن
الشيخ امتحن بمحبة ذلك الشاب وقوي غرامه فيه فشكا يوما له حاله فقال له ما حيلتي وأنا لا أستطيع
مفارقة أخي لا ليلاً ولا نهاراً أما الليل فإن سريري بجانب سريره وأما النهار فكما ترى تلازمنا فقال الشيخ
إن منزلي ملاصق لداركم فيمكن إذا غمضت عين أخيك أن تقوم لتستعمل ماء فتأتي إلى الحائط وأنا
أتناولك من وراء الجدار فتجلس عندي لحظة لطيفة من غير أن يشعر أخوك بشيء فقال السمع والطاعة
وتواعدا على ليلة فهدى له الشيخ من التحف والظرف ما يليق بمقامه فلما نام الصاحب واستغرق في النوم
وأمن انتباهه قام الشاب وتمشى خطوات وفتح باب يتوصل منه إلى الحائط فوجد شيخه واقفاً ينتظره فتناوله
وصار عنده في المنزل وكان ليلة البدر وتنادما ودارت بينهما كؤوس الشراب مزوجة ببرد الرضاب وانتشى
الشيخ وأخذ في الغناء وقد رمى القمر جرمه عليهما وانتبه الصاحب فلم يجد أخاه فقام فرعاً مرعوباً ووجد
الباب الذي استطرق منه أخوه مفتوحاً فقال من هنا جاء الشر فدخل منه وصعد الحائط فوجد نوراً ساطعاً
من البيت ونظر فرآهما على هذه الحالة والكأس بيد الشيخ وهو ينشد أحسن صوت:

سقاني حمرةً من ريق فيه ... وحيًا بالعذار وما يليه

وبات معانقاً خذاً بجذ ... غزالاً في الأنام بلا شبيه

وبات البدر مطلوعاً علينا ... سلوه لا ينم على أخيه

فكان من لطافة الصاحب أن قال والله لا أنم عليكمما وتركهما وانصرف انتهى.

ومن بديع ذلك ما حكاه ابن خلكان في تاريخه في ترجمة شرف الدين المعروف بابن المستوفي قال قد وصل إلى اربل بعض الشعراء وهو الشريف عبد الرحمن بن أبي الحسين بن عيسى بن علي بن يعرب في سنة ثمان وعشرين وستمائة وشرف الدين يومئذ وزير فسير له مثلوماً على يد شخص كان في خدمته يقال له الكمال بن الشعار الموصللي صاحب التاريخ والمثلوم عبارة عن دينار يقطع منه قطعة صغيرة وقد جرت عادتهم في العراق وتلك البلاد أن يفعلوا هذا لأنهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونهم القراضا ويتعاملون أيضاً بالمثلوم وهذا كثير الوجود بأيديهم فجاء الكمال إلى ذلك الشاعر وقال له الصاحب يقول لك أنفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيئاً فتوهم الشاعر أن الكمال يكون قد قرض القطعة من الدينار وأن شرف الدين ما سيره إلا كاملاً وقصد استعلام الحال من جهة شرف الدين فكتب إليه:

يا أيُّها المولى الوزير ومن به ... في الجود حقاً تضرب الأمثالُ
أرسلت بدر التّم عند كماله ... حسناً فوافى العبد وهو هلال
ما غاله النقصان إلا أنّه ... بلغ الكمال كذلك الآجال
فأعجب شرف الدين بهذا المعنى وحسن الاتفاق وأجاز الشاعر وأحسن إليه انتهى.

ومنه ما حكى أن إبراهيم بن سهل الأشبيلي كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه حتى أنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم وكان يحب يهودياً اسمه موسى وأكثر شعره فيه فلما أسلم أحب شاباً اسمه محمد وترك هوى اليهودي فقبل له في ذلك فأنشد:

تركت هوى موسى بحب محمدٍ ... هديت ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن قلبي تركي هواه وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد
وكان إبراهيم هذا شاعراً مجيداً اتفق له في صباه أن الهيثم نظم قصيدة مدح بها المتوكل على الله بن يوسف بن هود ملك الأندلس وقد كانت أعلامه سوداً لأنه كان بايع الخليفة ببغداد فأرسل إليه بالتولية والألوية والنيابة ولا يعلم أحد من ملوك الأندلس قبله ولا بعده بايع بني العباس قط فوقف إبراهيم بن سهل والهيثم ينشد قصيدته لبعض أصحابه فقال إبراهيم للهيثم زد بين البيت الفلاني والبيت الفلاني:

أعلامه السود إعلامٌ بسُودده ... كأنَّ بحد الملك خيلانُ
فقال الهيثم أهذا البيت شيء أم نظمته فقال بل نظمته الساعة فقال الهيثم أن عاش هذا الغلام فسيكون أشعر أهل الأندلس.

ومنه ما اتفق سنة ثمان وستمائة أن الملك المعظم عيسى سار إلى أخيه الملك الأشرف فاستعطفه على أخيه الكامل محمد وكان في نفسه موجدة عليه فأزأها وسارا جميعاً نحو الديار المصرية لمعاونة الكامل على الأفرنج الذين قد أخذوا دمياط واستحكم أمرهم هناك من سنة أربع عشرة بعد حروب كثيرة يطول شرحها حتى عرض عليهم في بعضها أن يرد عليهم بيت المقدس وجمع ما كان صلاح الدين فتحه في الساحل ويتركوا دمياط فامتنعوا من ذلك فقدر الله سبحانه وتعالى أن قلمت عليهم مراكب فيها أميرة لهم فأخذها مراكب المسلمين وأرسلت من أراضي دمياط المياه من كل ناحية فلم يمكن الأفرنج أن يتصرفوا بأنفسهم وحصرهم

المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة من غير
مفاوضة فجاء مقدمهم إلى الملك الكامل وعنده أخواه المذكوران كانا قائمين بين يديه وكان يوماً مشهوداً
وأمر محموداً فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد وملوك الأفرنج والعساكر كلها واقفة بحضرته ومد
سماطاً عظيماً اجتمع عليه المؤمن والكافر والبر والفاجر فقام الخليلي الشاعر وأنشد:

هنيئاً فإن السعد راح مخلصاً ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً به المنى ... مبيناً وإنعاماً وعزاً مؤيداً
تملّ وجه الأرض بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغا البحر الخضم بأهله الط ... غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام بهذا الدين من سلّ عزمه ... صقيلاً كما سلّ الحسام مجردا
فلم ينج إلا كلّ شلو مجدلّ ... ثوى منهم أو من تراه مقيداً
ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً ... عقيرته في الخافقين مشيداً
أعباد عيسى إن عيسى وقومه ... وموسى جميعاً يخدمون محمداً

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بلغني أنه وقت الإنشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم وعند قوله
موسى إلى الأشرف وعند قوله محمد إلى الكامل وهذا من أحسن الاتفاق انتهى.
ومنه ما حكى عن جمال الدين كاتب سر الملك المعظم عيسى أنه كان بينه وبين السلطان مداعبة ومنادمة
فاتفق أنه حضر في بعض الليالي عنده فلما رجع إلى منزله قالت له زوجته أين إنعام السلطان فقال ما أنعم
عليّ الليلة بشيء فقالت أنا أعوض عنه وقامت إليه هي وجواربها في الحال وتناولته بالخفاف الثقال إلى أن
ألانت أعطافه وأدارت في حالة الصفع صلافه فكتب للمعظم رقعة في ذلك منها:

وتخالفت بيض الأكف كأنها الت ... صفيق عند مجالس الأعراس
وتناجعت سود الخفاف كأنها ... وقع المطارق من يدي نحاس
وقال أجب عنها فأجابه بما في آخره:

فاصبر على أخفافهن ولا تكن ... متخلّقا إلاّ بخلق الناس
وأعلم إن اختلفت عليك بآئه ... ما في وقوفك ساعة من بلس
وضمنه أبو جعفر الأندلسي فقال:

ومورّد الوجنات دبّ عذاره ... فكأنه خطّ على قرطاس
لما رأيت عذاره مستعجلاً ... قد رام يخفي الورّد منه بأس
ناديته قف كي أودّع ورده ... ما في وقوفك ساعة من بلس
ومن البديع ما يحكي أن الشيخ ابن كثير صاحب التاريخ كان له صفة على باب داره يجلس ويطالع فيها
استتناساً بالمارة لسامة الوحلة وإلى جواره جار له رث الثياب وكان إذا رأى الشيخ جالساً على الصفة
يجيء ويركب أكتافه فيفوح منه رائحة فيتأذى ويستحي أني يصرفه فاشتد غيظه يوماً فقال له: يا شيخ أما

تستحي كلما تراني جالساً تحيء تركب أكتافي وأنت لست تعرف ما أطالعه ولا لك شعور به فلما أحجله بهذا التعنيف قال له يا سيدي الشيخ ما هذا الذي تطالع فيه من العلوم فقال شيء في الأقتباس فقال له أنشدني منه شيئاً ففكر ابن كثير ساعة واقتبس في مطالعة الحال وقال:

كيد حسودي وهنّا ... ولي سرورٌ وهنّا

الحمد لله الذي ... أذهب عنا الحزنّا

فلما فرغ من إنشاده قال له هذا الذي أفكرت فيه وتكثرت به أسمع ما أقول فأنشد ارتجالاً من غير وقفة:

قلبي إلى الرشيد يسير ... وعنده النّظم يسير

الحمد لله الذي ... فضّلنا على كثير

واعتذر له وقال له إياك أن تزدري بأحد فإن مواهب الله تعالى في الصدور لا في الثياب انتهى.

ومن اللطائف ما حكى أن بعض الملوك حاصر ملكاً وأطال في حصاره فلما اشتد به المحاصرة استدعى بوزرائه فقال ما ترون وقد تأخرت بنا هذه الحال هل نسلّمه أم نخرج عليه ليلاً ويفعل الله بنا ما يشاء فقال بعض وزرائه قد بدا لي رأي أرى أنهم ينصرفون به عنا من غير قتال فقال ما هو قال يجمع مولاي ما في خزانته من الذهب ويحضره فلما أحضره استدعى بالصياغ وأمرهم أن يصوغوه جميعه سهاما زنة كل سهم قدر معلوم فعملت على الأمر المذكور فكتب الوزير على كل نصل سطرين ثم أمر أن تركب السهام فلما ركبت أمر حاشية الملك بأن يأخذ كل واحد سهماً وأمرهم أن يرموها عن قوس واحد على العسكر احتاط بهم فتألاً لمعان نصالها حتى أدهش العيون فأمر الملك أن تجمع فلما جمعت بين يديه أمر أن يقرأ ما عليها فإذا هو مكتوب:

ومن جوده يرمي العفاة بأسهم ... من الذهب الابريز صيغت نصولها

لينفقها مجروحها في دوائه ... ويشترى الأكفان منها قتيلاً

فلما سمع ذلك أمر بالرحيل من ساعته وقال مثل هذا لا يحاصر ولا يقاتل.

ومن ذلك ما يحكي أن الشيخ شمس الدين المعروف بالدجوي رحمه الله تعالى كان يتعشق مليحاً فرآه بعد مدة وهو يتوجع من دمل طلع في دبره فسأله فقال دمل في ذلك الخل فضحك الشيخ ضحكاً شديداً وقال ما رأيت أعجب من هذا الدمل فقال له الشاب ولم قال الدمامل تطلع في أضيق المواضع وهذا على غير القياس جاء في أوسع المواضع فتبسم الشاب خجلاً ومضى انتهى.

لطيفة يحكى أن نقيب الأشراف ببغداد كان يهوى غلاماً اسمه صدقة فأخذ ابن المنير الطرابلسي يوماً

وأضافه وجلس في طبقة له فذهب إليهم على خفية وقال:

يا من هم في الطبقة ... هل عندكم من شفقة

لسائلٍ متيم ... يطلب منكم صدقة

فأجابه ابن المنير ارتجالاً في الحال بقوله:

يا من أتانا سرقة ... بمهجة محترقة

جدك يا ذا لم يجر ... أحلك منا صدقة

ومن المستعذب ما يحكى عن الفضل قال دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وعنده جاريته مارية وكانت تحسن الشعر والأدب مع الحسن والجمال فقال يا فضل قل في هذا الورد فأنشده بديها:

كأنما فم محبوب يقبله ... فم الحبيب وقد أبدى به خجلا

فقال الرشيد ما تقولين يا مارية فأنشدته:

كأنه لون خدي حين تدفني ... كف الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يا فضل فقد هيجني هذه الماجة فقلت وقد أرخيت الستور.

ومن الغايات التي لا تدرك ما حكاه الشريف المقرئ في شرح بديعته أن صائغا نصرانياً اسمه نجم صاغ خاتماً لبعض أولاد وزراء بيت المقدس وكان اسمه يحيى فنقش عليه نجم عشق يحيى ودفعه له فلما قرأه طاش عقله وامتلاً غيظاً وذهب إلى أبيه وقال له اقرأ ما على هذا الخاتم فلما قرأه حصل في نفسه تأثير فأرسل خلفه وعقد مجلساً لدى القاضي وأراد قتله فلما حضر أعلم بذلك فقال ما ذنبى وأنتم تروون عن نبيكم: من قتل ذمياً كنت خصمه يوم القيامة فقال له أو تتكلم وخطك يشهد عليك كيف تكتب نجم عشق يحيى فقال والله ما كتبت إلا ما تتبركون به في كتابكم فكتبت نجم عشق يحيى فطرب المجلس لذلك واستحسنوا ذكاه وأشاروا عليه بالإسلام فهذا من الاتفاق العجيب.

ومثل ذلك قول أبو نواس يهجو خالصة جارية الرشيد:

لقد ضاع شعري على بابكم ... كما ضاع درُّ على خالصة

فلما بلغ الرشيد أنكر عليه وهدده فقال لم أقل إلا ضاء واستحسن مواربته وقال بعض من حضر هذا البيت قلعت عينه فأبصر.

حكى عن أبي العيناء أنه قال رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاه فسألتها عن ذلك فقالت يا سيدي: أنه يوافقني من قيام ويصلي من قعود ويشتمني بأعراب ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثين ويفطر رمضان ويصلي الضحى ويترك الفرض فقلت لا أكثر الله مثله في المسلمين.

وقيل زنى رجل بجارية فأحبها فقليل له يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغني أن العزل مكروه قالوا فما بلغك أن الزنا حرام.

وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد.

وحكى أن علية بنت المهدي كانت تموى غلاماً خادماً اسمه طلّ فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ سورة البقرة فإن لم يصبها وابل فالذي فهم عنه أمير المؤمنين. قيل دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نواهم فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال أتلرون ما قالت المرأة فقالوا ما نراها

قالت إلا خيراً قال ما أظنكم فهمتم ذلك أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا أسكنت العين عن الحركة عميت وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر.

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصه ... ترقَّب زوالاً إذا قيل تمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً فتعجبوا من ذلك.

وحكي أن المأمون ولّى عاملاً على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر أنه قدم في تجارة بنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذاً بالعزم عاملاً بالحرم قد عدل بين رعيته وسأوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئاً من الدنيا يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكروا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره.

وحكي أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج فلاحته منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الرءاون أحسن منها فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها لمن هذه فقالت يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بما فاستدعى بفيزوز وقال له خذ هذا الكتاب وأمض به إلى البلد الفلانية وائتني بالجواب فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً حاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك ثم إنّه لما توجه فيروز قام الملك مسرعاً وتوجه مخفياً إلى دار فيروز ففرع الباب قرعاً خفيفاً فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال جئت زائراً فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما أظن فيها خيراً فقال لها ويحك إني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتيني فقالت يا مولاي لقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ ... وذاك لكثرة الوراد فيه

إذا سقط الذبابُ على طعامٍ ... رفعت يدي ونفسي تشتهي

وتجتنب الأسود ورود ماءٍ ... إذا كان الكلاب ولغن فيه

ويرتج الكريم خميص بطنٍ ... ولا يرضى مساهمة السفه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفه الغرام بنا ... وصاحب الغدر غير مصحوب

والله لا قال قائل أبداً ... قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتني إلى موضع شرب كلبك تشرب منه فاستحي الملك من كلامها وخرج وتركها فنسي نعله في الدار هذا ما كان من الملك وأما فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفارة إلا لأمر يفعله فسكت ولم يبد كلاماً وأخذ الكتاب وسار إلى حجرة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز إلى زوجته فسلم عليها وقال لها قومي إلى زيارة بيت أبيك قالت وما ذاك قال إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرني لأهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها عدة أشهر فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها فأتى إليه أخوها وقال له يا فيروز إما أن نخبرنا بسبب غضبك وأما أن تحاكمنا إلى الملك فقال إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقاً فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب ببئرته فالتفت القاضي إلى فيروز وقال له ما تقول يا غلام فقال فيروز أيها القاضي قد استلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان فقال القاضي هل سلم إليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضي ما قولك قال والله يا مولاي ما رددت البستان كراهية فيه وإنما جئت يوماً من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالي فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد قال وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال يا فيروز إرجع إلى بستانك آمناً مطمئناً فوالله أن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً ولا التمس منه ورقاً ولا تمراً ولا شيئاً ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك.

وحكي أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبيش عن مسائل يمتحنه فيها من جملة ما قال له: من أكرم الناس قال أفقههم في الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانيين وأطعمهم للمساكين قال فمن ألام الناس قال المعطي على الهوان والمقتر على الخوان الكثير الألوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدّهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيث قال فمن أحب الناس قال المتأخر عن الصفوف المتقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفنن في الملام الضنين بالسلام المهذار في الكلام المقبب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم إحساناً وأقومهم ميزاناً وأدومهم غفراناً قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الأمير إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله فالعاقل البصير بالإحسان يعرف شمائله والنذل الجاهل يجهلها فمثله كمثل الدرة إذا وقعت عند من

لا يعرفها ازدراها وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهي عندهم لمعرفتهم بها عظيمة فقال الحجاج لله أبوك فمن العاقل والجاهل قال أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذراً ولا ينظر شزراً ولا يضر غدرًا ولا يطلب غدرًا والجاهل هو المهذار في كلامه المتأن بطعامه الضنين بسلامه المتناول على إمامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فمن الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه قال فمن العاجز قال المعجب بآرائه الملتفت إلى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ولهن جوهر ولا يصلح إلا على المدارة فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاوهرهن كدرن عيشته وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن أعفهن وأفخر أحسابهن العفة فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة فقال له الحجاج يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافداً فماذا أنت قائل له قال أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه فقال أي أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت خلاخلك تجلجل في قصري هذا قال كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني وأجره في ميداني فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أي جاسوساً وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له أن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك فخذ حذرَكَ وتغدد به قبل أني يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنوية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعاً فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبه فيها وحط على رواحله فبينما هو كذلك إذا بإعرابي من بني بكر ابن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر وحمت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمى ظمأً شديداً فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا إعرابي قال أصابني الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيمنت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قال: أيتها تعني قال قبة الأمير بن الأشعث قال تلك لا يوصل إليها قال ان هذه أمتع منها فقال الأعرابي ما أسمك يا عبد الله قال آخذ فقال وما تعطي قال أكره أن يكون لي إسمان قال بالله من أين أنت قال من الأرض قال فأين تريد قال أمشي في مناكبها فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر أتقرض الشعر قال إنما يقرض الشعر الفأر فقال أفتسجع قال إنما تسجع الحمامة فقال يا هذا ائذن لي أن أدخل قبتك قال خلفك أوسع لك فقال قد أحرقتني الشمس قال مالي عليها من سلطان قال الرمضاء أحرقت قدمي قال بل عليها تبرد فقال أي لا أريد طعامك ولا شربك قال لا تتعرض لما لا تصل إليه ولو طلعت روحك فقال الأعرابي سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك فقال الأعرابي ما رأيت رجلاً أقسى منك أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني هلا أدخلتني وطارحتني القريض قال مالي بمحادثتك من حاجة فقال الأعرابي بالله ما أسمك ومن أنت فقال أنا

الغضبان ابن القبعثري فقال إسمان منكراً خلقاً من غضب قال قف متوكتاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله أن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء فقال الغضبان لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة فقال الأعرابي أي لأظنك حرورياً قال اللهم

اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده فقال أني لا أظن عنصرك فاسداً قال ما أقدرني على إصلاحه فقال الإعرابي لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول: بن القبعثري فقال اسمان منكرا خلقا من غضب قال قف متوكئاً على باب قتي برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله أن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشعاء فقال الغضبان لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة فقال الأعرابي أني لأظنك حرورياً قال اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده فقال أني لا أظن عنصرك فاسداً قال ما أقدرني على إصلاحه فقال الإعرابي لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول:

لا بارك الله في قوم تسودهم ... إني أظنك والرحمن شيطانا

أتيت قبته أرجو ضيافته ... فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي قال له الحجاج يا غضبان كيف وجدت أرض كerman قال أصلح الله الأمير أرضا يابسة الجيش بما ضعاف هزلاء أن كثروا جاعوا وإن قلوا ضاعوا فقال له الحجاج أأنت صاحب الكلمة التي بلغني أنك قلتها لابن الأشعث تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لأحبسك عن الوساد ولأنزلنك عن الجياد ولأشهرنك في البلاد قال الأمان أيها الأمير فوالله ما ضررت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له فقال له ألم أقل لك كأني بصوت خلاخلك تجلجل في قصري هذا اذهبوا به إلى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ثم أن الحجاج ابني الخضراء بواسط فأعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قتي هذه وبناءها فقالوا أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بمجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم لم تخبروني بنصح قالوا لا يصفها لك إلا الغضبان فبعث إلى الغضبان فأحضره وقال كيف ترى قتي هذه وبناءها قال أصلح الله الأمير: بنيتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لا تدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بياق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه إلى السجن فلما حملوه قال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه كررت قال رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم فقال الحجاج وبلغكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبتا ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلق سبيله: وقيل بينما كثير عزة مار بالطريق يوما إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي فقال لها تنحّي عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت قبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قالت: أأنت القاتل:

وما روضةً بالحسن طيبة الثرى ... يمجّ الندى جحاتها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقدت بالجمر اللدان نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريجها لم لا قلت مثل سيذك أمرى القيس.

وكت إذا ما جئت بالليل طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جواباً.

وحكى عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى، قال خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في الطريق إذا أنا بسواد على الطريق فميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولاً من رب رحيم قال فقلت لها رحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت ومن يضل الله فلا هادي له فعلت أنما ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدان قالت " سبحان الذي اسرى بعبد ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى " فعامت أنما قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها: أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: ثلاث ليال سوياً. فقلت ما أرى معك طعاماً تأكلين قالت: " هو يطعمني ويسقيني " فقلت: فبأي شيء تتوضئين. قالت: فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً. فقلت لها: إن معي طعام فهل لك في الأكل قالت ثم أتموا الصيام إلى الليل فقلت قد أبيع لنا الإفطار في السفر قالت وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون لم لا تكلميني مثل ما أكلمك قالت: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أي الناس أنت قالت ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً فقلت قد أخطأت فاجعيني في حل قالت لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي فتدركي القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت الناقة قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فقلت لها اصبري قالت سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت واقصد في مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت فاقرأوا ما تيسر من القرآن فقلت لها لقد أوتيت خيراً كثيراً قالت وما يذكر إلا أولوا الأبواب فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج قالت يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فسكتُ ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت أن لها أولاداً فقلت وما شأنهم في الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله إبراهيم خليلًا وكلم الله موسى تكليماً يا يحيى خذ الكتاب بقوة فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد اقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية فقلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنأ لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قيل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

مازلت يوم الهاشمية معلناً ... بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهندٍ ووسنان
فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع.
ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيباً فأحسن فحسده معاوية فقال له أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:
إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في الفلاة فإني ... أخاف إذا ما متُّ أن لا أدوقها
قال بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائل الناس ما جودي وما خلقي
أعطي الحسام غداة الروح حصته ... وعاملُ الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرضٍ ... وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس أنني من سراهم ... إذا سما بصر الرعيدي بالفرق
فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبي محجن وأمر له بصلة وجائزة.
وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغير منزر فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكان في الحمام
فغمض عينيه فقال له المجنون متى أعمك الله فقال منذ هُتكت سترتك.

ومن ذلك ما يحكى أن الحجاج خرج يوماً متنزها فلما فرغ من نزهته انصرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه
فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال
شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك في الحجاج قال ذاك ما ولي العراق شر منه
قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من أنا
قال لا قال أنا فلان ابن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له
بصلة.

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد
أن أكل فانتبه منزعجاً وقال يا خدام فأسرعنا الجواب فقال ويحكم أعينوني بالشط فأول ملاح ترونه منحدراً
في سفينة فارغة فاقبضوا عليه واثبوني به واكلوا بالسفينة من يحفظها فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة فجئنا
به المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقني يا
ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرراً في المشرعة
الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلي كثيرة وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى
سددت فمها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل سلبها إلى دارى
لئلا يفشو الخبر عليّ فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصيرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة
من الملاحين فأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك فقال أين الحلي والمسلم قال في صدر
السفينة تحت البواري قال المعتضد عليّ به الساعة فحضرُوا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد

من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلي فليحضر فحضر في اليوم الثاني أهلها واعطوا صفاقها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم قال فقلت يا مولاي من أعلمك أأوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت في منامي رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلما وسلها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ما شهدتم.

وحكي أن بهرام الملك خرج يوما للصيد فأنفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا في لحاقه حتى بعد عن عسكره فظفر إلى راع تحت شجرة فتزل عن فرسه يبول وقال للراعي احفظ على فرسي حتى أبول فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبسا ذهباً كثيراً فاستغفل بهرام وأخرج سكيناً فقطع أطراف اللجان وأخذ الذهب الذي عليه فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال حاجته ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي قدم إليّ فرسي فإنه قد دخل في عيني من سافي الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه إليه فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره فقال لصاحب مراكبه أن أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحداً.

قيل مرض أحمد بن أبي داود فعاده المتصم وقال نذرت أن عافاك الله تعالى أن اتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة فقال نويت أن اتصدق بها على من ههنا وأطلق لأهل الحرمين مثلها فقال أحمد متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فإنك كام قال النميري لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:
إنّ المكارم والمعروف أودية... أحلّك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

ومن محاسن الأخلاق ما حكي عن القاضي يحيى بن أكنم قال كنت نائماً ذات ليلة عند المامون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص عليّ نومي فرأيته قد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطأ خطوات خائفاً لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه ثم رأته آخر الليل قام يبول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعد طويلاً يحاول أن أتحرّك فيصيح بالغلام فلما تحرّكت وثب قائماً وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ثم جاءني فقال لي كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لي بألف دينار فأخذها وأنصرفت.
قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه.

وكت معه يوماً في بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقين ويقول لقيّم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول قال يحيى ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكت أنا

ما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل فكان يجذبي أن أتحوّل أنا في الظل ويكون هو في الشمس فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل فقلت والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيلك يوم الهول بنفسي لفعلت فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال بحياقي عليك إلا وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

أمنية أحقين

وحكي أن أحقين أصطحبا في طريق فقال أحدهما تعال نتمنّ على الله فإن الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غم أنتفع بلبنهما ولحمهما وصوفها وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما فطلع عليهما شيخ بجمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحقين.

بكاء زين العابدين

وقال الأصمعي بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:
يا من يجيب دعا المضطّر في الظلم ... يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتهوا ... وأنت يا حيّ يا قيوم لم تتم
أدعوك ربّي حزينا هائماً قلقاً ... فأرحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم
ثم بكى بكاء شديداً وأنشد يقول:
الا أيها المقصود في كلّ حاجة ... شكوت إليك الضرّ فأرحم شكايي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي ... فهبّ لي ذنوبي كلّها وأقصر حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي
أتحرّقي بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه فدنوت منه فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال من هذا الذي يهجم علينا قلت عبدك الأصمعي سيدي ما هذا البكاء والجرع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً قال: هيهات هيهات يا أصمعي إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن

عصاه ولو كان حراً قرشياً أليس الله تعالى يقول: فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون انتهى.

وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن محرمة الكندي وخالد بن صفوان بن الأهميم فخاضوا في الحديث تذاكروا مضر واليمن فقال إبراهيم بن محرمة يا أمير المؤمنين أن أهل اليمن هم العرب الذي دانت لهم الدنيا ولا يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخراً من أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصباً وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف أقروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما أظن التميمي رضي بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت قال تكلم ولا تهب أحداً قال أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمننا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمورة زمزم والحطيم والمقام والحجابه والبطحاء وما لا يحصى من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والوصي والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اضطلمناه ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال ألك علم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجمجمة قال فما اسم السن قال الميدن قال فما اسم الأذن قال الصنارة قال فما اسم الأصابع قال صئراهم قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالهم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم فإن الله تعالى يقول: " إنا أنزلناه قرآناً عربياً " وقال: " بلسان عربي مبين " وقال تعالى: " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " فتحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجمجمة بالجمجمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والميدن بالميدن وقال تعالى والأذن بالأذن ولم يقل الصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ولم يقل صئراهم في صئراهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لإبراهيم: أني أسألك عن أرفع أن أقررت بهن مهتر وإن جحدتكن كفرت فقال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال والقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال المنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فاليست لنا أو لكم قال لكم فأذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنت إلا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحياهما جميعاً.

وحكي أن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تليفه وأرغب السجن واستماله وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامه عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين وأن أمير

المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وأخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً ولم أجر عدواً لأمر المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ثم طالبه بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلي وأستجار بي فأجرتة وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يجزي في ضيفي فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم فكتب إليه الوليد أنه لا بد أن ترسل إلي يزيد مغلولاً مقيداً فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعاً بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً واجعلي إذا شئت ثالثاً والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة فأطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد يتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما نحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرَكَ وعلمنا ظلم الحجاج ثم أنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم وصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فزار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل انتهى.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى فقال جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب فقال لي أتغسل لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيئة فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها فقالت أنت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله أدخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار وإذا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لَبَنَةٍ وقد شخص بصره وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته فأخذت في غسله وأنا أرتعد فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته وقالت أما إني سألق بك عن قريب فلما أردت الأنصراف شكرت لي وقالت أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت فأرتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحققة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي فإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما:

أحبابنا بنتم عن الار فاشتكت ... لبعدمكم آصألها وضأها
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت ... رسوم مبانيها وفاح كلاها
كأنكم يوم الفراق رحلتهم ... بنومي فعيني لا تصيب كراها
وكت شحيحاً من دموعي بقطرة ... فقد صرت سمحاً بعدكم بدمها
يراني بساماً خليلي يظن بي ... سرورا وأحشائي السقام ملاها

وكم ضحكة في القلب منها حرارة ... يشبُّ لظاها لو كشفتُ غطاها
رعى الله أياماً بطيب حديثكم ... تقصّت وحيّاه الحيا وسقاها
فما قلت إيهاً بعدها لمسامر ... من الناس إلا قال قلبي آها

قيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان فجاء بناقة فنحراها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحراها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا القليل فقال إني لا أطعم ضيفاني الفأنت فبقينا عنده أياماً والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة أعتنري لنا إليه ومضيها فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا فوقنا فلما دنا منا قال خذوا دنائيركم فإني لا آخذ على إكرامي ثمناً وإن لم تأخذوها طعنكم برمي هذا فأخذناها وانصرفنا.

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء وله أخبار في الجود عجيبة من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتته فقلت أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك قال إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لي بعض إخواني أذهب إليه فقلت كان جوابه فيه ضعف قال أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري فالتفت إليّ يزيد وقال إيه يا عقيل فقلت: أفاض القوم في ذكر الجواري ... فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال إنك لا تبقى عزبا فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت وبدره عشرة آلاف درهم وفي الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليالي وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكتب عدوي وأسِرْ صديقي فقال إنما أخيرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أو لم تغني أيها الأمير قال إنما هذا أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو القيثان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً يحلق رأسه فجاءوه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أنني قد استغنيت فقال أعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لي عليه فقال إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه ولم آت مُتدحياً فأذن له فلما أبصره قال:

أبا خالدٍ ضاقتُ خراسانُ بعدكم ... وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرتُ بالشرق بعدك قطرة ... ولا أخضرَ بالمروين بعدك عود
وما لسرورٍ بعد عزك بهجة ... وما لجوادٍ بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع إليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال

الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه فأخذها وانصرف.

ومر يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز اعرابية فذبحت له عنراً فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها إليها فقال هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك قال إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا الكثير وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على أن أحمد بن داود أسخى منهم جميعاً وأفضل.

وسئل اسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد وفي يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولكني عبدٌ ليحيى بن خالد
فقلتُ شراءً قال لا بل وراثَةً ... توارثني عن والدٍ بعد والد

وفي الفضل يقول القائل:

سألت الندى والجود مالي أراكما ... تبدلتما عزّاً بذلٍّ مؤبّد
وما بال ركن الجد أمسى مهذباً ... فقالا أصبنا بآبن يحيى محمد

فقلت فهلاًّ مثمّا بعد موته ... وقد كتتما عبديه في كلّ مشهد
فقالا أقمنا كي نعزّي بفقدته ... مسافة يومٍ ثم نتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه: من كانت له إنيّ حاجة فليرفعها إنيّ في كتاب لأصون وجهه عن المسئلة.

وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال له يا أمير المؤمنين إن لي حاجة إليك يمنعني الحياء أن أذكرها فقال خطها في الأرض فكتب إني فقير فقال يا قنبر أكسه حلتي فقال الأعرابي:

كستوتني حلّة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الشنا حللاً
إيه أبا حسن قد نلت مكرمَةً ... ولست تبغي بما قدّمته بدلاً

إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه ... كالغيث يحيى نداء السهل والجبال

لا ترهد الدهر في عرفٍ بدأت به ... كلُّ أمرىء سوف يجري بالذي فعلاً

فقال يا قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله تعالى عنه صه يا قنبر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وسئل اسحق الموصلي عن المخلوع فقال كان أمره كله عجباً كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً فأراد الرجوع إلى أهله فقال له سفر البر أحب إليك أم سفر البحر قال البحر ألين عليّ فقال أوقروا له زورقه ذهباً وأمر له بألف ألف درهم.

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى بن شهوان إلى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجاني يا

أمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لا أم لك تهجو سعيداً قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت إني أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك فقال لي بورك فيك قال فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال يا جارية هاتي مطرفاً فأتته بمطرف خز فصر لي في زاويته مائتي دينار فخرجت وأنا أقول:

أبا خالد أعني سعيد بن خالد... أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي... أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيد الندى ما علش يرضى به الندى... فإن مات لم يرض الندى بعقيد
ذروه ذروه إنكم قد رقدتموا... وما هو عن إحسانكم برقود
فقال سليمان قل ما شئت، وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:
بُثَّ تَكَرَّهْتَ أَنْ تَعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ... تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
بَثَّ النِّوَالِ وَلَا تَمْنَعُكَ قَلَّتُهُ... فَكُلْ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ
فشاطره ماله حتى بعث إليه وبنصف خاتمه وفرد نعله.

دخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشرا من الأبل ففعل فقال ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة فقال هي لك فقال:
يا طلح أنت أخو الندى وعقيده... إن الندى ما مات طلحة ماتا
إن الندى ألقى إليك رحاله... فبحيث بتّ من المنازل باتا
ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع فلما رآه محمد قال:
ولقد قدمت على رجال طالما... قدم الرجال عليهم فمؤلوا
أخني الزمان عليهم فكأثما... كانوا بأرض أقفرت فتحولوا
فقال أبو الشمقمق:

الجود أفلسهم وأذهب ما لهم... فاليوم إن راموا السماحة ييخلوا
قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة فوقع إلى عامله بإسقاط
الخراج عن محمد ابن عبد السلام تلك السنة وإسقاط ما عليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروءته.

وحكي عن أبي العيناء أنه قال حصلت لي ضيقة شديدة فكنتمتها عن أصدقائي فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضي فقال: أن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك في الحضور قلت نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالآلفة والحبّة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلّهم... وللرجاء حقوق كلّها تجبّ

إن لم يكن لي أسبابٌ أعيش بها ... ففي الغلا لك أخلاقٌ هي السبب
فقال: يا سلامة أنظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين. فقال: بقية من مال. قال: فأدفع له مائة
ألف درهم وابعث له بمثلها في كل شهر، فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أو العينا
حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه، بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء؟ فأنشأ أبو
العينا يقول:

شيان لو بكت الدماء عليهما ... عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب
وقال الأعمش كانت عندي شاة فمرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة
والعشي ويسألني هي استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان
إذا خرج يقول خذ ما تحت البلد حتى وصل إلي من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمت أن
الشاة لم تبرأ.

وحكى أبو قدامة العسيري قال كنا مع يزيد ابن يزيد يوماً فسمع صائحاً يقول يا يزيد بن يزيد فطلبه إليه
فقال ما حملك على هذا الصياح قال فقدت دابتي ونفذت نفقتي وسمعت قول الشاعر:
إذا قيل من للجد والجدى ... فناد بصوت يا يزيد بن يزيد
فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف.

ومن الغرائب ما حكى أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى
رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له هل لك أن تبيعني بعيرك بنجبي وكان الميت قد خلف نجباً
وكان للرائي بعير سمين فقال نعم وباعه في النوم بعيره بنجبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر
إلى البعير فنحره في النوم فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره وقطع لحمه
وطبخه وأكلوه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم
منهم شاب فنادى هل فيكم فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان ابن فلان فقال هل بعث من فلان
الميت شيئاً قال نعم بعته بعيري بنجبه في النوم فقال هذا نجبه فنخذه وأنا ولده وقد رأيت في النوم وهو يقول
إن كنت ولدي فادفع نجبي إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

قيل أن شاعراً قصد خالد بن يزيد فأنشد شعراً يقول فيه:
سألت الندى والجود حران أنتما ... فقالا يقينا إنا لعبيد
فقلت ومن مولا كما فطاولا ... إلي وقال خالد بن يزيد
فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له أن زدتنا زدناك فأنشد يقول:
كريم كريم الأمهات مهذب ... تدفق كفاه الندى وشمائله
هو البحر من أي الجهات أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله
جوادٌ بسيط الكف حتى لو آته ... دعاها لقبض لم تجبه أنامله
فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له أن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

تبرّعت لي بالجوّد حتى نعيشني ... وأعطيتني حتى حسبتك تلعبُ
وأنت ريشا في الجناحين بعدما ... تساقط مني الريش أو كاد يذهب
فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى ... حليف الندى ما للندى عنك مذهب
فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم وقل له إن زدتنا زدناك فقال حسب الأمير ما سمع وحسي ما أخذت
وانصرف.

وجاء إلى خالد بن عبد الله بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو فقال له أني قلت فيك بيتين من
الشعر فقال في مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فأنشد يقول:

يا واحد العرب الذي ... ما في الأنام له نظيرُ
لو كان مثلك آخرٌ ... ما كان في الدنيا فقير
فقال يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.
وحيث ذكرنا نبذة من أخبار الكرماء نبذة من أخبار البخلاء فمن ذلك، أن رجلاً من البخلاء اشترى داراً
وانتقل إليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالث فقال له
مثل ذلك ثم التفت إلى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال في هذا المكان فقالت يا أبت ما دمت متمسكاً بهم بهذه
الكلمة فما تبالي كثروا أم قلوا.

وألأم النام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف وهو القائل في ضيف له يصف أكله من
قصيدة:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت ... وبين أخرى تليها قيد أظهور
وقال فيه أيضاً:

تُجهز كفاً ويحسك حلقة ... إلى الزور ما ضمت عليه الأناملُ
وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر ومد أبو الأسود يده إلى رتبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها
فسقطت منه في التراب فأخذها أبو الأسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها فقال الأعرابي والله ولا لجبريل
وميكائيل لو نزلنا من السماء ما تركتها.

وقال أعرابي لنزيل نزل به نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو أرحل بندم.
وللحمدوني:

رأيت أبا زرارة قال يوماً ... لحاجبه وفي يده الحسامُ
لئن وضع الخوانُ ولاح شخصٌ ... لاخطفن رأسك والسلام
فقال سوى أيك فذاك شيخٌ ... بغيضٍ ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حقّ عليه ... ببيتٍ لم يرد فيه القيام
أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلة إذا حضر الطعام
وقال له ابن لي يا ابن كلبٍ ... على خيزي أصادر أو أضام

إذا حضر الطعام فلا حقوق ... عليّ لوالديّ ولا ذمام
فما في الأرض أقبح من خوانٍ ... عليه الخبز يحضره الزّحام
ويعجبني قول بعضهم:

زففت إلى نبهان من صفو فكري ... عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبلها عشراً وهام بحبّها ... فلما ذكرت المهر طلقها عشرا
ومن أخبار البخلاء ما حكاه بعضهم قال كنت في سفر فضلت في الطريق فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته فإذا
به أعرابية فلما رأني قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلاً ومرحباً بالضيف أنزل على الرحب والسعة
قال فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت فقال من
هذا فقالت ضيف فقال لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت فلما
كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأني قالت من تكون قلت ضيف قالت لا
أهلاً ولا مرحباً بالضيف ما لنا وللضيف فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رأني قال من هذا
قالت ضيف قال مرحباً وأهلاً بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بي بالأمس
فبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها وما سمعت منه ومن زوجته
فقال لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيتها هي أختي وإن بعلمها آخر امرأتي هذه فغلب على كل طبع أهله.
وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له فقلت ما بالكما فقال أحدهما
أن صديقاً لي زارني فاشتبهى رأساً فاشترته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها فجاء
هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس.
وقال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لي لحماً فاشتروه فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في
يده إلا عظمة وعيون أولاده ترمقه فقال ما أعطي أحد منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال
ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً قال لست بصاحبها فقال الأوسط
ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يلدي أحد ألعام هي أم لعامين قال لست بصاحبها فقال الأصغر يا أبت
أمصها ثم أدفها وأسفها سفا قال إنك صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً.

وقيل خرج إعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة فلما كان في بعض الأيام ورد عليه
أعرابي من حيّه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جائعاً فسأل عن أهله وقال ما حال ابني عمير قال ما تحب قد
مألاً الأرض والحي رجالاً ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضاً قال فما حال الدار قال عامرة
بأهلها قال وكلبنا إيقاع قال قد مألاً الأرض نباحاً قال فما حال جملي زريق قال على ما يسرك قال فالنفت
إلى خادمه وقال أرفع الطعام فرفعه ولم يشبع الأعرابي ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد عليّ ما
ذكرت قال سل عما بدا لك قال فما حال كلي إيقاع قال مات قال وما الذي أماته قال اختنق بعظمة من
عظام جملك زريق فمات قال أو مات جملي زريق قال نعم قال وما الذي أماته قال كثرة نقل اللبن إلى قبر أم
عمير قال أو ماتت أم عمير قال نعم قال وما الذي أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أو مات عمير قال

نعم قال وما الذي أماته قال سقطت عليه الدار قال أو سقطت الدار قال نعم قال فقام له بالعصا ضارباً
فولى من بين يديه هارباً.

وقال دعيل كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك يا غلام آتنا غداءنا
فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال لعلامه وأين الرأس فقال
رميته فقال والله إني لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه
يصيح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به وعينه التي يضرب بها المثل فيقال شراب كعين
الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أي لا
أكله ما قلت عنده من يأكله أنظر في أي مكان رميته فأتني به فقال لا أعرف أين رميته فقال لكي أنا
أعرف أين رميته قد رميته في بطنك الله حسبك.

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع
أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الأيام ويدفع الآلام أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال له
أنه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فجلا صدره ووجدته يعصم فلما حضر غداؤه
أمر به فرفع إلى العشاء وقال لامرأته أطبخي لأهل بيتنا النخالة فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر
فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة
وقد علق فيها عوداً بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطاً قال قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نخفطه
احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشان ونحشى أن يشرب الدهن قال بينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية
إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل يا فلان لقد فررت من شيء ووقعت فيما هو
شر منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود لم لا تأخذت مكان هذا
العود ابرة من حديد فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضاً ربما يتعلق به شعرة من قطن
الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراساني أرسلك الله ونفع بك فلقد كتبت في ذلك من المسرفين.

وقال الهيثم بن عدي نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه
قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى له ما احتاج إليه ثم رجع وكتب له:

يا أيها الخارج من بيته ... وهارباً من شلة الخوف

ضيفك قد جاء بزادٍ له ... فارجعْ وكن ضيفاً على الضيف

وكان أبو العتاهية ومروان ابن أبي حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان ما فرحت بشيء أشد مما
فرحت بمائة ألف درهم وهبها إلي المهدي فوزنتها فرجحت درهماً، واشترى لحماً بدرهم فلما وضعه في
القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول هذا
لحم مروان. واجتاز يوماً بأعرابية فأضافته فقال إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً
فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دنانير.

ومن الموصوفين بالبخل آلا مرو يقال أن من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشبكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فإذا استوى جرّ كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق.

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً أصابه القولنج في بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فألحل ما في بطنه في الطست فقال لعلامة اجمع الذي نزل من الحقنة واسرج به.

وكان المنصور شديد البخل جداً مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أغرُّ بين الحاجين نوره ... يزينه حياؤه وخيرُهُ

ومسكه يشوبه كافوره ... إذا تغلّى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله الحمل وقال يا ربيع أعطه نصف درهم فقال نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمر لي بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع: وكُل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة وأخبار البخلاء كثيرة وفيما أوردناه كفاية.

نادرة قيل لأبي الحرث ما تقول في الفالوذجة قال وددت لو أنما وملك الموت اختلجاً في صدري والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن به ولكنه لقيه بعضاً.

ودخل ابن قرعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعوني إلى القوز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك فقال ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدًا وعسلاً وأطيب الثمر كأنه مخ الشحم سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس في الحلقوم ثم مد يده وأكل.

وسمع رجلاً يذم الزبد فقال له ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أم خشونة ملمسه.

وقيل له ما تقول في الباذنجان قال أذئاب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم قيل له أنه يحشى باللحم فيكون طيباً فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح.

وصنع الحجاج وليمة وأحتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستغفاه فأقسم عليه فقال: أولم عبد عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة في يد كل واحدة أبريق من ذهب فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً.

وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمته فقال وإنك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمته لا أكلت لك طعاماً أبداً.

وحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بمجرد كأن أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كأن أمه أَرْضَعَتْكَ.

ودعت أبا الحرث صبية له فحادثته ساعة فجاء فطلب الأكل فقالت له أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل قال جعلت فداك فلو أن جھيلاً وبئينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليّ وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمني قلت عندي جدي كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيته به كانه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذاً قال هلم يا أبا جعفر فقال إني صائم فأكله ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شيء قلت ست دجاجات كأهن أفخاذ نعم، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال يا شمردل: أما عندك شيء. قلت: سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ما هو قال نيف وثلاثون قدرا قال أتناي بقدر قدر فأناه به ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصُفَّ الخوان وأكل مع الناس.

ونزل رجل بصومعة راهب فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر إليه العلس فحملة وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب وأتى بخبز فوجده قد أكل العلس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال إلى الأردن قال لماذا قال بلغني أن بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي فإني قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب إن لي إليك حاجة قال وما هي: قال إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك من ههنا.

يحكى أن زياد أمر بضرب عنق رجل فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة قال وما هي قال إن أبي جارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يا مولاي أي نسيت اسم نفسي فكيف لا أنسى اسم أبي فرد زياد كمة في فمه وضحك وعفا عنه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست فطار الرشاش في وجهه فظفر جعفر إليه نظرة مغضب فقال ي مولاي والكاضمين الغيظ قال كظمت غيظي قال والعافين عن الناس قال عفوت عنك قال والله يجب الحسين قال إذهب فأنت حر لوجه الله الكريم.

وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولهن قال قل فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرة ... عصفور بر ساقه التقدير

فتكلم العصفور تحت جناحه ... والقصر منقض عليه يطير

إني لمثلك لا أتمم لقمة ... ولئن شويت فأنني لحقير

فتهاون الصقر المدل بصيده ... كرماً وألفت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلي سبيله.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمر بأن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد: أيها

الأمير أنشدك الله لا تقتلني فوالله أني لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما هن كاسب غيري فرق هن

واستحضرهن فإذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا ابنته فاسمع يا حجاج مني ما

أقول ثم قالت:

أحجاج إِمّا أنْ تمّن بتركه ... علينا وإمّا أنْ تقتلنا معا

أحجاج لا تفجع به إن قتلته ... ثماناً وعشراً واثنتين وأربعاً

أحجاج لا تترك عليه بناته ... وخالاته يندبهن الدهر أجمعاً

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة.

وحكي أن رجلاً زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء به إلى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع في أن يبذل له الألف دينار وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر وجه الرجل فرأه كاد يموت من الوجل والخجل فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدري لم أتيتك في هذا الوقت قال لا قال جئت لأستهضك حتى تعجل لهذا الرجل اعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيراً في أمره فالتفت إليه الفضل وقال له طب نفساً فقال له سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى.

من اللطائف والغرائب الدالة على الوفاء بالذمم ما حكاه بعض خدم أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم وأذهب مسرعاً لما أقول لك فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف فأمض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخربات فاستتروا في بعض الجدران فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً فأتوني به قال فأخذتهما ومضيتهما حتى أتينا الخربات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسی جديد وإذا بشيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتحب ويقول:

ولما رأيت السيف جندل جعفرأ ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطاها ورددها فلما قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين فزع فزعا شديداً وقال دعوني حتى أوصي وصية فإن لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين، زجره. وقال له: ومن أنت؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها فقال يا أمير المؤمنين: إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم قال قل: قال يا أمير المؤمنين: أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبي الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلثون امرأة وصبي وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بتوبيات لي كت قد أعددتها

لأستمح بها الناس فلبستها وخرجت وتركهم جياً لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن دور البرامكة فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدًا وبين يديه عشرة من ولده وإذا غلام أمرد قد عذر خداه أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم منطلقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهينة الفهر قد قرن بها مثلها من الغنبر السلطاني فوضعه بين يدي الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضي تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالثمار ببنادق المسك والعبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فإذا نحن في المكان ما بيني والمشايخ وولده والغلام مائة واثنى عشر رجلاً فخرج إلينا مائة واثنى عشر خادماً مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوها بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية في يدي وقمت وجعلت ألثفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهب به فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحطني إذ قال للخادم ائني بذلك الرجل فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان في كمي ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال لي ممن الرجل فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائني بولدي موسى فأتي به فقال يا بني هذا رجل غريب فحذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى علي يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام وأقامت عنده يومي وليلي في ألد عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال أن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فأقبضه إليك وأكرمه ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصيبي أي الأموات هم أم في الأحياء فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جمعة من الخدم فقالوا لي قم فأخرج إلى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالي على هذه الحالة أنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الست الأخير قال لي مهما كان لك من الحوايج فارفعها إلي فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به فلما رفع الست رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك وإذا بصيبي وعيالي يتقبلون في الحرير والديباج وحمل إلي ألف ألف درهم وعشر آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقامت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطعوني فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير

المؤمنين الرشيد ما نزل أجحفي عمرو بن مسعدة وألزمي في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به فلما تحامل علي الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خربات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي أشكرهم على إحسانهم فقال المأمون عليّ بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته في ضيعته قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه في مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال: فعلا نحب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لو لم آت خرباتهم وأندبهم حتى أتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين قال إبراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك وإياهم فاشكر ولهم فأوف وإحسانهم فأذكر. نين الرشيد ما نزل أجحفي عمرو بن مسعدة وألزمي في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به فلما تحامل علي الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خربات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي أشكرهم على إحسانهم فقال المأمون عليّ بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته في ضيعته قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه في مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال: فعلا نحب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة إذ لو لم آت خرباتهم وأندبهم حتى أتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين قال إبراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك وإياهم فاشكر ولهم فأوف وإحسانهم فأذكر.

ومن ذلك أنه خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبانات الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها فحككت شمساً عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ... يحول بهذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه وهو يراني

قصة أحمد اليتيم

ومن ذلك ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم قال: أن أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تذهب وتقرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش حمويه به فأخذه إليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه وقال له أنت عندي بمكانة أركانك بها ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل أحد أعرفه أن لا يخونني في شيء فعاheadه ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام والأمير أبو الجيش بن طولون

يحسن إليه فلما رأى أحواله متصفة بالنصح ومسايعه متممة بالنجح ركن إليه واعتمد في أمور بيوته عليه فقال له يوماً يا أحمد أمض إلى الحجرة الفلانية فقي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائني بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هم من الأمير بمحل قريب فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره فقال معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليّ وأخذ العهد عليّ ثم تركها وأخذ السبحة وأنصرف إلى الأمير وسلمها إليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للأمير فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخائنة العاهرة فلما أعرض عنها اشتغلاً بالجارية الجديدة وصرف لبهجة محاسنها وكثرة أداها وجهه عن ملاعبة أترابها وشغلته بعدوية رضاها عن ارتشاف رضاب أضرابها وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره كبر عليها أعراضه عنها ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها وأعلنت بين يديه لتمام كيدها وقالت أن أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الأمير ذلك استشاط غضباً وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأني في فعله واستحضر خادماً يعتمد عليه وقال إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املاً هذا الطبق مسكاً فأقتل ذلك الإنسان وأجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم عن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص وأدناهم مجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن من سره لم يخطر بخاطره شيء فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التذكير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وأمض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املاً هذا الطبق مسكاً فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة الأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وأدخل بها على الأمير فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان معه الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املاً هذا الطبق مسكاً فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال ما هذا قص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من أنفاذ الطبق وإرساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكر قال أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه فقال أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كت رأيت الأعراض عن إعلام الأمير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل وأزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه وجعل أزمّة جميع ما يتعلق به بيديه.

قلت ويقرب من ذلك ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسير أردشير من يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرضَ بذلك فعظم ذلك على أردشير وأقسم بالأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أحيث مثله فسار إليه أردشير في جيشه فقاتله أردشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقد ااعدت لآل فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية وأن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وإنه أسرنى في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر فلما رأته ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك فقال أردشير وددت لو أرى ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه لها فأخذها للتسري وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحيث في يميني بأخذها ثم إنه أوقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوماً وقد رآته منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه وإني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحييت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهياً لك قتلي فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من بين يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضباً وعول على قتلها ثم ذكر للوزير ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها ثم خشي أن يتحدث الملوك عنه بمثل هذا وأنه لا يقبل فيها شفاعاة شافع فقال أيها الملك إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهي أولى في الستر ولا أرى في قتلها أهون ولا أستر عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقاً فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ثم إنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على فعله ثم إن الوزير ناول الملك حقاً مخموراً وقال أيها الملك إنني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم وإن لي أولاداً وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذه إذا متُّ إن رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه يرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء أكتسبته منه إلا هذا الجوهر فقال له الملك يطول الرب في عمرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذها الملك وأودعه عنده في صندوق ثم مضت أشهر فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته فرأى أنه إن اخترع له إسماً وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب وإن هو تركه بلا إسم لم يتهياً له ذلك فسماه شاه بور ومعناه بالفارسية ابن ملك فإن شاه ملك وبور ابن

ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخنة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأزدشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى إني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه بعدي من قضي له به فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك ثم ذكره بأمر بنت ملك الأردن وبحملها فقال الملك لقد نلتم على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكراً فلما شاهد الوزير

من الملك الرضا قال أيها الملك إنما عندي حية وقد ولدت ذكراً من أحسن الغلمان خُلُقاً وخُلُقاً فقال الملك أحق ما تقول فاقسم الوزير أن نعم ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبداً وإني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا أباه وإني أعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وأمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت إليه نفسك وروحانيتك فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذي قلت فأخضرتهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي فيهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذها الهيبة منه فلاحظ أزدشير ذلك منه مراراً فقال أيها الغلام ما أسمك قال شاه بور فقال له صدقت أنت ابني حقاً ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسننها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في الوقت إلى إحضار الحق المختوم فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير وفتح ختمه وفتحه فإذا في ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية لبيلة واحدة قال فدهش الملك أزدشير وبهت لما أبداه هذا الوزير وإثبات نسب الولد وحقه به ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وضح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أزدشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرى منزلته حتى توفاه الله تعالى. الملك الرضا قال أيها الملك إنما عندي حية وقد ولدت ذكراً من أحسن الغلمان خُلُقاً وخُلُقاً فقال الملك أحق ما تقول فاقسم الوزير أن نعم ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبداً وإني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا أباه وإني أعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وأمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فكل من مالت إليه نفسك وروحانيتك فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذي قلت فأخضرتهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي فيهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك

تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذ الهيبة منه فلاحظ أزدشير ذلك منه مراراً فقال أيها الغلام ما أسمعك قال شاه بور فقال له صدقت أنت ابني حقاً ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والدًا بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في الوقت إلى إحضار الحق المختوم فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير وفتح ختمه وفتحه فإذا في ذكر الوزير وأنبياها مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشاهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك أزدشير وبهت لما أبداه هذا الوزير وإثبات نسب الولد وحقه به ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بانه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أزدشير وشاه بور يحفظ مقامه ويرى منزلته حتى توفاه الله تعالى.

قلت ومن بديع ما جاء في المكافأة على الصنيع ما حكى عن الحسن بن سهل قال كنت عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول فنظر يحيى إليه والنفت إلى الفضل ابنه وقال يا بني: إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فأذكرني أحدثك به فلما فرغ من شغله قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبي أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول قال نعم يا بني لما قلم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي من في منزلي إنا قد كنمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتاته قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديداً وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً ثم تذكرت مندبلاً كان عندي فقلت لهم ما حال المندبيل فقالوا هو باق عندنا فقلت أدعوه إلي فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعته إلى أهلي وقلت أنفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكباً فلما رأي سلم علي وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس مندبلاً بسبعة عشر درهما فنظر إلي نصراً شديداً وما أجابني جواباً فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد فقالوا بنس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل فكشفت له سرّك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليم إلا بهذه العين فقلت قد مضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلني صاحب أبي خالد فقال لي أين تكون قد أمرني أبو خالد بأجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رأي دعاني وأمر لي بمركوب فركبت وسرت معه إلى منزله فلما

نزل قال علي بفلان وفلان الخياطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالوا نعم قال ألم أشرط عليكم شركة رجل معكم قالوا بلى قال هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما ثم قال لي قم معهما فلما خرجنا قالوا لي أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء فدخلنا مسجداً فقالوا لي إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبدلان لي فقالوا مائة ألف درهم فقلت لا افعل فما زالوا يزيداني وأنا لأرضى إلى أن قالوا لي ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد قال ذلك لك فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر قالوا نعم قال اذهبا فاقبضاه المال الساعة ثم قال لي أصلح أمرك وتهيأ قد قلدتك العمل فأصلحت شأني وقلدي ما وعدني به فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاءه قال: حق لعمرى وجب عليك له فقال والله يا ولدي ما أجد له مكافأة غير أن أعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المؤمنين قال: دخلت يوماً إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رأيته قال لي يا عباس قلت لييك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الإحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً فمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلاناً قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لي معه قضية فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغني أغناك الله قال لا بأس عليك: أدخل الدار فدخلت فقالت زوجته أدخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل الرجال معه يقولون هو والله عندكم فقال دونك الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا ههنا فصاحت بهم المرأة وهزمتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملي رجلاي من شدة الخوف فقالت المرأة أجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وافرد لي مكاناً في داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقامت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لي

في الخروج حتى أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي الموائيق بالرجوع فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية فقال لي علام تعزم فقلت قد عزمت على التوجه إلى بغداد فقال إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك فقلت له إنك قد تفضلت علي هذه المدة ولك علي عهد الله إني لا أنسى لك هذا الفضل ولا وفينك مهما استطعت قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال لي يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتروء به ولا ما أكرى به مركوباً ثم قمت فإذا هو وامرأته يحلان بقعة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ورفع إلي نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إلي الفرس الذي كان جهزه وقال أركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي يشيعني وأنصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك قال أنا ذلك الرجل وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكته أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذي آل بك إلى ما أرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيلعك فنسبت إلي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن

تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس قلت يصنع الله خيراً ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره والبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم أرسل من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى نائبه وقال: علي بالفرس الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشر من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار فقلت له إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلي كل من على بابه فأرادوا قتلي فقال لي أنج بنفسك ودعني أدبر أمري فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري وحضرت فقال لصاحب الشرطة إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قنلت فقد وقيته بنفسي كما

وقاني بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجهد في إخراجه من بغداد وقال الرجل فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهاز له كفنًا قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس عليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني فقال لله علي عهدٌ لن ذكرت أنه هرب لأضربن عحك فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري فقال قل فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أوفي له وأكافئه على ما فعله معي وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين أما أن يصفح عني فأكون قد وافيت وكافأت وأما أن يقتلني فاقبه بنفسي وقد تحنطت وها كفتي يا أمير المؤمنين فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً ألما فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير، هلا عرفني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منة أعظم من الأولى أذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه واثني به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأثيت إليه وقلت له ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه منه وحدته حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بالآلما وعشرة بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة ممالك بدواهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجها وأمره بمكاتبتهم بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم. عل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس قلت يصنع الله خيراً ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره والبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم أرسل من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى نائبه وقال: علي بالفرس الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشر من الصناديق ومن الكسوة كذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار فقلت له إن ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي فقال لي أنج بنفسك ودعني أدبر أمري فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري وحضرت فقال لصاحب الشرطة إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيت به بنفسي كما وقاني بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجهد في إخراجه من بغداد وقال الرجل فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهاز له كفنًا قال العباس: فلم أفرغ من

صلاة الصبح إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال:
فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس عليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك
أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني فقال لله علي عهدٌ لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عقتك فقلت لا
والله يا أمير المؤمنين ما هرب ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري فقال قل
فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن
أوفي له وأكافئه على ما فعله معي وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين أما أن يصفح عني
فأكون قد وافيت وكافأت وأما أن يقتلني فاقيه بنفسه وقد تحطت وها كفتي يا أمير المؤمنين فلما سمع
المأمون الحديث قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً أنها فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد
المعرفة والعهد بهذا لا غير، هلا عرفني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين
إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون وهذه منةٌ
أعظم من الأولى أذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه واثني به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيته
إليه وقلت له ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء
والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه منه
وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستغنى فأمر له المأمون بعشرة
أفراس بسروجها ولجمها وعشرة بغال بالآلها وعشرة بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة ممالك بدواهم
وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجها وأمره بمكاتبتهم بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى
المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى أن سواراً صاحب
رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام
فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع ثم دعوت جارية كت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي
فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم فنهضت وأمرت ببلغة لي فأسرجت فركبتها فلما خرجت من المنزل
استقبلني وكيل لي ومعه مال فقلت ما هذا فقال ألفا درهم جيبته من مستغلك الجديد قلت أمسكها معك
واتبعني وأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ثم
رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم. فعطشت فقلت للخادم
أعندك ماء تسقيني قال نعم ثم دخل وأحضر قلعة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني فشربت وحضر
وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ما
تريد يا هذا: قال إياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة
فظننت أنك من أهل النعيم فاردت أن أحدثك بشيء فقلت قل قال ألا ترى إلى باب هذا القصر قلت نعم
قال هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت
فقدمت هذه المدينة فأتيته صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي

فقلت ومن أبوك قال فلان ابن فلان فتعرفته فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ فقلت له يا هذا إن الله تعالى قد أتكأ بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له إذا كان الغد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذه فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لي فأعجبه ذلك وأمر لي بألف دينار فأحضرت فقال ادفعها إلى الأعمى فنهضت لأقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفاً وقال يقول لك أمير المؤمنين أقض بما دينك قال: فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ علي الأعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك فقلت يقضي دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضاً وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى قال فقبضتها وأنصرفت فجاءني الأعمى فدفعني إليه الألفي دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك وكافأني على أسداء المعروف إليك ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن ذلك ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمه الله تعالى عليه قال دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي أتعرف قائل هذا البيت:
الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زدا

فقلت يا أمير المؤمنين إن هذا البيت شأننا مع عبيد بن الأبرص فقال عليّ بعبيد فلما حضر بين يديه قال له أخبرني عن قضية هذا البيت فقال يا أمير المؤمنين كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم تقدم ترَ ما بالناس فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع أسود فأغر فاه كالجدع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرجاء البعير فهالني أمره وبقيت لا أهتمدي إلى ما أصنع في أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدي هذا العالم بنفسي وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قرية من الماء تقلدتها وسللت سيفي وتقدمت فلما رأي قرية قربت منه سكن وبقيت متوقفاً منه وثبة يبتلعني فيها فلما رأى القرية فتح فاه فجعلت فم القرية في فيه وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القرية تسبب في الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وإنصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أرَ أحداً ولم أهتمد إلى ما أفعله وأخذتني حيرة وجعلت أضطرب فإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضلّ مركبه ... ما عنده من ذي رشادٍ يصحُّبه
دونك هذا البكر ممّا تركبه ... وبكرك الميمون حقاً تجنّبه

حتى إذا ما الليل غاب غيبه ... عند الصباح في الفلا تسيبه
فظرت فإذا أنا بـبكر قائم عندي وبكري إلى جانبي فأنخته وركبته وجنت بكري فلما سرت قدر عشرة
أميال لاحت لي القافلة وانفجر الفجر ووقفت البكر فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى بكري وقلت:
يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضلُّ المدلج الهادي
الا تخبرني بالله خالقنا ... من الذي جاء بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد أبلغتنا منناً ... بوركك من ذي سنمٍ رائحٍ غادي
فالتفت البكر إلي وهو يقول:
أنا الشجاع الذي ألفتني رمضاً ... والله يكشف ضرَّ الحائر الصادي
فجدت بالماء لما ضنَّ حامله ... تكررماً منك لم تمنن يانكاد
فالخير أبقي وإن طال الزمان به ... والشرُّ أخبثُ من أوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا أمنُّ به ... فإذهب حميداً رعاك الخالق الهادي
فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والآيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع.

موعظة حكى أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي وكان شيخاً لكل من بالعراق وكان
يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج في
بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال
الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء
نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساوسة ورهبان وهم يعبدون
الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية وإذا نحن بجوارٍ يستقي
الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها وفي عنقها قلاند الذهب فلما رآها
الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فليل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال الشيخ فلم لا يدلِّلها أبوها
ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له أبوها يفعل ذلك بما حتى إذا تزوجها رجل أكرمه ولا تعجبها
نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم أحداً غير أنه يؤدي
الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي فتقدمت إليه وقلت له يا سيدي أن
أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً قال فأقبل علينا وقال يا
قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتموها بالأمس قد شغفت بها حباً واشتغل قلبي بها وما بقيت أقدر أفارق هذه
الأرض قال الشبلي فقلت له يا سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق وعدد
مريدك اثنا عشر ألفاً فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم ووقعت
في بحار العدم وقد انحلت مني عرى الولاية وطويت أعلام الهداية ثم إنه بكى بكاء شديداً وقال يا قوم
انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسالنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا وبكى حتى
أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد فخرج الناس إلى لقائه ومريدوه في جملة الناس فلم يروه

فسألونا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وجعل الناس يكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وأغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقليل لنا إنه في البرية يرعى الخنازير قلنا وما السبب في ذلك قالوا إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجه إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو في البرية يرعى الخنازير قال الشبلي فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير فلما رأنا نكس رأسه وإذ عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام في الخطبة فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا يا شيخ ما ذاك وما هذه الكروب والمهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم فقال يا إخواني ليس لي من الأمر شيء سيدي تصرف في كيف شاء وحيث أراد أبعديني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه إلى السماء وقال يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ثم جعل يستغيث ويكي ونادى يا شبلي اعط بغيرك فنادى الشبلي بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان أكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دوت منها الجبال قال الشبلي فظننت أن القيامة قد قامت ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً قال الشبلي فقلنا له هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد فقال كيف لي بذلك وقد استرعت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئاً فقال نسيت كلاً إلا آيتين فقلت وما هما قال قوله تعالى: "ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء" والثانية قوله تعالى: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سوء السبيل" فقلت يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل تحفظ منها شيئاً قال حديثاً واحداً وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلي فتركانه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا به أمامنا قد تطهر من نمر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد إسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر إلينا وقال يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً فأعطيناه ثوباً فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك فصفف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلت له بالله نسألك هل كان لحتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فنوديت في سري ليس هذا منك ولو شئت عرفتك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان قال الشبلي ففرحنا به فرحاً شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل إليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه وأربعون ألفاً وأقام على ذلك زمناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما

نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية فظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذي تريد فقال قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما أدخلت عليه بكت بكاء شديداً فقال لها الشيخ كيف مجيئك ومن أوصلك إلى هنا قالت يا سيدي: لما وليت من قريتنا جاعني من أخبرني بك فبت ولم يأخذني قرار فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول إن أحببت أن تكون من المؤمنات فأتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعي ذلك الشيخ وادخلي في دينه فقلت وما دينه قال دين الإسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقلت كيف لي بالوصول إليه قال أغمضي عينيك وأعطيني يديك ففعلت فمشى قليلاً ثم قال افتحي عينيك ففتحتهما فإذا أنا بشاطيء دجلة فقال أمضي إلى تلك الزاوية واقربي الشيخ مني السلام وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدني ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقلت قولوا للشيخ يدخل علي قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رآته بكت فقال لها لا تبكي فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلي فرأيت في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الدين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا. وسلم فهل تحفظ منها شيئاً قال حديثاً واحداً وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه قال الشبلي فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا به أمامنا قد تطهر من نمر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد إسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر إلينا وقال يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً فأعطيناه ثوباً فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك فصاف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك فقال يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلت له بالله نسألك هل كان لختك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي وأنا مؤمن موحد فنوديت في سري ليس هذا منك ولو شئت عرفتك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان قال الشبلي ففرحنا به فرحاً شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا والرباطات والخواتق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل إليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه وأربعون ألفاً وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذي تريد فقال قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما أدخلت عليه بكت بكاء شديداً فقال لها الشيخ كيف مجيئك ومن أوصلك إلى هنا قالت يا سيدي: لما وليت من قريتنا جاعني من أخبرني بك فبت ولم يأخذني قرار فرأيت في منامي شخصاً

وهو يقول إن أحببت أن تكون من المؤمنات فأتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعي ذلك الشيخ وادخلي في دينه فقلت وما دينه قال دين الإسلام قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقلت كيف لي بالوصول إليه قال أغمضي عينيك وأعطيني يدك ففعلت فمشى قليلاً ثم قال افتحي عينيك ففتحتهما فإذا أنا بشاطئ دجلة فقال أمضي إلى تلك الزاوية واقريءي الشيخ مني السلام وقولي له إن أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدني ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونهما فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل علي قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رآته بكت فقال لها لا تبكي فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلي فرأيتني في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً.

فليتأمل العاقل في ذلك ولا يُرى له فضلاً على أحد من خلق الله تعالى فهو الفاعل المختار يعطي من يشاء ويمنع فالكل منه وإليه.

موعظة قبل عشاء ورشان في شجرة في دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مراراً وكلما خرج الورشان أخذ أفراخه فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه الصلاة والسلام وقال يا رسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي فأخذها الرجل بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان للشيطانين إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاها نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة أعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ثم سعد وأخذ الأفراخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال للشيطانين ألم تفعلما ما أمرتكما به فقالا اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين.

وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما ينتفع به فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج إبرة وخيطاً فرقع بهما ثوب السائل.

وحكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج إليه وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعي إليه هذه الدجاجة فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة ورجعت إليه وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول فقال لها أنا والله ذلك السائل.

ومما وقعت عليه ما حكي أن بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها

جرو ذئب فقالت أتدري ما هذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربناه فلما
كبر فعل بشاقي ما ترى وأنشدت:

بقرت شويهي وفجعت قلبي ... وأنت لشاتنا إبن ربيب

غذيت بلرّها ونشأت معها ... فمن أنباك أن أبك ذيب

إذا كان الطباع طباع سوء ... فلا أدب يفيد ولا أديب

قيل مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقيل ما هذا قيل السلطان يقطع سارقاً فقال لا إله إلا الله سارق
العلانية يقطع سارق السر.

ومن ذلك ما حكى أنا رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على
حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه أن لم أحتل على هذا
البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به إلى منزله فطبخ له
طعاماً وأكثر فيه من الثوم فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال
يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي
على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين كتب كتاباً إلى
بعض عماله يقول له فيه إذا وصل إليك كتابي هذا فأضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع الكتاب إليه
وقال له أمض به إلى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به
من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان فقال
الوزير هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب
الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال له أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما أردت أفعل فقال
أعطني الكتاب فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده فلما قرأ
العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فأخبر بأن له
أياماً ما ظهر وأن البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر فسأله عن حاله
فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له أنت قلت للناس عني إني أبخر فقال يا
أمير المؤمنين أنا أتحدث بما ليس لي به علم إنما كان ذلك مكرّاً منه وحسداً وأعلمه كيف دخل به إلى بيته
وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما عد له بدأ بصاحبه فقتله ثم اتخذ
البدوي وزيراً وراح الوزير بحسده انتهى.

وحكي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه لما مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه بعض بني
هاشم ليعوده فلما استأذن عليه قام وجلس وأظهر القوة والتجلد وأذن للهاشمي فدخل عليه ثم قال متمثلاً
بقول أبي ذؤيب الهذلي من قصيدة رثى بها أولاداً له ماتوا بالطاعون:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أنني لرب الدهر لا أتضعع

فأجابه على الفور من القصيدة المذكورة بعينها:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفت كل تيممة لا تنفع
ومما يشاكل ذلك ما حكاه لي سيدي ومولاي عمدة العلماء الأعلام ونتيجة قضايا الأدباء الفخام الشيخ
عبد الغني أفندي الرافعي حفظه الله تعالى أنه حكى له عبد الله أفندي ابن قاضي الموصل أن بعض علماء
بغداد وفد على دار الخليفة العلية في أيام السلطان سليم بن السلطان عثمان خان ونزل في دار صاحب
المشيخة العظمى إذ ذاك فاتفق له أن رأى السلطان سليمان في القائق بين أسكي دار واسلامبول فمر قائق
الشيخ بالقرب من قائق السلطان فلما وقع عليه نظر الملك ورأى سيما أهل العلم أحب أن يداعبه فقال
عندما ناداه:

فيم أقتحمك لج البحر تركبه ... وأنت يكفيك منه مصّة الوشل
فأجابه على الفور من القصيدة:

أريد بسطة كفّ أستعين بها ... على قضاء حقوق للملا قبلي
فعند ذلك سأله عن مكانه فأخبر أنه نزيل شيخ الإسلام ثم مر كل منهما بقائقه وبعد أيام اجتمع السلطان
سليم بشيخ الإسلام وسأله عن الشيخ فذكر له صفته ثم أمره أن يسأله عن مراده فسأله من غير أن يعلمه
أن ذلك عن أمر الملك فقال بغيتي القرية الفلانية في محل كذا وكذا إن قطعنيها كفتني ولا أريد سواها فأخبر
الملك بذلك فأقطعه القرية وعاد وقد رجحت تجارته ببضاعة أدبه.
ومن هذا القبيل ما وقع ما وقع في عصرنا لعوض ييك الأسعد رحمه الله تعالى أنه حين بدا تغير إبراهيم باشا
سر عسكر الدولة المصرية على بكوات عكا وكان جالسا على دكان في سوق العقادين من طرابلس الشام
وكان أحد أمراء الآلايات جالسا على دكان يقابله فكتب له أمير الآلاي يهدده ضمنا بقول عنترة من
قصيدة وأرسل يقول له أنظر خطي وهو:

ليَ النفوس وللطير اللحوم ولل ... وحش العظام وللخيالة السلبُ
فأجابه بقوله من القصيدة بعينها وأرسل يقول له أنظر خط من أحسن:
إن كنت تعلم يا نعمان أن يدي ... قصيرة عنك فالأحوال تنقلب
وكتب العلامة زين الدين بن الوردي إلى قاضي القضاة الكمال البازري وقد كان عزله من منصب القضاء
وولى أخاه:

حملتني وأخي تباريح البلا ... وتركتنا ضدّين مختلفين
أيا حيّ عالم عصرنا وزماننا ... ألك التصرف في دم الأخوين
فأجابه بقوله:

يا عمرُ أنزجرُ عن مثل هذا ... فأحمدُ بالولاية مطمئن
فإن يك فيك معرفة وعدلٌ ... فأحمدُ فيه معرفة ووزن
قال صاحب التاليد والطريف وأذكر لك هنا حكاية لطيفة فيها لفظ أمرع من كلام الخصيب أبي محمد
أغرب فيه وأبدع كت أقرأ عليه زمن الحداثة فذكر له أنني أزن الشعر فأخبرني بكلام هذا نصه أدام الله

عزك أن يبني وبينك ما شددت عليه من بعد ذلك راحتي وبحق ذا كم علينا فأعلموا من ود أمرع والحمد لله
وقال لي أخرج من هذا الكلام بيتين تامين فقلت له هذا الشعر من بحر الوافر وآخر البيت الأول حرف
العين من بعد وآخره أمرع فقال أحسنت انتهى.

وذكر ابن خلكان في تاريخه أنه كان بين الملك العادل نور الدين وبين أبي الحسن سنان صاحب قلاع
الأسماعيلية ومقدم الفرق الباطنية مكاتبات ومحاورات فكتب إليه نور الدين كتابا يهدده فيه ويتوعده بسبب
اقتضى ذلك فشق على سنان فكتب جوابه نشرًا وأبياتًا منها:

يا ذا الذي بقراع السيف هددني ... لا قام مصرعٌ جنبي حين تصرعهُ

قام الحمام إلى البازي يهدده ... وأستيقظت لأسود البرّ أضبعه

وقفنا على تفصيله وجملة وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله فيا لله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل
وبعوضة تعض في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمنا عليهم وما كان لهم ناصرون وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وهي عجيبة طويلة غريبة.

قال صاحب التالذ والطريف أنشدت بعض الإخوان الظرفاء بيتي ذي القرنين ابن حمدان الحمداني وهما:

إني لأحسد لا في أسطر الصحف ... إذا رأيت اعتناق اللام للألف

وما أظنهما طال اعتناقهما ... إلا لما لقيتا من شلّة الشغف

فلما سمعتهما قال وقد وقع لي في هذين البيتين حكاية لطيفة غريبة ظريفة وهي أنني كنت أحب غلاماً لطيفاً
أديباً ظريفاً فكتبت له صورة لام ألف لا وقصدت بها ما قاله الشاعر في البيتين فكتب لي ١ مفترقين هكذا
وقصد أذيتي بها وأرسلها إلي كأنه يقول لا أملكك من عناقي أبداً فكتبت له لفظ لام هكذا وأردت مقلوب
ذلك فكتب لا متصلة هكذا وأرسلها إليّ فعلمت بذلك رضاه وتعجبت من فهمه وحذقه فلما اجتمعنا عتب
عليّ وقال عميت الأمر عليّ وأعتبتني قلت مثلك يصلح للمنادمة والمجالسة.

قلت وهذه الحكاية تشبه أن تكون عن أبي زيد السروجي أو من باب التجريد.

قلت مثل هذين البيتين المتقدمين قول القائل:

يا من إذا قرأ الإنجيل ظلّ به ... قلب الحريف عن الإسلام منحرفاً

إني رأيتك في نومي تعاقني ... كما تعاق لأم الكاتب الألفا

وقولي من قصيدة:

إن تنأ عمّن يعاني فيك كلّ عنا ... فحسبه صوب دمع للنوى وكفا

بالحب صيرت لأمّاً قامتي أترى ... يوماً تعاق من أعطافك الألفا

وما أرق قول بعضهم في المعنى:

حكّت قامتي لأمّاً وقامة منيتي ... حكّت ألفاً للوصل قلت مسائلًا

إذا اجتمعت لامي مع الألف التي ... حكّك قواماً ما يصير فقال لا

وذكر ابن خلكان في تاريخه أنه اجتمع الإمام أبو بكر محمد ابن الإمام داود الظاهري وأبو العباس بن شريح

في مجلس الوزير الجراح فتناظرا فقال له ابن شريح أنت الذي تقول من كثرت لحظاته دامت حسراته أنا

أبصر منك بالكلام فقال له أبو بكر لئن قلت ذلك فإني أقول:
أنزّه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال الحرماً
وأحمل من ثقل الهوى ما لوأنّه ... يصب على الصخر الأصمّ ههّما

وينطق طرفي عن مترجم خاطري ... فلولا اختلاسي ردّه لتكلّما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلّهم ... فما أن أرى حبّاً صحيحاً مسلّماً
فقال له ابن شريح ولم تفتخر عليّ ولو شئت أنا أيضاً لقلت:
ومسامر بالغنج من لحظاته ... قد بتّ أمنعه لذيد سنّاته
ضناً بحسن حديثه وغنائه ... وأكرّر اللحظات في وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ... ولّى بخاتم ربّه وبراته
فقال أبو بكر يحفظ الوزير عليه ذلك حتى يقيم شاهدي عدل أنه ولي بخاتم ربه فقال أبو العباس بن شريح
يلزمني من ذلك ما يلزمك في قولك:

أنزّه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال الحرماً
فضحك الوزير وقال جمعتما لطفاً وظرفاً وفهماً وعلماً.
ويذكر أبو بكر الخطيب أنه كان في مدينة بغداد محلة تسمى باب الطاق كان بها سوق الطير يزعمون أنه من
عسر عليه أمر أطلق طيراً فتيسر أمره فمر عبد الله بن طاهر وقد طال مكثه في بغداد ولم يأذن له الخليفة
بالذهاب فمر بذلك السوق فرأى قمرية تتوح فأمر بشرائها فامتنع صاحبها فدفع له بها خمسمائة درهم
فاشتراها وأطلقها في ذلك السوق وأنشد يقول:

ناحت مطوّقةً بباب الطاق ... فجرت سوابق دمعي المهرق
كانت تغرّد بالأراك وربّما ... كانت تغرّد في فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق فأصبحت ... بعد الأراك تتوح في الأسواق
فجعت بأفراخ فأسبل دمعتها ... إنّ اللموع تبوح بالأشواق
تعيّس الفراق وبتّ جبل متينه ... وسقاه من سمّ الأسود ساق
ماذا أراد بقصده قمريةً ... لم تدر ما بغداد في الآفاق
بي مثل ما بك يا حمامة فأسألي ... من فكّ أسرك أن يحلّ وثاقي
قليل أنه في ثاني يوم أطلق ورجع إلى بلاده.

وحكي عن خالد الكاتب أنه قال جاءني يوماً رسول إبراهيم فسرت إليه فوجدته على فرش قد غاص فيها
فاستجلي وقال أنشدني من أجود شعرك فأنشدته:

رأت عينيّ منه منظرين كما رأت ... من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشية حيّاني بوردٍ كأنّه ... خدودٌ أضيقت بعضهن إلى بعض
ونازعني كأساً كأنّ حبابها ... دموعيّ لما صدّ عن مقلتي غمضي

وراح فكلُّ الرّاح في حرّكاته ... كفعل نسيم الريح في الغصن الغصّ
فرحف حتى صار في ثلثي الفراش وقال يا فتى شبهوا بالورد وأنت شبهت الورد بالحدود فردني
فأنشدته:

عائيت نفسي في هواك فلم أجدها تقبل ... وأطعت داعيها إليك ولم أطمع من يعزلُ
لا والذي جعل الوجوه بحسن وجهك تمثل ... لا قلت إنّ الصبر عنك من الصباة أجمل
فرحف حتى انحدر من الفراش واستخف طرباً ثم قال لخادمه كم معك لنفقتنا قال ثمانمائة وخمسون درهماً
فقال له أقسمها بيني وبين خالد فدفع لي نصفها وانصرفت.

لطيفة جاز بعض اللطفاء على باب دار فعزمه شيخها وأدخله عنده وأجلسه في المكان منفرداً ثم استدعى
بجارتين أحدهما صفراء والأخرى سوداء ودفع لكل واحدة مزهراً وقال لهما اضربا له عليهما وغنيا
وشاغلاه ثم ذهب الشيخ وبقي الضيف والجارتان فلما اشتد به الجوع ومضى النهار ولم ير للطعام رائحة
كتب في مكان الشيخ هذين البيتين:

دعوةٌ كانت علينا دعوةٌ ... عزّاً الطعام بها وغيض الماء
سودا وصفرا كلّما غنّين لي ... لعبت بي السوداء والصفراء
يحكى أن شهاب الدين الخفاجي المصري شرب الدخان هو وجماعة فاعترض عليهم شيخي زادة فكتب له
الشهاب بقوله:

إذا شرب الدخان فلا تلمنا ... وجُدْ بالعفو يا روض الأمان
تريد مهذباً لا عيب فيه ... وهل عودٌ يفوح بلا دخان
فأجابه شيخي أفندي بقوله:

إذا شرب الدخان فلا تلمني ... على لومي لأبناء الزمان
أريد مهذباً من غير ذنب ... كريح المسك فاح بلا دخان

وحكي عن شرف الدين بن الشريحي أنه اجتمع هو وشهاب الدين في ليلة أنس عند الملك الناصر فاتفق أن
قام شرف الدين إلى الطهارة وعاد فأمره الناصر بالإشارة أن يصفع شهاب الدين فلما صفعه أمسك
التلعفري بذقن شرف الدين وأنشد سريعاً وذقنه بيده:
قد صفعنا هذا الخلل الشريف ... وهو إن كان يرتضي تشريفي
فارث للبعد من مصيف طباع ... يا ربيع الندى وإلا خريفي
فانقلب المجلس ضحكاً.

وروي أن ابن القطان الشاعر البغدادي دخل يوماً على الوزير الرضى وعنده الحيص يبص الشاعر المشهور
فقال ابن القطان قد نظمت بيتين لا يمكن أن يعمل لهما ثالث لأنني قد استوفيت المعنى فيهما فقال له الوزير
ما هما فأنشده:

زار الخيال بجيلاً مثل مرسله ... فما شفايني منه الضمّ والقبلُ

ما زارني قطُّ إلا كي يوافقني ... على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير للحيص يص:

وما درى أن نومي حيلةً نصبت ... لطيفه حين أعيأ اليقظة الحيلُ

ومما يشاكل ذلك ما اتفق للوزير القوصي وقد أنشد ابن المِرْصَص بيتين بين يديه نظمها في جارية حسناء

كاملة المعاني والأوصاف وزعم أنه لا ثالث لهما وهما:

تبدَّت فهذا البدر منكسفٌ بها ... وحَقَّك مثلي في دجى الليل حائرُ

وماست فشَقَّ الغصن غيظاً ثيابه ... أَلست ترى أوراقه تتناثر

فأطرق الوزير يسيرا وقال:

وفاحت فألقى العود في النار نفسه ... كذا نقلت عنه الحديثُ الجامرُ

وقالت فعار الدرُّ واصفر لونه ... كذلك ما زالت تغار الضرائر

وكان في المجلس النواحي الشاعر فأنشد ارتجالاً:

وغتَّ فظل الجنك يطرق نفسه ... وجادت لها بالروح منها المرامرُ

ومن لحظها الهنديُّ في غمده اختفى ... وظي الفلا في لفتةٍ وهو نافر

ومن وجنتيها الورد راح بحجلةٍ ... أَلست تراه أحمرّاً وهو فاتر

ومن ريقها الصهبأ شكت نار شوقها ... فاطفأها بالماء ساقٍ مسامر

ذكر ابن شاکر الکتبی فی تاریخہ فی ترجمہ شمس الدین بن عقیف الدین التلمسانی أن جماعة من أهل الأدب

اجتمعوا وعملوا سماعاً وفيهم غلمان حسان فبعثوا منهم غلاماً مليحاً إلى الشيخ عقیف الدین يطلبون شمس

الدین للحضور فلما جاء الرسول كتب عقیف الدین علی یدہ:

أرسلتما لي رسولاً في رسالته ... حلوا المراسف والأعطاف والهياف

وقد تمادى يسيراً ذاك أنكما ... أوقدتما النار في أحشاء ذي دنف

فلما حضر والده شمس الدین وأخبره بالقضية كتب إلى ولده:

مولاي كيف انثنى عنك الرسول ولم ... تكن لوردة خدَّيه بمقتطف

جاءتك من بحر ذاك الحسن لؤلؤة ... فكيف ردَّت بلا ثقبٍ إلى الصدف

ومما نقلته من التاريخ المذكور أن عليّة بنت المهدي العباسية أخت أمير المؤمنين هارون الرشيد كانت من

أحسن خلق الله وجهها وأظرف النساء وأعقلهنّ ذات صيانة وأدب بارع تزوجها موسى بن عيسى العباسي

وكان الرشيد يبالي في إكرامها واحترامها ولها ديوان شعر عاشت خمسين سنة وتوفيت سنة عشر ومائتين

وكان سبب موتها أن المأمون سلم عليها وضمها إلى صدره وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى فشرقت من

ذلك وماتت بعد أيام يسيرة وكانت تتغزل بشعرها في خادمين اسم الواحد طل والآخر رشاء فمن قولها في

طل وصحفت اسمه:

أيا سروة البستان طال تشوّقي ... فهل إلى ظلّ لديك سبيلُ

متى يلتقي من ليس يُقضى خروجه ... وليس لمن يهوى إليه وصول

فبلغ الرشيد ذلك فحلف أنها لا تذكره أبدا ثم تسمّع عليها الرشيد يوما فوجدها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة حتى بلغت قوله تعالى فإن لم يصيبها وابل فقلت فإن لم يصيبها وابل فالذي نهي عنه أمير المؤمنين فدخل الرشيد وقبل رأسها وقال لها قد وهبتك طلا ولا منعك بعد هذا عما تريدن وكانت من أعف الناس كانت إذا طهرت لازمت المخراب وإن لم تكن طاهرة غنت ولما خرج الرشيد إلى الري أخذها معه فلما وصل إلى المرج نظمت قولها:

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحبّ

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشق يستسقي برائحة الركب

ونمت بعما فلما سمع الرشيد الصوت علم أنها قد اشتاقت إلى العراق واهلها وأمر برادها وأما شعرها:

إني كثرت عليه في زيارته ... فملّ والشيء مملول إذا كثرا

ورابني منه أني لا أزال أرى ... في طرفه قصراً عتي إذا نظرا

انتهى.

لطيفة يحكى أن عبد الملك بن مروان جمع بن أبي ربيعة وكثيرة عزة وجهيل بثينة وأحضر لديه ناقة موقرة

ودعاهم وقال ينشد كل واحد منكم بيتاً في الغزل فأيكم كان أبدع فهي له بما عليها فقال جميل:

ولو أن راقى الموت يرقى جنازي ... بمنطقها في العالمين حييتُ

وقال كثير:

وسعى إليّ بعب عزة نسوة ... جعل الإله خدودهنّ نعالها

وقال عمر بن أبي ربيعة:

فليت الشريا في المنام ضجيعتي ... لدى الجنة الخضراء أو في جهنّم

فقال له عبد الملك خذها يا صاحب جهنم والشريا هي بنت علي بن عبد الله الأموية تزوجها سهل بن عبد

الرحمن بن عوف الزهري فقال فيه عمر:

أيّها المنكحُ الثريا سهيلاً ... عمرُك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلّت ... وسهيل إذا استقلّ يمان

وكان يتشبه بذكرها كثيراً.

حكى أنها واعدته يوماً فجاءت في الوقت الذي وعدته به فصادفت أخاه الحرث قد نام مكانه فلم يشعر

الحرث إلا والشريا قد ألفت نفسها عليه فانتبه وجعل يقول أغربي عني فلست بالفاسق أخزأ كما الله

فانصرفت فلما جاء عمر أخبره الحرث بذلك فاغتم لقواتها وقال له أيم الله لا تمسك أبداً وقد ألفت نفسها

عليك فقال له الحرث عليك وعليها لعنة الله. ومات عمر بعد أن تاب وأحسن التوبة وقد علش ثمانين سنة

ويقال إنه تغزل أربعين سنة وتنسك أربعين سنة رحمه الله تعالى.

روي أنه عرضت جارية على الرشيد ليشتريها فطلب بها البائع مبلغاً جليلاً فقال الرشيد أنا أعرض عليها

بيتاً إن أجابت عنه أعطيتك ما تقول وزدتك والنفث إليها وقال:

ماذا تقولين فيمن شفعه ارق ... من أجل حبك حتى صار حيرانا
فقلت بديها:

إذا رأينا محباً قد أضرب به ... أمر الصباية أوليناه إحسانا
فأعجبه جواها واشتراها.

ومن اللطائف ما حكى عن الشيخ يحيى المسالحي أنه لما قدم إلى دمشق الشام، وقرأ في الجامع الأموي، نظر إلى غلام بديع الجمال فوق حبه في قلبه فافتتن به فسأل عنه فأخبر عن أبيه وكان ممن يتردد إلى الشيخ فاجتمع معه وقال له لم لا تحضر ولدك يتعلم عندي العلم قال له أنه يحضر علم الحساب عند بعض المشايخ فقال أنا أقرأ قبل شيخه فإذا حضر عندي يكون محصلاً للفضيلتين فأجابه لذلك وأمر ابنه بما ذكر فتوجه الغلام عند الشيخ يحيى فأجلسه بجانبه وأطال القراءة في ذلك اليوم أكثر من الأيام الماضية فلما انقضى الدرس وأراد الغلام الإنصراف لقراءة علم الحساب دفع له الشيخ يحيى رقعة وقال أدفعها إلى شيخك فلما حضر قال له ما أبطأك عن الحضور فأخبره بالقصة ودفع له الورقة فإذا فيها:

يا جاعلاً علم الحساب وسيلة ... تصطاد فيه فاتن الألباب

إن كنت في علم الحساب رزقته ... فالله يرزقنا بغير حساب

فكتب له على ظهر الرقعة وأمره أن لا يحضر عنده بعدها فأخذ الغلام الرقعة ودفعها للشيخ يحيى فإذا فيها:
لهوت به ظيباً غريباً مهفهفاً ... ومذ صار تيساً بعته للمسالحي

ومما نقلته أن أحد أمراء العرب كان عنده جماعة من أجلاء العرب فقام صاحب المنزل إلى الطهارة وعاد وهو قابض بيده على شيء من تحت ثوبه كهيئة المستريء من البول ودخل على الجماعة وهو على تلك الصفة قال من يأخذ الذي بيدي إلى زوجته فأطرق القوم خجلاً فقام رجل منهم وقال زوجتي أولى به يا أمير العرب فأطلق الأمير يديه وقال هو لك خذه وإذا بعقد مجوهر في يده فبهت القوم وحسدوا الرجل فقال الأمير للرجل ما أجراك على ذلك قال ثقني أنه لا يظهر منك إلا الكمال فدفع له ألف دينار.
ذكر ابن خلكان في تاريخه في ترجمة يحيى بن أكنم ما نصه رأيت في بعض النجاشية أنه أي يحيى بن أكنم مازح الحسن بن وهب وهو يومئذ صبي ثم جمشه فغضب الحسن فأنشد يحيى:

أيا قمراً أجمشته فتغضباً ... وأصبح لي من تيهه متجنباً

إذا كنت للجمش والعصّ كارهاً ... فكن أبداً يا سيدي منتقياً

ولا تظهر الاصداع للناس فتنة ... وتجعل منها فوق خديك عقرباً

فتقتل مشتاقاً وتقتل ناسكاً ... وتترك قاضي المسلمين معذباً

قال صاحب التالذ والطريف أنشد الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إمام الشافعية لنفسه:

جاء الربيع وحسنُ ورده ... ومضى الشتاء وقبح برده

فأشرب على وجه الحبي ... ب ووجنتيه وحسن خله

قال ابن السمعاني قال لي المظفر شعيب بن الحسين القاضي أنشدني الشيخ أبو اسحق الشيرازي هذين البيتين

لنفسه ثم بعد مدة كنت جالساً عند الشيخ فذكر بين يديه أن هذين البيتين أنشدا عند القاضي عين الدولة حاكم صور بلد على ساحل بحر الروم فقال لعلامه أحضر ذاك الشأن يريد الشراب فقد أفتانا به الإمام أبو إسحق فبكى الشيخ ودعا على نفسه وقال ليتني لم أقل هذين البيتين ثم قال لي كيف تردهما من أفواه الناس فقلت يا سيدي هيهات قد سار بهما الركبان أورد ذلك ابن البخاري في تاريخه واسمه محمد ويلقب بمحب الدين انتهى.

لطيفة حكى الصفدي رحمه الله بالوافي بالوفيات أن أبا الحسين الجزار رحمه الله تعالى سأله طلبته يوماً للتنزه فقالوا له يا سيدي أنت أجدر بشراء اللحم منا فتقدم للجزار وأطلعاه من مكانه ووقف هو وأخذ السكين وقطع قطعاً ثم أنه قطع قطعة رديئة فقالوا له يا سيدي هذه ليست جيدة فقال الشيخ معتذراً والله يا أولادي لما وقفت خلف الفرمة أدركني لؤم الجزائريين.

قصد أبو عيينة قبيصة المهلب واستباحه فلم يسمح له بشيء فأنصرف مغضباً فتوجه إليه داود بن زيد بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك:

داود محمودٌ وأنت مذممٌ ... عجباً لذلك وأنتما من عود
ولربَّ عودٍ قد يشقُّ لمسجدٍ ... نصفاً وباقيه لحشَّ يهودي
فالْحشُّ أنت له وذاك بمسجدٍ ... كم بين موضع مسلحٍ وسجود
وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيثٌ نعيش بوبله ... أنت جرادٌ لست تبقي ولا تذر
له أثرٌ في المكرمات يسرُّنا ... وأنت تعفِّي دائماً ذلك الأثر
ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس فقليل له أتبكي على جعفر وأنت هجوته فقال كان ذلك لركوبه الهوى وقد بلغه والله أني قلت:

ولست وإن اطَّبت في وصف جعفرٍ ... بأول إنسانٍ خري في ثيابه
فكتب: يُدفع إليه عشرة آلاف درهم ويغسل بما ثيابه.

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده اسماعيل بن علي وعيسى بن موسى والعباس بن محمد وجماعة من بني هاشم فقال له المهدي والله إن لم تمج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك فظفر إلى القوم وتحير في أمره وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه قال أبو دلامة فازددت حيرة فما رأيت أسلم من أن أهجو نفسي فقلت:

ألا بلغ لديك أبا دلامة ... فلست من الكرام ولا كرامة
جمعت دمامةً وجمعت لؤماً ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت قرءٌ ... وخنزيرٌ إذا نزع العمامة
فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه.

وكان لأعرابي امرأتان فولدت إحداها جارية والأخرى غلاماً فرقصته أمه يوماً وقالت معيرة لصرتها:

الحمد لله الحميد العالي ... أنقذني اليوم من الجوالي

من كلّ شوهاء كشنّ بالي ... لا تدفع الضيمَ عن العيال
فسمعتها فأقبلت ضرّتها ترقص ابنتها وتقول:
تغسل رأسي وتكون الغالية ... وترفع الساقط من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانية ... أزّرتها بنقبةٍ يمانية
أنكحتها مروان أو معاوية ... أصهار صدقٍ ومهورٍ غالية
قال فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها
فقال معاوية لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر لكن لا تحرم الصلة فبعض إليها بمائة ألف درهم.
قيل إن رجلاً قال لولده وهو في المكتب في أي سورة أنت فقال لا أقسم بهذا البلد ووالدي بلا ولد فقال
لعمري من كنت ولده فهو بلا ولد.

وأرسل رجل ولداً يشتري له رشاء للبرّ طوله عشرون ذراعاً فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال يا أبتى
عشرون ذراعاً في عرض كم. قال في عرض مصيبي فيك يا بني.
وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يوماً مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله فلم يجبه
ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال يا عم كلنا عبيد الله فأبي عبد الله تعني فالتفت أبو حمزة إليه وقال يا حمزة
فقال حمزة بن الأعرابي كلنا جمامير الله فأبي حمزة تعني فقال أبوه أعنيك يا من أحمد الله به ذكر أبيه.
ويعجبني قول الصفدي:

لولا شفاعه شعره في صبه ... ما كان زار ولا أزال سقاما
لكنّ تنازل في الشفاعه عنده ... وغدا على أقدامه يترامى
وقال ابن الصائغ:

ثنى غصناً ومدّ عليه فرعاً ... كحظّي حين أطلب منه وصلاً
وبلبله على الأرداف منه ... فلم أر مثل ذاك الفرع أصلاً
وقول الآخر:

أبدت ثريا قرطها وشعرها ... متصلٌ بكعبها كما ترى
يا عجباً لشعرها لما ابتدى ... من الشريا فانتهى إلى الثرى
وقول ابن نباتة:

وبمجهتي رشاً يمس قوامه ... فكأنه نشوانٌ من شفتيه
شغف العذار بخدّه ورآه قد ... نعست لوحظه فدبّ عليه
وقوله أيضاً مضمناً:

وضعت سلاح الصبر عنه فما له ... يغازل بالألحاظ من لا يغازله
وسال عذاراً فوق خديّه سائلٌ ... على خدّه فليتق الله سائله
ولبعضهم في ذم العذار:

غداً لما التحى ليلاً بهيماً ... وكان كأنه قمرٌ منيرٌ
وقد كتب السواد بعارضيه ... لمن يقرأ وجاءكم النذير
ولآخر:

ما زال ينتف ريجاناً بعارضه ... حتى استطال عليه صار يحلقه
كأنه طور سينا فوق عارضه ... طول الزمان فموسى لا يفارقه
برهان الدين القيراطي:

شبه السيف والسنان بعيني ... من لقتلي بين الأنام استحلاً
فأبى السيف والسنان وقالاً ... حدّنا دون ذاك حاشا وكلاً
ابن الصائغ:

لمثلي من لواظها سهام ... لها في القلب فنكٌ أيُّ فنكٍ
إذا رامت تشكُّ به فؤاداً ... يموت المستهام بغير شكٍ
الصلاح الصفدي:

يا عاذلاً لي على عينٍ محبّةٍ ... خفّ سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها ... لا ترم نفسك بين السهم والمهدف
آخر:

أنفقت كنز مدامعي في ثغره ... وجمعت فيه كل معنى شارِدٍ
وطلبت منه جزاء ذلك قبلةً ... فمضى وراح تغزّي في البارد
عز الدين الموصلّي:

كالزرد المنظوم أصداغه ... وخدّه كالورد لما ورد
بالغت في اللثم قبلته ... في الخدّ تقيبلاً يفكُّ الزرد
ابن نباتة:

انسية في مثال الجنّ تحسبها ... شمساً بدت بين تشريقٍ وتغميم
شقت لها الشمس ثوباً من محاسنها ... فالوجه للشمس والعينان للريم
آخر:

بصدرها كوكباً درّ كأنهما ... ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتها بستمور من غلاتها ... فالنفس في الحلّ والركنان في الحرم
الصلاح الصفدي:

تقول له الأغصان مذّهرٌ عطفه ... أترعم أن اللين عندك ما قوى
فقم نحتكم للروض عند نسيمه ... ليقضي على من مال متاً إلى الهوى
وكأنه ينظر إلى قول السراج:

ومهفهفٍ عني يميل ولم يعمل ... يوماً إليّ فصحتُ من ألم الجوى

لم تميل إليّ يا غصن النقي ... فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى
أراد ملك الروم أن يباهي أهل الإسلام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة
فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا
قيساً على نزع السراويل فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنّها ... سراويل قيس والوفود شهود
وكيلا يقولوا خان قيس وهذه ... سراويل عادٍ أحرزتها ثمود

وإني من القوم اليمانيين سيّد ... وما الناس إلّا سيّد ومسود
ثم دعا معاوية للرجل الشديد القوة بمحمد بن الحنفية فخيره بين أن يقعد فيقيمه أو يقوم فيقعده فعلمه في
الحالتين وأنصرفا مغلوبين.

وحكى الجاحظ ما أخرجني قط إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له أعمل مثل هذا فبقيت مهوياً ثم سألت
الصائغ فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت: لا أدري كيف أصوره فأنت بك إليّ
لأصوره على صورتك وفي الجاحظ يقول بعضهم:

لو يمسح الخنزير مسحاً ثانياً ... ما كان إلّا دون قبح الجاحظ

رجلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى في عين كل ملاحظ

لو أن امرأةً جلت لمثاله ... وراّه كان له كأعظم واعظ

قيل إنه قدم تاجر إلى المدينة يحمل من أحمرّة العراق فباع الجميع غلا السود فشكا إلى الدارمي وقد تنسك
وتعبد فعمل بيتين وأمر من يعني بهما في المدينة وهما:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا فعلت بزاهدٍ متعبد

قد كان شمر للعبادة ذيله ... حتى وقّعت له بباب المسجد

فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق في المدينة مليحة إلا
اشتريت لها خماراً أسود فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبد وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها.

ومر رجل أشمط بامرأة عجيبة في الجمال فقال يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه وإلا فاعلمينا

فقلت كأنك تخطبني قال نعم فقلت إن في عيباً قال وما هو قالت شيب في رأسي ففنى عنان دابته فقلت

على رسلك فلا والله ما بلغت عشرين سنة ولكنني أحببت أن أعلمك أيّ أكره منك مثل ما تكره مني.

وقال عبد الله الماجشون وهو من فقهاء المدينة قال لي المهدي يوماً يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك

قال قلت يا أمير المؤمنين:

لله باكِ على أحبابه جرّعاً ... قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا

ما كان والله شؤمُ الدهر يتركني ... حتى يجرّعني من بعدهم جرّعا

إنّ الزمان راى إلف السرور لنا ... فدبّ بالين فيما بيننا وسعى

فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً ... فلا زيادة شيءٍ فوق ما صنعا

فقال والله لأعينتك فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وحكى بعضهم قال دخلنا إلى دير هرقل فظننا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له أحسنت فأوماً بيده إلى حجر يرمينا به وقال لثلي يقال أحسنت فقررنا منه فقال أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا أحسنت وإن أنا أسأت فقولوا أسأت فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم ... وحملوها وسارت بالدمى الإبل
وقلّبت بخلال السجف ناظرها ... تنو إليّ ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانها عنم ... ناديت لاحملت رجلاك يا جهل
يا حادي العيس عرج كي أودّعهم ... يا حادي العيس في ترحالك الأجل
إني على العهد لم أنقض مودّهم ... يا ليت شعري لطول البعد ما فعلوا
فقلنا له ماتوا فقال وأنا والله أموت ثم شهق شهقة فإذا هو ميت.
قيل لما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقالوا أبو دلامة:

إني نذرت لئن رأيتك قادماً ... أرض العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبي محمد ... ولتملأن دراهماً حجري
فقال المهدي صلى الله على محمد فقال أبو دلامة ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية فضحك وأمر ببدرة فصبت في حجره.

وتزوج مغنٍ بئاحة فسمعها تقول اللهم أوسع لنا في الرزق فقال لها يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك فإن كان فرح دعوني وإن كان حزن دعوك.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين يتلى حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظماء فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل مذهب جمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له اشرب مرقداً فقال ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى فأحجي له المنشار وقطعت رجله فقال ضعوها بين يدي ولم يتوجع ثم قال لئن كنت ابتليت في عضو فقد عوفيت في أعضاء فينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات فقال الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة.

وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال خرجت مع رفقة مسافرين ومعهم مالي وعبالي ولا أعلم عسبياً يزيد على مالي فعرسنا في بطن واد فطرقنا سبيل فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجليه فذهبت عياني فأصبحت بلا عيين ولا ولد ولا مال ولا أهل فقال الوليد اذهبوا به إلى عروة ليعلم إن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

ومما نقلته ما حكى عن مسلم بن الوليد أنه قال: كنت يوماً جالساً عند خباء لي بازاء منزلي فمر بي إنسان أعرفه فقمّت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي دراهم بل كان عندي زوج أخفاف

فأرسلتهما مع جاريتي لبعض معارفي فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرق فظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ففتحت الباب وخرجت فقال أنت مسلم بن الوليد قلت نعم واستشهدت له بالضيف على ذلك فأخرج لي كتاباً وقال هذا من الأمير يزيد بن يزيد فإذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدمك علينا فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشترت فاكهة وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيبي شيئاً يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقعة فوجدناه في الحمام فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت فإذا هو جالس على كرسي ويده مشط يسرّح به لحيته فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال ما الذي أقعدك عنا قلت ذات اليد وأنشدته قصيدة مدحته بها قال أتدري لم أحضرتك قلت لا أدري قال كنت عند الرشيد منذ ليل أحادثه فقال لي يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات:

سلّ الخليفة سيفاً من بني مضر ... يمضي فيخترق الأجسام إلهاما

كالدهر لا ينثني أبداً عمّا يهيمُ به ... قد أوسد الناس إنعاماً وإرغاما

فقلت والله لا أدري يا أمير المؤمنين فقال سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله: فسألت فقيل لي هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليك فأنهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلنا الأرض وسلمت فرد علي السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر فأمر لي بمائتي ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء انتهى.

نادرة قيل ترافق رجلاً في طريق فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لي عليك حق وإني رجل من الجان ولي إليك حاجة قال وما هي قال إذا وصلت إلى المكان الفلاني من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها وإذبحه فقال له الآخر وأنا أيضاً لي إليك حاجة قال وما هي قال إذا ركب الجني إنساناً ما يعمل له قال تشد إبهاميه بسير من جلد اليعمور وتقطر في أذنيه من ماء السذاب أربعاً وفي السرة ثلاثاً فإن الراكب له يموت ثم تفرقا ودخل الأنسي ففعل ما أمره به الجني من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر ومن حين ذبحت الدين سلبت صبية عندنا عقلها فلا نفلتك إلى إلى صاحب المدينة قال فقلت لهم أتتوني بسير من جلد اليعمور وقليل من ماء السذاب ودخلت على الصبية فربطت إبهاميهما وقطرت ماء السذاب في أذنيه فسمعت صوتاً يقول آه علمتك على نفسي ثم مات من ساعته وشفى الله تلك الشابة واليعمور دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر وقيل هو كالإبل يلقي قرنيه كل سنة وهما صامتتان وقال الجوهري هو الحمار الوحشي.

كتاب : ثمرات الأوراق
المؤلف : ابن حجة الحموي

ومن اللطائف ما حكاه أبو الفرج في كتاب النساء وابن الكردبوس في الاكتفاء قالاً كانت عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي وكان قد أحبها حباً شديداً ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً فحلف لها أن لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة فوفى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يوماً وقال له يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك وأنت قد ملكت امرأة واقتصررت عليها فإذا مرضت مرضت وإذا حاضت حاضت وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستطراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن وأجناس التمتع بما تشتهي منهن فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة العيذاء والعتيقة الادماء والزهية السمرء والمولدرات المغنيات اللواتي يفتن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمرء واللعساء من مولدات البصرة والكوفة وذوات الألسن العذبة والقنود المهفهفة والأوساط المختصرة والثدي النواهد المحققة وحسن زيهن وشكلهن رأيت فتنا ومنظراً حسناً وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن من الحياء والتخفر والدلال والتعطر ولم يزل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه فلما فرغ قال له أبو العباس ويحك والله ما سلك مسامعي قط كلام أحسن مما سمعته منك فاعده علي فاعاده عليه أم سلمة وكانت تبرّه كثيراً وتتحرى مسرته وموافقته في جميع ما أراده فقالت له مالي أراك مغموماً يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكلاهه أو أتاك أمر ارتعت له قال لم يكن شيء من ذلك قالت فما قصتك فجعل يكتُم عنها فلم تنزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت فما قلت لابن الفاعلة قال سبحان الله ينصحنى وتشتمينه فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيداً وأمرتهم بضربه والتنكيل به قال خالد: وانصرفت إلى منزلي مسروراً بما رأيت من اصغاء أمير المؤمنين إلى كلامي وإعجابه بما ألقى إليه وأنا لا أشك في الصلة فلم ألبث أن جاء العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة فوقفوا علي وسألوا عني فعرفتهم نفسي فأهوى إلي أحدهم بعمود كان في يده فبادرت إلى الدار وأغلقت الباب ومكثت أياماً لا أخرج من منزلي وطلبني أمير المؤمنين طلباً شديداً فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علي فقالوا أجب أمير المؤمنين فأيقنت بالموت وقلت لم أردم شيخ اضيع من دمي وركبت فلم اصل إلى الدار حتى استقبلني عدة رسل فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسا فأومأ إلي بالجلوس فتاب إلى عقلي وفي المجلس باب عليه ستور وقد أرخيت وخلفه حركة فقال لي يا خالد منذ ثلاث لم أراك قلت كنت عليلاً يا أمير المؤمنين قال أنت وصفت في آخر دخلة لي من أمر النساء والجواري ما لم يطرق سمعي قط كلام أحسن منه فاعده علي قلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب إنما اشتقت اسم الضرة من الضر وإن أحداً لم يك عنده امرأتان إلا كان في ضرر وتنغيص قال ويحك لم يكن هذا في حديثك قلت نعم يا أمير المؤمنين إن الثلاث من النساء كأسفي القدر تغلي عليها أبداً وإن الأربع شر مجموع لصاحبه يمرضنه ويسقمنه ويضعفنه وإن أبكار الأماء رجال ولكن لا خصي لمن قال فقال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منك من هذا شيئاً قط قال خالد بلى والله يا أمير المؤمنين وعرفتك إن بني مخزوم ريحانة قريش وإن

عندك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينك إلى الإماء والسراري قال خالد فقال لي أبو العباس ويحك أتكذبني قلت أفقتلني يا أمير المؤمنين قال فسمعت ضحكاً من وراء الستر وقائلاً يقول صدقت والله يا عماه هذا الذي حدثته ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به قال خالد فقامت عنهما وتركتهما يتراودان في أمرهما فما شعرت إلا برسول أم سلمة معهم المال وتخوت ثياب فقالوا لي تقول لك أم سلمة إذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا انتهى.

ومن البدائع ما يحكى أن السلطان الملك الكامل أصبح متمرصاً فأشار عليه الأطباء باستعمال شراب ليمون شتوي فأمر بعض الخدام بإحضاره فمضى الخادم وأحضر شراب ليمون سائل فقال الطبيب ما طلبت إلا شتويًا وهذا سائل ردوه فقال الأمير صلاح الدين والله مامن عادة مولانا السلطان ان يرد سائلاً فقال السلطان والله ما أرد سائلاً هاتوه أحسنت والله يا صلاح الدين فأكله وكان الشفاء فيه.

ونظير ذلك ما حكى أنه كان بالقاهرة شاب حسن الوجه يسمى بركن الدين وله معلم اسمه إبراهيم كان ربما يتهم به وكان بعض الأدباء يميل إلى هذا الصبي وله فيه غزل حسن قال الناقل فركبت يوماً مع الأمير صلاح الدين فمررنا على باب ذلك الصبي فوجدت ذلك الأديب قريباً من الباب فقلت له أي شيء تصنع ههنا فقال أطوف بالبيت فلعلني أستلم الركن أو أصل إلى مقام إبراهيم فاستحسن ذلك منه وسألني الأمير صلاح الدين ما معنى ذلك فغالطته في الجواب فأقسم أن لا بد أن أخبره فأخبرته فاستحسن ذلك منه وأمر بإحضاره إلى مجلسه ونال منه راحة.

ذكر ابن الجوزي في كتاب تلقيح فهوم الأدباء عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جده قال بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها ... أم من سبيلٍ إلى نصر بن حجاج

إلى فتى ماجدٍ الأعراق مقبيلٍ ... سهل الحياء كريمٍ غير ملجاج

تنميه أعراق صدق حين تنسبه ... أخى وفاء عن المكروب فرّاج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه لا أدري معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن عليّ بنصر بن حجاج فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم شعراً فقال عمر عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك فأخذ من شعره فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له اعتم فاعتم فافتتت الناس بعينه فقال له عمر والله لا تساكني في بلدة أنا فيها فقال يا أمير المؤمنين ما ذنبي قال هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدو من عمر إليها شيء فلدست إليه أبياتاً وهي:

قل للإمام الذي تُخشى بواده ... مالي وللخمر أو نصر بن حجاج

لا تجعل الظنَّ حقاً أن تبّيته ... إنّ السبيل سبيل الخائف الراجي

إنّ الهوى زُومٌ بالتقوى لتحبّه ... حتى يقرّ بألجام وإسراج

قال فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى قال وطال مكث نصر بن

حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرة فقالت يا أمير المؤمنين والله لأقسنَّ أنا وأنت بين يدي الله تعالى وليحاسبنك الله أبيتن عبد الله وعاصم إلى جنيتك وبيني وبين ابني الفياضي والأودية فقال لها: إنَّ ابنيَّ لم تكتفِ بهما العواتق في خدورهن ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدًا إلى عتبة فقال عتبة من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج فكتب نصر بن حجاج بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد فإسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سیرتني أو حرمتني ... وما نلت من عرضي عليك حرام
فأصبحت منفيًا ملومًا بمنية ... وبعض أماني النساء غرام
ظننت بي الظن الذي ليس بعده ... بقاء ومالي جرمة فالام
فيمنعني فما تقول تكرمي ... وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تقول صلاحها ... وحال لها في قومها وصيام
فهاتان حالانا فهل أنت راجعي ... فقد جُبَّ مني كاهلٌ وسنام
قال فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الأبيات قال أما وليُّ السلطان فلا وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها
فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه المدينة.

قيل دخل بعض العشراء على الأديب جمال الدين بن نباتة فرأى في نواحي منزله نملا كثيرا فأنشد يقول:

مالي أرى منزل المولى الأديب به ... نملٌ تجمّع في أرجائه زمرا
فأجابه ابن نباتة بقوله:

لا تعجبنَّ إذن من نمل منزلنا ... فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا
هذا آخر ما أردت إيراد في هذا الذيل مما وقفت عليه من المستطرف والنكات المفتخرة والزند الواري
والتالد والطريف وغير ذلك والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.